

شعر الحماسة

في العصر العباسي الثاني

دكتور/ السيد محمد زبيح

الطبعة الأولى
١٩٨٤ - ١٤٠٤ م

حقوق الطبع محفوظة المؤلف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على ما منح من إحسان ، وما وهب من بيان ، والصلاة والسلام على رسولنا الكريم ونبيينا العظيم ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وأصحابه الذين آزرّوه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم الفائزون ... وبعد :

فإن بين شعر الحاسة وشعر الحرب كثيراً من الروابط والصلات ، غير أن أشعار الحاسة قد تجاوزت مفازع الحرب إلى فنون أخرى حرص المتقدمون على مقابعتها وتمعيها ، وجمعوا ما وجدوه منها ، وأودعوه كثيراً من كتب الأدب وذخائر المعرفة . ولقد كان لأبي تمام والبحتري جهود محمودة في تنسيق كثير من هذه الألوان ، وجمعها في دواوين خاصة عرفت بهم ، وشرحت من يمدح أكثر من مرة ، ثم سار على نهجهم الكتّابون في إخراج العديد من كتب الحاسة .

والشعر الجاسي الذي تعرض له يتناول ما دار في الحروب ابتداء من الإعداد لها ، وانتهاء بما آتت إياه ، وتمخضت عنه ، ويتناول أيضاً ما قاله الشعراء افتخاراً بجهودهم ، وإشادة ببلدكم وأبطالهم الذين بذلوا جهوداً مشكورة في الدفاع عن الأوطان والمعتقدات ، بينما يقتصر في شعر الحرب على ما دار فيها ، ولا يتمدها إلى ما بعدها وما ترتب عليها ، وبذلك يظهر الفرق البسيط بين الاثنين ، وإن كان من الممكن جعلهما لوناً واحداً من غير نظر إلى هذا التعدد .

والحروب التي دار حولها الشعر الجاسي في هذا الكتاب هي حروب الدولة الحدانية مع الروم في عصر سيف الدولة الحداني ، وحروب المسلمين مع الصليبيين في القرنين السادس والسابع الهجريين .

وقد نهض المتنبي بتخليد سيف الدولة ، وأشاد به ، ووصف معاركه مع الروم في روعة لا نظير لها من خلال مجموعة من القصائد عرفت (بالسيفيات) . وشارك أبو فراس بقصائده الحماسية في تمجيد الخدائين جميعاً . وأنهمنا الحديث عن هذين الشاعرين بموازنة بين شعر الحماسة عندهما ، ليقف القارئ على بعض ما بينهما من مواطن الاتفاق والاختلاف .

أما الشعر الحماسي في ظلال الحروب الصليبية ، فليس له شاعر معين ، أو عدد محدد من الشعراء وقفوا أنفسهم عليه ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لشمولية الحروب ، وامتدادها عبر قرنين من الزمان ، واتساعها لتشمل أكثر من دولة ، وقد واكبها انحدار الشعر إلى الزخرف والزينة ، وانتشار العامية والكتابات الأجنبية على ألسنة الشعراء ، وبقي شعر الحماسة مع ذلك قوياً مؤثراً لصدق الملاحظة ، وقوتها على أن الشعر الحماسي في هذه الحروب لم يصل إلى مستوى نظيره في حروب سيف الدولة مع الروم .

وقد انتهت فصول الكتاب بنهاية العصر العباسي الثاني ، وإن لم تكن الحروب الصليبية قد انتهت حتى ذلك الحين فأتممتنا الحديث عنها في خاتمة الكتاب .

والكتاب بفصوله المختلفة وبحوثه الممتدة يتابع أطوار الشعر الحماسي في ذلك العصر الذي اشتد فيه صراع الأمة الإسلامية مع الروم والصليبيين ، وكان النصر للمسلمين من وراء جهادهم وإخلاصهم ، وهى الله قصد السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

دكتور / السيد محمد أحمد ديب

٢٢ من ذى القعدة سنة ١٤٠٤ هـ
الطرية بالقاهرة في يوم الاثنين : ٢٠ من أغسطس سنة ١٩٨٤ م

تمهيد

الحجاسة :

الحجاسة في اللغة : الشجاعة والشدة والصلابة ، وهي من الفنون الخالدة في الشعر العربي على مر المصور « إذ كانت الحرب وما تزال سفة دائمة من سنن الحياة ، حتى لتشبه أن تكون غريزة من غرائز الإنسان فهو ، فقد وجد محارب يحاكي انخسوم حقلًا على بقائه وحماية لأهله وماله »^(١) .

ولم يكن العرب أول من اهتم إلى هذا الفن ، فقد سبقهم أمم كثيرة كالإغريق ، والرومان ، والهنود ، والفرس وغيرهم ، ولهذا الشعوب وغيرها ملاحم حربية طويلة سجلوا فيها أيام حروبهم ، وما فيها من انتصارات وهزائم. وبعد هوميروس رائدا ومبدعا في هذا الفن عند اليونان ، فقد تناول في قصائده الحجاسية كاللياذة والأوديسة ممالك قومه مع أهل طروادة^(٢) في القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد أخذ فرجيل من هوميروس رائدا له فنسج على مثاله ، وسار على نهجه ، وأبدع في ملحمة الحجاسية للسماء بالزيادة وصور فيها طموح الشعب الروماني وآماله ، وهي ذات طابع ديني ووطني .

ولشاعر الهندي (فياسه) ملحمة طويلة إذ تبلغ مائة ألف بيت ، وقد نظمها في الحرب بين شعوب الهند ، وهي المعروفة باسم للهابهاراته) . وقد كتب الفردوسي للتوفي في القرن الخامس الهجري ملحمة الحجاسية (الشاهنامه) مسجلا فيها تاريخ الفرس ، وحروبهم في أربعة آلاف سدة .

(١) الحجاسة للسياحى بيوى وآخرين ص ١ ، مطابع المعري « تحت المراجعة » .

(٢) ملحمة كانت تقع في آسيا الصغرى بمخاض الهردنيل .

ولم يتقل من العرب مثل هذا الشعر القصصى لطبيعة حياتهم ، وخصائص
شعرهم ، فضلا عن فطرتهم البدوية ومعتقداتهم الدينية ولشكل هذه الأمور
وغيرها انصرفوا من هذا الاتجاه إن صح أنهم لم يقولوه ، وعاشوا حياتهم
يقنعون فيها بالآلاف من قصائد الشعر الجاسى .

وقد ارتبط فن الجاسة عند العرب وغيرهم بالحرب إذ تلجأ الشعوب إليها
في حياتها البدائية والقطرية ، وتميز العرب (أيضا) في الجمالية بكثرة معاركهم ،
ووقائعهم ، حتى لتوشك أن تكون العرب نظامهم اليومى الممتد^(١)

وكان الشعر هو الوسيلة الوحيدة في دفع الرجال إلى القتال ، وفي التغنى
بالانتصارات ، ولهذا عظم الشعر بينهم ، وأصبح الشاعر لسان القبيلة في الحرب
والسلم ، ففي الحرب يمدح البطولة العربية التي تقوم على الاستبسال في القتال ،
ومقاومة الأعداء . وفي السلم يشيد بالعزة والأنفة والوفاء ، وبكل الصفات الحميدة
في الشجاعة والأبطال من رجال قبيلته .

وقد يأتي شعر الجاسة مستقلا وقائما بذاته أى أن القصيدة كلها تكون حاسية
مرتبطة بالحروب ، وللواقف الشديدة ، أو يأتي هذا اللون الشعرى من خلال
فنون الأدب المختلفة ، التي يعرفها أهل الأدب تمام المعرفة كالمدح والفخر
والوصف والزما وغيرها . على أن شعراء المدح لم يتركوا معركة بين العرب
وأعدائهم إلا سجلوا فيها مجدا عربى ... « ليدفعوا الشباب إلى سل الصوف ،
وقطع رقاب الأعداء ، ومحققهم محققا ، وبذلك كان للديح طوال العصور ...
صحيحة تربية ، وصورة للبطولة والفداء »^(٢) .

وكذلك توسع العرب في فن الجاسة من خلال الوصف الشعرى ، فكان

(١) الجاسة ص ١

(٢) عمر الدول للدكتور شوقي ضيف ص ٣٣٦ ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٨٠ م .

الشعراء يصفون المارك بما فيها من جيوش وآلات حرب ، وخبول وغيرها .
وفي الفخر يتحدثون أنفسهم ورجال قبيلتهم بالإقدام إلى الأعداء ، والنيـل
منهم ، والانتفاض عليهم ، والظفر بهم ، ويشيدون بمزائهم الجبارة ، وهممهم
القوية ، ويفخرون بأيامهم الجيدة التي تحقق فيها النصر على الغصوم والأعداء .
وعند ما يرثون ميثاقاً من موتاهم يتحدثون عن بطولته ، وبسالته في قتال
الأعداء وفي الدفاع عن قومه وأهل عشيرته .

وهكذا توسع العرب في هذا الفن ، ودخلوا إليه من منافذ متعددة وعلى
هذا جمع أبو تمام (حميد بن أوس الطائي) ديواناً كبيراً من شعر العرب
في فنونه المختلفة ، واختاره لكل سلة وسماه الحاسة ، ثم جاء البحتري من بعده
واختار هو الآخر ديواناً حاسياً للفتح بن خاقان . وسار على نهجها في هذا
الاختيار « الغنانيان ، وابن الشجري ، وأبو هلال العسكري ، والأعظم الشافعي ،
وأبو الحجاج يوسف بن محمد البيهقي الأندلسي ، وأبو الحسن علي بن أبي الفرج
البصري ، وفي دواوينهم للمرونة بالحاسات » (١) .

شعر الحاسة في العصر الجاهلي :

يمد العصر الجاهلي العصر الذهبي لشعر الحاسة ، لأن طبيعة حياة العرب
في هذا العصر جعلتهم يندفعون إلى الحرب والقتال للرغبة في السيطرة وامتداد
النفوذ . « وطبعاً أن تعم الحاسة في هذه الحياة التي تحولت فيها الجزيرة العربية
إلى ما يشبه مهادناً كبيراً من ميادين الحرب ، ففي كل قبيلة دعوة للجلاد

(١) من مقدمة ديوان الحاسة لأبي تمام ص ٦ ج ١ ، نشر أحمد أمين وعبد السلام
سارون الطبعة الثانية - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٧ م .

والسكفاح ، وفي كل دار صياح واستنفار للشجعان أن يدركوا أعداءهم ،^(١)

كانت الحياة في جزيرة العرب حياة حرب وقتال ، وغارات لا تنقطع إلا ربما تبدأ من جديد ، ومعظم هذه الحروب يدور بين القبائل العربية التي تتقاتل لأسباب الجيرة ، وما تجره من خلافات متعددة حول مواطن السكلا أو للأخذ بالثأر ، وقد تمتد الحرب بينهم إلى عشرات السنين ، ولهذا كثرت أيام حروبهم حتى زادت من الألف يوم ، وسميت هذه الأيام « بأيام العرب » كحرب البسوس وفاحس والنبراء وغيرها .

وقد تقتتل القبائل العربية مع جيرانها من الفرس أو الروم كحرب ذي قار بين العرب من قبيلة بكر وحلفائها مع الفرس ، فالعرب في جاهليتهم قد اقتتلوا مثلاً كانت الأمم الأخرى تقتتل فيما بينها أحر قتال ، وليس يخاف عليها ما كان يدور بين الأغريق والرومان ، ولكن الاختلاف بيننا وبينهم في الشعر الجاهلي نفسه وليس في أسبابه الداهية لآليه ، فلقد ظهر الشعر الجاهلي عند العرب في صورة غنائية وليس في شكل ملحني أو مسرحي كما كان عند الأمم الأخرى . ولم يغفل شاعر من شعراء الجاهلية الحديث عن الجاسة والبطولة والبسالة ، فهذا القرن عديم - سواء أكان فناً مستقلاً بذاته أو مختلطاً بغيره من فنون الشعر المختلفة - لم يطاوله فن شعري آخر .

ولقد أخذت الجاسة عديم أشكالاً متعددة ، فهي تكون تعبيراً عن فروسية شاعر واحد يضرب في الصحراء ، ويحياه غناطرها في غير خوف أو مبالاة ، وأصدق من يمثل هذا اللون من الجاسة الشعراء الصماليك الذين ظهرُوا في هذا العصر تحموا على قيود القبيلة ، وطلبا لحياة متحررة ، ومنهم قأبط شرا -

والشغرى، وعروة بن الورد، ويلق هذا اللون الخاسى اهتماما كبيرا من الأدباء والنقاد في كل العصور.

وتأتى الخاسى تميرا عن مثالية فارس من فرسان القبيلة السكاكين الذين ينهضون للدفاع عنها بالسنان واللسان معا، وأصدق من يمثل هذا الاتجاه الخاسى، ويميز عنه الشاعر عنترة العبسي في شعره عن حروب قبيلتي عيس وذبيات، يقول لمحبوبته عبلة في معلقته المشهورة:

لما رأيتُ القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذموم^(١)
يدعون عنتر والرماسح كأنها أشطانُ بئر في إبان الأدهم^(٢)
ما زلت أرميهم بثفرة محمره ولبسانه حتى تسربل بالهم^(٣)
فأزور من وقع القنسا بلبانه وشككا إلى يسيرة وتمحجم^(٤)
لو كان بدرى ما الحاورة اشقى ولسكان لو علم الكلام مكلمى

ومن أم ألوان الخاسى في الشعر الجاهل الخاسى للقبيلة في قتالها مع جيرانها العرب ومن خير ما يميز عن هذا اللون معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي التي أنشدها أمام عمرو بن هند ملك الحيرة يحذره هو وقبيلته يكرها من التعرض لغلب قبيلة عمرو.

ونجد الخاسى عند الأعشى معميرة عن التمهصب للدم والجنس من خلال قصيدته حين حارب ذى قار بين العرب والفرس قال فيها:

لو أن كل ممكّر كان شاركنّا في يوم ذى قار ما أخطأهم الشرف

(١) يتذامرون: يحض بعضهم بعضا على القتال.

(٢) الأشطان: جبال الدلاء، اللبان: الصدر، الأدهم: الفرس السوداء.

(٣) ثفرة النحر: فقرته.

(٤) أزور: مال، القنسا: الرماح، التمحجم: سهيل فية جنتين.

لما أمالوا إلى النشأ أبديهم ملأ ببيض فظل الهام يقتطف^(١)
وخيل بكر فما تنفك تطعنهم حق تولوا وكاد اليوم يقتصف

وفي الحروب السابقة وغيرها نجد الشعراء يرضون لشرح المعارك ويسجلون
ما يدور فوقه ، ويصفون شجاعة الأبطال ، وأدوات الحرب ، ويحددون زمن
القتال ، في مقطوعات صغيرة من الشعر أو في شكل معانيق وقصائد طوال .
ويعد الفخر والحب من أهم الفنون التي اختلطت ، وامتزجت بالحاسة ،
أما الفخر فله طبيعة حيوانية في المواضع والبرادى على السواء ، وأما الحب
فلأن المرأة دورا (في بعض القبائل) لا ينبغي إغفاله ، فهي إما ملهمة للشاعر
كميلة محبوبة عنتره ، وإما شاعرة تقول الشعر الحامى مثل الرجال من الشعراء
كالحفساء التي رثت أخويها معاوية وصنمرا ثم أجادت وأبدعت في رثاء
أولادها الأربعة الذين استشهدوا في موقعة القادسية بعد ذلك .

شعر الحاسة في صدر الاسلام :

تحولت الحاسة في العصر الاسلامي (من بعد الهجرة وحتى نهاية حكم الخلفاء
الراشدين) تحولاً جديداً يراكمب شريعة الاسلام في الأخلاق والمعاملات ، ونظم
الحياة ، فلقد اخفقت عادة الأخذ بالنار والشجاعة في الباطل ، والعصبية القبلية
لتحل محلها تماليم الاسلام في الجهاد في سبيل الله ، والشجاعة في الحق ، والأخوة
الإسلامية ، وبعد أن كان العربي يمشي لنفسه ولأسرته وقبيلته أصبح يمشي
لنفسه وللمجتمع الإسلامي الذي أصبح وحدة متكاملة في الجهد والمال وأعباء
الحياة .

وانتد انطفت لشعر الحامى في هذا العصر إلى منطقتين أساسيتين ، أما الأولى

(١) النشأ : الجنبل ، البيض : السيوف ، الهام : الرءوس .

فقد تحول الشعر فيه إلى عزوات الرسول التي خاضها مع كفار قريش ، أما الثاني فقد دار حول الفتوح الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين .

وكانت غزوة بدر أول احتكاك قوى بين الرسول وكفار مكة ولم تلبث الفئة القليلة المؤمنة أن انتصرت على الفئة الكبيرة الكافرة ، وعاد شعراء المدينة يرتلون الشعر الحماسي في قوة وإيمان ومنهم كعب بن مالك الذي قال :

فكعب أبو جهل صرماً لوجهه وعتبة قد غادرته وهو عائر^(١)
وشيبة والتميمي غادون في الوغى وما منهم إلا بذى العرش كافر^(٢)
فأمسوا وقود النار في مستقرها وكل كفور في جهنم صائر^(٣)
وكان رسول الله قد قال أقبلوا فلولوا وقالوا : إنما أنت ساحر^(٤)
لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حمسه الله زاجر^(٥)
ومن شعر حسان في هذه الغزوة :

لقد علفت قريش يوم بدر غداة الأسر والقتل الشديد
بأنا حنين تشجير الدوالي حماة الحرب يوم أبي الوليد^(٦)
قتلنا أبنى ربيعة يوم سارنا إلىنا في مضاعفة الحديد^(٧)
وهكذا تحول الفخر القديم إلى نوع جديد هو الفخر الذي كلون من الشعر الحماسي في عصر صدر الإسلام .

ولقد استولى العرب في عهد الخلفاء على مصر والشام من أيدي الروم ، كما

(١) كعب لوجهه : انكفاً على وجهه ، العائر : الساقط .

(٢) حمه : قدره .

(٣) الدوالي : أعلى الرماح ، تشجير : تشبكه ، أبو الوليد : عتبة بن ربيعة .

(٤) ابنا ربيعة : عتبة وشيبة ، مضاعفة الحديد : الدرع التي ضوعف نسيجها .

استولوا على الدولة الفارسية ، ولشعراء السدين قصائد حماسية ، رائعة ، تصور إقبالهم على الحرب ، وإقدامهم على قتال الفرس والروم في مواقع متعددة كالكادسية ونهاوند وغيرها . ومن عبروا عن حساسة العرب في هذه الحروب أبو عجين النقي وعروة^(١) بن زيد الخيل ، وبشر بن زبيبة الخثعمي والأسود ابن قطبة وغيرهم من كانوا شعراء وفرسانا .

شعر الحاسية في العصر الأموي :

أتمه شعر الحاسية في عصر بني أمية إلى اتجاهين اثنين .

الاتجاه الأول :

نحو الفتوح الإسلامية ، التي بدأت في عصر صدر الإسلام ، ولقد واصل الأمويون نشاطهم الحمود فيها إلى الشرق والغرب .

الاتجاه الثاني :

وهو الذي انصرف إليه معظم الشعراء في هذا العصر نحو المداخل ومافيه من صراعات حزبية أحييتا المصيبة القبلية التي عادت للاظهور في هذا العصر بعد أن اختفت على عهد الرسول ، وخلفائه الأوائل .

فشعراء الحاسية في هذا العصر قد سموا إلى تحقيق أهدافهم السياسية في ظل الأحزاب المتعددة التي كادت تمزق الناس شر ممزق ، مستعينين في ذلك بالمصيبة القبلية التي كان الإسلام قد أماتها ، مع استغلال الدين أو التعمص به على اختلاف في الموى والقصد .

وإذا كان الشعر الحاسي في هذا العصر قريب الشبه بنفاذ الجاهلي من حيث

(١) أسلم والده زيد الخيل وسماه لرسول زيد الخير .

جزالة اللفظ وروعة الدباجة إلا أن شعر الحناسة عند الأمويين قد حفل بالفاظ ومصطلحات جديدة ، لم يكن الجاهليون يهد بها ، كما أن هذا الفن قد ضعف في هذا العصر بالنسبة إلى حالته في العصر الجاهلي باستثناء بعض الفحول من الشعراء.

وأقوى الأحزاب السياسية انصهارا في الحرب ، وحبا القتال في هذا العصر حزب الخوارج ، فسكانت حماسهم دينية ممتزجة بالفخر والسياسة ومن زعمائهم الذين برزوا في القتال وقول الشعر قطري بن النجاء ، ومن شعره الحماسي الذي يخاطب فيه نفسه ، ويحثها على الصبر والثبات قوله :

فصبرا في مجال الموت صبرا فإ نهل الخلود بمسططاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخي الخنجر البراع^(١)
سبيل الموت غاية كل حي فداعيه لأهل الأرض داعي
ومن لا يثبت بسأم ويهرم ويسلمه المنون إلى انقطاع^(٢)
وما للمرء خير في حيلة إذا ماعد من سقط المتاع
كما يعجل الشعر الحماسي أيضا في شعر الشيعة الذين كانوا على طرفي نقيض من الخوارج وقد استقروا في العراق ، وكانوا ينادون بأن تكون الخلافة في آل البيت ، وخاضوا عدة حروب مع الأمويين ، وقتل الكثير منهم ، ولهذا جاء شعرهم مقرونا بالشجون بمزج بالدم والدموع ، وقد خلطوا السياسة بالدين : لأن فكرتهم دنيوية خالصة من أجل الوصول إلى الحكم الذي عرض عليه بنو أمية بالفواجذ . وأول الشعراء عند الشيعة هو السكيت بن زيد الأسدي .

(١) الخنجر القذبة ، البراع : الجبان .

(٢) يثبت : يموت ، المنون : الموت .

وعمر عبد الله بن قيس الرقيات في شعره الحاسي، عن مطالب آل الزبير الذين اتخذوا من الحجاز مركزاً لانطلاقهم، واعد نفوذهم إلى بعض المناطق في العراق. وخاض عبد الله بن الزبير وأخوه مصعب عدة حروب مع بني أمية. وقد قُتل الأول بحرم مكة وصلب بجوار السكبة وقتل الثاني بأرض العراق. وظل ابن قيس الرقيات بمكة ثم فرّ هارباً إلى فلسطين بعد مقتل عبد الله بن الزبير في الحرم الشريف.

والثف عدد كبير من الشعراء حول الحزب الأموي الحاكم، فوصفوا الحروب، وأشادوا بحماسة الجنود، وسجل الأخطل وكعب الأشقرى ومسكين الدارمي وغيرهم بطولات الأمويين، وقاتلهم لخصومهم من أهل الأحزاب الأخرى، وكان العصر غالباً في هذه الحروب الداخلية لبني أمية، وخاض الجيش الأموي حروباً أخرى في الخارج وهي التي أطلق عليها «حرب الفتوح الإسلامية».

الحاسة في العصر العباسي الأول:

مع أن عصر الأحزاب السياسية قد انتهى بانتهاء حكم الأمويين إلا أن البقية الباقية من قلوب الخوارج والشعة كانت تقاتل في هذا العصر في حروب داخلية للدفاع عن مبادئها وأفسكارها السياسية والدينية، ثم لم يلبث أن خمد صوت الحروب الداخلية بين هذه العناصر، وكان ذلك أحد الأسباب في ضعف الشعر الحاسي في هذا العصر، وعاون على هذا الضعف أيضاً توقف الفتوح الإسلامية حيناً من الزمن في أوائل هذا العصر، وذلك لانشغال العباسيين بتوطيد ملكهم، وتأمين دولتهم.

ثم اشتعلت الحروب بين العرب والروم في عصر هارون الرشيد ثم في عصر للمعسر.

وسواء أكانت هذه الحروب على البر أو في البحر ، فقد أهتم الشعراء أيضا
بالمبارك البحرية ، فوصفوا ما دار فيها في شعر حماسي جديد ورائع .
ومن خوالده أبي تمام الحساسة في حروب المعتصم مع الروم قصيدة :
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
« وتفيض كتب التاريخ في وصف هذه الحملة ، وما أفاء الله على المعتصم
وجنوده من غنائم فيها ، وما قتلوا وأسروا من الروم ، وما سبوا من نسائهم .
وهي لا ريب أعظم حملة في تاريخ العباسيين ، وقد ألقوا بها الرعب والفرع
في قلب تيوفيل وأعدائه وأوشك أن يقع أسيرا لولا فراره على وجهه ، ولحاقه
بماصمته ، تاركاً وراءه خيرة قواده تفوشهم سيوف المعتصم وجنوده »^(١)
قال أبو تمام عن هذه الحملة التي ذهبت لتغال الروم على أرض «عمورية» :
أقصد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهم الليل وهو ضحي تشله وسطها صبح من الذهب^(٢)
حق كأن جلايب الهبي رغبت من لونها أو كان الشمس لم تنس
ضوء من النار والظلماء ماكفة وظلمة من دخان في ضحي شجب^(٣)
فالشمس طالمة من ذا ، وقد أفلكت والشمس واجبة من ذا ولم تجيب^(٤)
والقصيدة طويلة وكلها صور نفية رائعة .

ولأبي تمام قصائد أخرى حساسة يصف فيها حروب أبا سعيد الثغري والي
العباسيين على أرمينية ، وسائر ثغور الروم في شمالي سورية ، وقد مدح بهجته

(١) الحساسة للعباسي بيومي وآخرين ص ٨٤ .

(٢) يعله : يطرده .

(٣) ماكفة : عحية .

(٤) أفلت ووجبت : غابت .

هذا الوالى لفتوحاته المظيمة ، ولكرمه وبسطه يده ، وارتياحه المعروف ،
وحبه للشعر والشعراء ، وقد أجاد البصيرى فى تصوير حسنة أبى سعيد ،
قال عنه :

فزهوا باسمك الصبي فداوت حركات البكاء فيه سكونا

ويقول الدكتور زكى المحاسنى معلقاً على هذا البيت : « وإلى أرى فى هذا
البيت وحده غنية عن قصائد فى تصوير بطولة أبى سعيد النخعى وبطشه فى ديار
الروم ، وحماية حدود المسلمين » (١).

وقد استمرت الحروب بين العرب والروم فى العصر العباسى الثانى (٢) ،
وتحدث عنها وأجاد فى تصوير وقائعها الشاعران العظيمان أبو الطيب المتنمى ،
وأبو فراس الحمدانى فى ظلال سيف الدولة ، وهذا ما سوف نعرض له بالتفصيل
فيما يأتى من صفحات .

(١) عمر الحرب من ٢٠٥ دار المارف ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٠ م .

(٢) من ٢٣٤ إلى ٦٥٦ هـ .

الباب الأول

شعر الحاسة في ظلال المحدثين

Copyright © 2000 by John Wiley & Sons, Inc.

الفصل الأول

الدولة الخديانية في ظل سيف الدولة

وأم الشعراء في عصره

كانت الدولة الخديانية كغيرها من الدول الكثيرة التي ظهرت على مسرح الأحداث السياسية في القرن الرابع الهجري وما بعده ، لأن الدولة العباسية وهي الأم (الكبيرة) قد تجاوزت - وبسرعة - مرحلة الشباب والقوة إلى سن اليأس والضعف ، وتطيراتها الكثيرة ، ومساحتها الشاسعة طمع فيها الكثيرون ، وأصبحت اسما بدون معنى ، أو رمزاً (ظاهرياً) لوحدة المسلمين .

لقد كان الخليفة العباسي مع بداية القرن الرابع (بالتات) مشغولاً بنفسه ، منصرفاً إلى حاشيته ، لديه مملكة واسعة تمتد شرقاً وغرباً ، لكنه مشلول الإرادة ، ملووب الحركة ، تعصم فيه وتسير أموره عناصر أجنبية من ترك وفارس ، وهم يتناوون المجلس حوله ، ويمدون له القرار ، ويمارسونه بقواتهم الخاصة ، ويترعدونه بالقتل إن انفرذ بالراى دونهم ، وكانت هذه العناصر الأجهبية على وى كامل بما تفعل وتخطط ، ولم يكن اختيارها لقصار من العباسيين لهكونوا خلفاء اختياراً عشوائياً .

ولهذا... زالت هيئة الخلفاء ، ولمب بهم الأعاجم لمباً يسطره التاريخ بعداد من الأسى والحسرة ، تدمع لرؤيته عينا كل من يت إلى المروية

سبب ، وكل من يستشعر قلبه الكرامة والإباء ، وكان ذلك مؤذناً بأقول
نجم العباسيين»^(١) .

وقد ذهبت دماء عربية كثيرة ضحية لمؤامرات خبيثة خططت لها ، وأشعلت
نارها تلك العناصر التي اتخذت من الإسلام ديناً جديداً ، كما نعرض الدين
الإسلامي لهزات عنيفة ، وضربات مصمية ظهرت آثارها في القرون التالية .
وأصبحت الأمة في متقل ، وعاشت مدة بين المد والجزر ، وتقلص الفاطميون بها ،
واختفوا تماماً من بلدان كثيرة بالغرب والشرق كانت قد تمررت بالإسلام .
وكوت هذه الدماء الأجنبية دولاً متعددة ، وانجهوا بها شمالاً وشرقاً في فارس
وبلاد الترك وخراسان وأفغانستان .. وغيرها .

وبقيت العناصر العربية في بعض أجزاء من العراق وسورية ومصر ،
والجزيرة العربية ودول المغرب العربي والأندلس .

وكانت هذه الدول الصغيرة والمتعددة من عرب أو عجم ، والتي نشأت
مع هذا المصير تخوض غمار حروبها تحت راية الإسلام ضد أعدائه ،
وكثيراً ما كانت تنقل مع بعضها من أجل امتداد النفوذ ، وشمول السيطرة
على مساحات أوسع ، ولهذا كانت حياتها قصيرة ، لأنها لم تتفق على هدف
تسمى إليه ، فالمصالح مختلفة ، والأهواء متباينة .

والدولة الجذافية إحدى هذه الدول ، فقد برزت إلى الوجود السياسي
والجنواقي في القرن الرابع الهجري ، وعاشت معظم حياتها في حروب طويلة
ومستمرة مع الروم والبيزنطيين من جهة ، ومع الدول المجاورة والقبائل العربية

(١) الشعر في ظل سيف الدولة د . درويش الجندى ص ٤٣ ، الأتجاه المصرية
العلمية الأولى سنة ١٩٥٩ م .

من جهة أخرى ، فضلا عن حروب الشق الثاني من هذه الدولة^(١) مع آل بويه والأكراد والمقليات وغيرهم .

وهذه الدولة في أساسها أسرة عربية كبيرة ، عريقة الأصل ، عظيمة المجد ، وهي قبيلة « تغلب » إحدى قبائل ربيعة ، وجدها الأعلى في الجاهلية الشاعر الفارس عمرو بن كلثوم الغناني ، فقد اشتهرت بالشعر كاشتهارها بالفروسية وإليها ينسب كذلك المهمل الشاعر الغناني الربيعي الذي كان رائدا في الشعر الجاهلي ، وقد تزحت هذه القبيلة من تهامة إلى نجد والحجاز ، ثم استقرت على ضفاف الفرات في سهل الرقة الفسيح . وكانت « تغلب » مسيحية الديانة ، ولم يفتح أهلها بالإسلام كدين جديد عند ظهوره ، ثم صالحهم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، واختلنوا مع على كرم الله وجهه ، وانجهوا إلى الأمويين ، وكان منهم الأخطل الشاعر الأموي المشهور ، ولم يستمروا على مسيحتهم فدخلوا في الإسلام واحدا بعد الآخر . وظهر من تغلب جد الحداثيين الأكبر حمدان بن حمدون ابن الخارث الذي كان من رؤسائهم ، ومن أصعاب الشأن الكبير في ديارهم ومحل إقامتهم بالعراق ، وقد نزل في بلدة تسمى « رباح » بجوار الموصل . . . « وكان ذا مكانة عالية بين قومه ، ينظرون إليه بعين الإعجاب والإكبار ، ومن عهده يبدأ الجهاد الحداثي للقواصل لغتال الأسرة الحداثية ما هي جذيرة به من شرف السيادة وعزة الملك »^(٢) .

وقد بدأ حمدان بن حمدون محاربه اتسكوين دولة حداثية مستقلة وذات سيادة محدودة عندما استولى على قلعة ماردين سنة ٢٧٤ هـ ، ولسكنه لم يوفق في محاولته فقد أجبره الخليفة المعتضد بمحاولته ، وقبض عليه وسجنه سنة ٢٨١ هـ . ثم عادت

(١) وهو الذي اتخذ من الموصل مستقرا له .

(٢) الشعر في ظل سيطرة الدولة ص ٢٩ .

الثقة بين المعتضد وآل حيدان، وسار الخليفة للسكفي على خطة أبيه فمیں آبا المہجاء
عبد الله بن حيدان حاکما الموصل وما حولها سنة ٨٢٩٢ . ولکن ولايته
كانت مخوفة بالزاع والانتلابات ، لأن ولي الأمر في بغداد لم يملك نفسه
خيرا ولا نقما^(١) .

وقد اشيد ساعد أبي المہجاء ، وزادت قوته بتعيين آخرين من بني قبيلته
في مناصب متعددة من الخلافة العباسية المنتهية الأرجاء مما جعل الخليفة لاقتدر
يقلده الولاية للمرة الثانية في سنة ٨٣٠٢ . واستمر أبو المہجاء على ولايته
للمباسيين حتى قتل سنة ٨٣١٧ في دار الخلافة ببغداد ، ثم خلفه على ولاية الموصل
ابنه (الحسن بن عبد الله) وضمت إليه ديار بكر وديار ربيعة ، واتسمت بذلك
منطقة النفوذ للدولة الحيدانية .

وكان أبو محمد (الحسن بن عبد الله) وأخوه أبو الحسن (علي بن عبد الله)
من قواد الدولة العباسية النابيين ، وقد قاوما بعض الخارجين على الخليفة المتقي ،
سنة ٨٣٣٠ فأعجب بهما ، ولقب الأول بناصر الدولة ، ولقب الثاني بسيف
الدولة ، وأمر بضرب اسميهما على الدراهم والدنانير^(٢) وطوق كلاهما بطوقين
وأريمة أساور من الذهب ، وجعل سيف الدولة حاکما لواسط^(٣) .

وقد زادت قوتهم ، واتسع نفوذهم مع استمرارهم في الولاء الظاهري تجاه
المباسيين ، والميل على خدمتهم ، والدفاع عن دولتهم من أي عدوان خارجي
أو داخلي . « لما بينهم وبين الخلفاء من وشيجة المروبة ، وكثيرا ما اعتمد

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) انظر شعر العرب في أدب العرب للدكتور زكي المحاسني ص ٢٥٥ طبعة
دار المعارف .

(٣) مدينة المراق

عليهم الخلفاء في قم الفتن والنزوات ، واحتتموا بقوتهم ومنعتهم ^(١) .
ولقد قامت الدولة الحمدانية بالعراق قياما طبيعيا حيث كان يعيش القتلجون ،
وقامت في شمال سورية بالفتح والحرب ، إذ ترك سيف الدولة الموصل ، ويم
وجهه شطر الشام تاركا ما سيطر عليه الحمدانيون بالعراق تحت إمارة أخيه ناصر
الدولة .

وقد استولى سيف الدولة على حلب ، وانزعها من يد الأخشييين في سنة
٣٣٣ هـ وبسط سلطانه على شمال الشام ، وكانت حلب عاصمة لهذه الدولة التي
ضمت الثغور الشامية وحمص ومذبح وأنطاكية وغيرها مما وضع يده عليه ليكون
مواجه الروم .

ولقد خفت صوت أخيه ناصر الدولة الذي كان مشغولا بحروب قبيلاته مع
العناصر المجاورة لحدود الدولة الحمدانية بالموصل بينما كان سيف الدولة ذا
الصيت بحروبه مع الروم ، وقتاله لجيش الأخشييد بالشام ، وتوسيع الدائرة لفتوح
دولة بني حمدان على حساب القبايل العربية المجاورة . . . ومهما يكن من شيء
فقد أسس سيف الدولة في شمال سورية دولة محمد لها التاريخ ما قامت به من
جهود مشكورة في سبيل الدفاع عن البلاد الإسلامية ضد الروم الذين كانوا
لا يفتأون منذ أن فتح المسلمون الشام والعراق يحاولون أن يسترجعوا ما كان
في حوزتهم من تلك البلاد ^(٢) .

وعندما استولى بنو بويه على بغداد ، وأحكوا سيطرتهم على مقادير الأمور
فيها سنة ٣٣٤ هـ وكانت الدولة الحمدانية في الموصل والحلب وما بينهما دولة
قوية وذات نفوذ ، ولهذا ابتعد بنو بويه من الدولة الحمدانية ، وأنجهوا إلى
الشرق .

(١) الشعر في ظل سيف الدولة ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٠ .

ولقد حكم الموصل أربعة من الجندانيين ، إبان قيام هذه الدولة العربية ، ثم زال نفوذهم عنها في سنة ٣٨٠ هـ على يد الأكراد والمقيليين بتأييد واستحسان من آل بويه في العراق وفارس .

وحكم حنبل خنة من الجندانيين أولهم سيف الدولة من سنة ٣٢٣ هـ إلى سنة ٣٥٦ هـ ثم خلفه أربعة من أولاده وأحفاده حتى استولى عليها الفاطميون في سنة ٣٩٤ هـ ليمتد ملك الفاطميين في مصر والشام .

وكانت الدولة الجندانية والدولة الرومية البيزنطية في عداوة مستمرة وحروب متصلة ، وقد نهض سيف الدولة بالعبيد الأكبر في هذه الحروب ، وحقق انتصارات عظيمة لم يحلم بها العرب ، وزرع الخوف والرعب في قلوب قواد الروم ، وأخذوا يستمدون له خوفاً منهم ، وكان القتال بين العرب والروم - راجعاً إلى سببين اثنين أما الأول فهو سبب ديني فكل منهما يدافع عن ديانته ، ويتمسب لها ويحارب من أجلها ، وأما الثاني فسكان سببا دينيويًا من أجل توسيع النفوذ ، وإحكام السيطرة على الأراضي والثغور والقلاع ، وقد استمرت الحرب بينهما مجالاً .

والمعروف عن سيف الدولة وهو أقوى رجل ، وأشهر شخصية في هذه الدولة أنه كان شيعياً غير متطرف : « ولهذا استطاع بعد سقوط الإخشيديين ودخول الفاطميين مصر والشام أن يكون على علاقة طيبة بالخلافة الفاطمية »^(١) .

سيف الدولة الجنداني :

حقق سيف الدولة لبني جندان ، وافتقه شهرة كبيرة ، فقد سجل التاريخ له

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد علي ص ١١٠

ج ٥ الطبعة : خامسة عام ١٩٨٢ م

أنه القائد العربي الذي دخل مع الروم في أربعين موقعة له أو عليه ، وهو الذي أذهبهم وجعل ملك الروم وقواده يتوجسون خيفة منه ، ويحشدون له الجيوش على الحدود في أعداد كبيرة تفوق جيش سيف الدولة عشرات المرات ، وكانوا يجمعونها من أجناس مختلفة حتى كانت الجيوش تتكلم بلغات متعددة ، ولهذا كانوا يستمعون بالمرجحين لإحكام السيطرة على هذه الجيوش الكثيرة ، فهم دائماً مشغولون بهذا الأمر الجداوي العظيم ، فيقارعون أخباره ، ويكتبون عنه ، ويتدارسون طريقته في الحروب ، لأنه مقاتل شجاع ، وبطل منوار ، وفارس عربي أصيل .

ولد سيف الدولة في مدينة «ميفارقين»^(١) في أوائل القرن الرابع الهجري^(٢) ، ونشأ كما ينشأ أبناء الأمراء من حيث العناية بالتثقيف والتربية ، وقد ذكر الثعالب أن من أساتذة سيف الدولة من يسمى بأبي ذر ، وله شعر في قيمة الدهر . وما أن فأتى سنة ٣١٧ هـ حتى يقتل والد سيف الدولة في الأساة الكبرى التي وقعت بين الخليفة المتوكل بالله وأخيه القاهر ، ثم أصبح سيف الدولة في كف أخيه الأكبر ناصر الدولة بعد مقتل والداه . ثم واصل سيف الدولة مسيرته - كما ذكرنا - حتى استولى على حلب وكون دولته في شمال الشام . وقد تزوج بابنة عمه أسماء بنت سميد بن حذان أخت الشاعر الفارس «أبي فراس الحمداني» وأنجب منها ، ومن دخل من أولادها ساحة التاريخ «أبو المعالي سعد الدولة» الذي يشار بهام أبيه بعد وفاته .

وبعد أن عقد سيف الدولة عهداً للصالح مع الأخشيديين تزوج بفاطمة بنت مهدي الله بن طنج الأخشيدي لتأكيد هذا الصالح وتوثيقه .

(١) أشهر مدينة بدمار بكر (معجم البلدان ج ٥ ص ٢٣٥ طبعة دار ساور - بيروت) .

(٢) قيل إنه ولد في سنة ٣٠٩ هـ وقيل في سنة ٣٠٣ هـ .

وذكر أبو منصور الثعالى أن سيف الدولة تزوج من حب بقاتنة من بنات
حلوك الروم ، وأسكنها فى إحدى القلاع خوفاً عليها من ضررتها ، وكانت
مخلصة له معجبة به ، فلم تنضب أو تحاول منه من قتال أهلها ، وكان الرجل
يحد لها ذلك فيهم بها ، ويتنقى بشعره فيها .

ولقد اهتم صاحب اليتيمة بسيف الدولة فعلم أخلاقه ، ودرس عصره ،
وذكر له نبدأ من شعره كقوله فى زوجته الرومية :

راقبتى الميون فيك فأشفت ، ولم أخل قط من إشفاف
ورأيت المذول بحمدى فبكى بك مجدا يا أنفاس الأعلاق
فصنيت أن تكونى بعيداً والذى بيننا من الود باقى
رُبَّ حجر يكون من خوفٍ هجر وفراق يكون خوف فراق^(١)

عاش الحمدانيون كدولة كبيرة فى حروب مع الروم نحو من ستين عاماً ،
فضلاً عن الحروب الأخرى مع آل بويه وغيرهم . وفى حلب علا صوت الحمدانيين ،
وتوافد إلى مجالس سيف الدولة الشعراء والمعلماء والخطباء ورجال التاريخ
وأهل الفلسفة الذين اتفوا حوله ، وأحاطوا به ، ولم يترك الشعراء وللمؤرخون
منهم معركة له أو عليه دون أن يسجلوا حماسه ويشيدوا بشجاعته ، وبسالته
جنوده فيها .

وفى ديوان المقيى (بالقات) الكثير من هذه الجروب ، وسوف نعرض لها
فى موضعها من هذا الكتاب .

وقد التقى لعنى مع سيف الدولة ، وعاش معه فى حلب تسع سنوات سجل

(١) يتيمة الدهر لثعالى ج ١ ص ٢٥ طبعة الصاوى سنة ١٩٣٤ م .

فيها كل ما يشاهده ووقع تحت يده من هذا بذكر تاريخ الحدانيين وحياة أمهم
سيف الدولة ، كما شارك أبا الطيب ، وأكل السهرة بعد وفاته النارس والأمير
أبو فراس الحداني إلى أن توفي سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ .

كان سيف الدولة مثقفا ثقافة واسعة ، شاعرا ، مقدوقا ، نقادة للشعر ، يميز
ما يقال في مجلسه من صواب وخطأ ، يقد إليه الشاعر وعالم اللغة والفيلسوف ، غيرهم ،
لاطمعوا في العكس لأن بعض الوافدين إليه لم يكونوا من طلاب المال ، وإنما
لأن الرجل كان تجسيدا حيا للبطولة العربية ، ورمزا للحباسة ، وأهلا للفتن .

ولقد ساعد ذلك على نمو الحركة الأدبية في عصره ، ولأنه كان شاعرا متفردا
ينبعث منه الضوء على الأدب ، وقد تمكن بنزعه الأدبية من العمل على تربية
الأدب والعلوم الإنسانية ، وكانت مجالسه في أوقات السلم مدارس علمية يلتفت
فيها الجاهل الخامل الذكر ، ويتعذب فيها الجاف ذو الطبع النليظ ، وقد
التف حوله عدد من الرجال تنوعت ثقافتهم ، وتعددت مواهبهم ، وكانوا
أهل سياسة وأدب . . . ولم تكن السياسة حتى أواخر العصور العباسية
لتفترق عن الأدب ، فلم يكن الوزير كاتبيا ، والفائد خطيبا ، وحاشية الخلقاء
والأمراء من الشعراء والأدباء ، كذلك فإن رجال الدولة الحدانية كانوا أدباء
حريين وشعراء من الفرسان ، وكان الشعر والأدب صناعتهم جميعا لأن
سيف الدولة نفسه كان أدبيا شاعرا^(١) . كانوا ينشون معه ساحة القتال ، فإذا
انصرفوا عادوا إلى قصر الملك في الحبل المسمى « بالحلبة » بحلب القدر حوله ،
وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم والمهالة بالقمير ، وهو في وسطهم كالذرة
للضيفة يستمع إليهم ويحكم بينهم .

وأول رجاله وأنصتهم به على الإطلاق في أزهى سنوات النصر أبو الطيب

(١) همس الحرب في أدب العرب ص ٢٦١ .

التيبى الذى لازمه تسع سنوات متتالية مدحه فيها بأروع القصائد والقطوعات
والتي عرفت باسم « السيفيات » وهى أعظم وأروع ما فى ديوان أبى الطيب لما
فيها من صدق فى الماطنة ، وحق فى التجربة .

وثانى رجاله شاعر الفرسان وفارس الشعراء أبو فراس الحمداني ابن عمه
وربيب مملوكه ، عاش منه عشرين سنة حاملا لل سيف والقلم ، وذاق مرارة الأسر
مرتين ، مدح سيف الدولة ، وأشاد بشجاعته ، وانتخبر بنفسه وبقومه . وفى
قصائده « الروميات » التي كتبها فى الأسر يستمطف ابن عمه لافتدائه ، من غير
يأس ، ويتفق بشجاعته كفارس بطل فى شعر وجداني متوهج ، وأعظم شعر
أبى فراس ما قاله فى الأسر بحرقة أو بالقسطنطينية .

ومن اتصلوا بصيف الدولة ، وتحذثوا بحاسته ، وضمهم مجلسه من الشعراء
أبو العباس النابى والسرى بن أحمد الرقاء ، وأبو الفرج الواواءى الدمشقي ، ومن
ضمهم هذه المجالس أبو نصر بن نباهن الفارقي الواقعظ البليغ والخطيب الذى
تهنأله أعواد للناير وأبو نصر الفارابي الفيلسوف الشهير ، والمعلم الثانى بمد
أرسطو .

ومن الكتاب الذين وفدوا على سيف الدولة ، وأقبلوا على مجالسه العلمية
والأدبية أبو الفرج الأصفهاني المؤرخ العظيم للأدب العربى الذى أهدى لسيف
الدولة كتابه « الأغاني » بمد أن ألفه فى خمسين عاما ، وأبو على الحاتمي ،
وأبو الفرج البيناء الحزومى .

ومن علماء الفقه والنحو الذين شاركوا فى هذه المجالس الرائدة ابن خالويه
العالم الفنى الكبير وأبو على الفارسي عالم النحو والرائد فى مدرسة البصرة
وابن جنى الفنى المتخصص والشاعر المتذوق ، وصاحب القاليف السكفيرة
وأبو الطيب الفنى صاحب كتاب « مراتب النحويين » وغيرهم كثير .

وهكذا اجتذب سيف الدولة إلى حلب الأعراب من أهل الأدب والفن والشعر، وإننا لنعجب عند ما نرى طباخه وهو كشاجم شاعرا وخزنة كعبه شعراء. وما الخالديان أصحاب كتاب « الأشباه والنظائر » في الحاشية .

وعن هذه البيئة الأدبية في هذا العصر يقول صاحب كتاب شعر الحرب « لم يشهد عصر من عصور الأدب العربي مجتمع علم وأدب وفن وشعر مثل مجتمع سيف الدولة غير الرشيد المأمون »^(١).

وقيل « لم يستطع غيره من الملوك في زمانه مجاراة في هذا المضمار »^(٢).

وقد كانت لأصاحب بن عباد وابن العميد مجالس علم وأدب لاسكنها لم تجمع على كل حال مثل ذلك الحشد الكبير والمتنوع الذي ضمه مجلس سيف الدولة في عاصمة مملكته ومن رجاله الذين عملوا معه ، وأخلصوا له في إدارة الدولة أبو العثائر الجنداني وإلى انطاكية ، وأبو وائل تغلب بن داود الجنداني ، وأبو وائل زهير بن نصر بن جندان وهو رجل حرب وأدب . وقاضى القضاء أبو الحصين علي بن عبد الله الرقي ، ومن غلمانة الذين عملوا معه ومع أولاده من بعده « قوعويه » الفارسي ، وقد أظهر المحبة والعناية لمولاه في حياته ، وحارب مع أبي المصالي سعد الدولة بعد وفاة والده .

وهكذا عاش سيف الدولة محاطاً بهذه الدائرة الضيقة ، وقد حفل عصره بأعظم الانتصارات على الروم ، ثم انتهت حياته على غير ما يحب ويرضى ، فقد احتل الروم أرضه سنة ٨٣٥١ ، ووقع معظم أفراد عيالته بمن كانوا يعملون معه في الأسر ، ثم دفع لهم الفداء ، وكان غالباً في ظل الظروف المحيطة به ، ومات

(١) شعر الحرب ص ٢٧٢ .

(٢) لشعر في ظل سيف الدولة لندويش الجندى ص ٦٣ .

المقبى قبله ، فلم يرته ، ولكن ما قاله فيه من شعر السيفيات لكاف في تخليد اسمه وتسجيل حروبه ، وإبراز حاسته .

ويؤخذ على سيف الدولة أنه كان مبذراً متلاًفاً خاصة فيما يتعلق بجوائز الشعراء والأدباء ، وفيما يتعلق أيضاً بهذبه في قصره ، فضلاً عما كان ينفقه الجندانيون في مواطن أخرى غير حلب ومنهج حيث يوجد قصر سيف الدولة وأبي فراس .

ويضاف إلى ذلك أن سيف الدولة خاض كثيراً من الحروب مع الروم ومع العرب أيضاً ، وقد كلفته هذه وتلك الكثير من الأموال مما أضعفه وأرهق ميزانية دولته حتى أنه هجئ في بادئ الأمر عن اقتداء الأسرى الذين وقفوا في قبضة الروم بعد الانكسار الأكبر والمزمنة البشعة لجيش سيف الدولة سنة ٨٢٥١ ، وكان بين هؤلاء الأسرى أبو فراس الحمداني .

ويؤخذ عليه أيضاً أنه كان مستبداً برأيه لافتقاره بنفسه وإعجابه بمجاسته ولهذا فشل في آخر حياته فانهزم جيشه وتبددت قوته ، وكثرت الاضطرابات في أرجاء مملكته . وقد أشار ابن مسكويه صاحب تجارب الأمم إلى ذلك فقال : « كان هذا الرجل - يعني سيف الدولة - معجباً يجب أن يستبد برأيه وألا نتحدث نفسان أنه عمل برأى غيره ، وكان أشار عليه أهل طرسوس بأن يخرج معهم لأنهم علموا أن الروم قد ملكوا عليه الدرب الذي يريد الخروج منه وشعنوه بالرجال ، فلم يقبل منهم ، ولج ، فأصيب للسلون بأرواحهم ، وأصيب هو بماله وسواده وقلباته »^(١) .

على أن الحياة الأدبية في الدولة الحمدانية بعد وفاة سيف الدولة قد أخذت

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ١٨١ .

طامعاً ومنهاجاً يختلف اختلافاتاً كبيراً عما كانت عليه الحال في حياة
سيف الدولة .

أبو الطيب المتنبي :

لا أريد أن أشغل القراء بما اختلف فيه أهل الأدب وتاريخه حول نسب
المتنبي وشعره وأخلاقه وعلومه ، وقد دفع هذا الاختلاف في شخصية
الرجل الأقدمين والمحدثين على السواء إلى البحث سعيّاً إلى الحقيقة ، وتطلباً لها ،
ويكفي أن نأخذ منهم ما انتقوا عليه ، ونقله الأصول من كتب الأقدمين
على أن نشير إشارة عابرة إلى أهم ما اختلفوا فيه استكمالاً لثابتة من غير
إرهاق وإغراق .

ولد أبو الطيب (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندي)
بالسكوفة في محلة تسمى (كِفْدَه) سنة ثلاث وثلاثمائة من الهجرة . وكان
والده (الحسين) من العامة ، يعمل سقاء فيعمل الماء على جمل له بالسكوفة ،
وكانوا يلقبونه (عِيدَان السَّقاء)^(١) .

ولم يتحدث المتنبي عندما كبر عن نسبه من جهة أبيه أو أمه ، مما جعل
خصومه من الشعراء وهم كثير يمتنون في السكيد له ، والخط من منزله كقول
بعضهم :

أى نضل لشاعر يطلب القَصْدَ ل من الناس بُكْرَةً وعشياً
عاش حيناً يبيع بالسكوفة الماء وحيناً يبيع ماء الحياً
أى أن أباه كان يبيع الماء وهو يبيع ماء وجهه على المدوحين .

(١) عيدان : جمع عيدانة وهي قنينة الطويقة .

اتلقى أبو الطيب علومه بكتاب للملوكين بالسكوفة وبدأ بتعلم اللغة، وحفظ الشعر، وفهم الإعراب، وقد ماتت أمه في صغرة، فنهض أبوه بتربيته، وارتحل إلى يبادي الشام ليستكمل تعليمه بالحياة مع أهل اليهودي، ومات أبوه بعد العودة إلى السكوفة التي بقى فيها أبو الطيب إلى جوار جدته لأمه حتى سنة تسع عشرة وثلاثمائة، ثم تركها لحجرات القرامطة^(١) عليها ولكرامته للملوكين بها، وارتحل إلى بغداد ثم خرج منها إلى الشام سنة عشرين وثلاثمائة وبقي به ما يقرب من ثلاث سنوات.

مدح أبو الطيب سيف الدولة (لأول مرة) وذلك لإيقاعه بسور بن حابس وبني ضبة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة^(٢)، فقال:

ذُكِرَ الصَّحْبَا وَمَرَاتِعُ الْأَرَامِ جَلَّتْ رَحَايَ قَبْلَ يَوْمِ رَحَايَ

دخل أبو الطيب السجن في حمص، وبقي فيه من سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة إلى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وقد اختلفوا في سبب دخوله السجن.

قول: إنه دخل السجن لما خرج إلى بادية الشام، وأخذ يدعو الناس فيها إلى بيعته، لأنه كان يفسر ويطلع منذ أول شبابه في أن يكون أميراً أو والياً، ولما علم أبو زاهر والي حمص من قبل الإخشيد بدعوته خرج إليه في بادية السماوة بالشام، وقابل بني كلاب الذين حووه، وداموا عنه، ودخل أبو الطيب السجن، ثم خرج منه في العام التالي.

(١) فرقة من الشيعة الباطنية، وقد خلفت بين تلاميذ الدين والنف المبرر.

(٢) لا يزال الدكتور عبد الوهاب عزام في كتابه عن التنبي إلى تصديق ذلك وهو رأي آخر حول هذه القضية ومناسبتها.

وقيل : إن دخوله السجن لم يكن بسبب ثورته في بادية الشام ، وإنما كان لإدعائه النبوة في قرية تسمى (نحلة) بالقرب من بعلبك . وقيل : إنه دخل السجن لتهمة ١٠ ما . وقيل : إنه دخل السجن مرتين الأولى بسبب الثورة في بني كلاب والثانية بسبب إدعائه النبوة في قرية نحلة .

ويبدو أن حكاية ادعاء النبوة كانت تهمة لصقت بالمعني بعد خروجه من سجن حمص ، وساعد على ذبوعه بلاغة أسلوبه وروعة بَيَانِهِ وثقته بنفسه ، وقد حيكوا التهمة فَنَسَبُوا إليه قولاً يعارض به القرآن الكريم .

قال أبو التتح عثمان بن جني . سمعت أبا الطيب يقول : إنما لُقب بالمعني لتولى :

أنا رَبُّ الْعِزِّا وَرَبُّ الْوَفِّا وَسَمَّاءُ الْعِزِّا وَغَوْظُ الْخُشُودِ
أنا في أُمَّةٍ تَدَارِكُهَا اللهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ في نَجُودِ
وفي هذه النصيدة يقول :

ما مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةٍ إِلَّا كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ

وقيل : إن المعني هو الذي لقب نفسه بهذا اللقب لمظلمته وعبقريته ، أو أن « بعض المصنفين بشعره هم الذين لقبوه به رمزاً لاعتقاده الشعرية ، وأنه يأتي في أشعاره بالمعجز الذي ليس له سابقة »^(١) .

ترك أبو الطيب الشام بعد الذي حدث له به ، ثم ذهب إلى الكوفة ، واستقر فيها ، وتزوج بها ، ثم عاد إلى الشام واتصل ببدر بن حمار الأسدي ومدحه ، وأقام معه مدة في طابرية ثم رجع إلى الكوفة ، وتركها إلى الشام

(١) عصر الدول والإمارات ص ٣٤٥ لشوقي ضيف طبعة دار المعارف .

سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ، وقد أرسلت إليه جدته (لأمه) تدعوه إلى الكوفة فتمسه الملوك من دخولها ، وماتت جدته سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ، وراثها ، فقال :

ولو لم تكني بنت أكرم والي
لسكان أهلك الضم كرك لي أمّا^(١)

وفي هذه القصيدة صب جام غصه على حادثة وللشامتين عليه .

ترك أبو الطيب طبرية ، وعلق بالرملة من أرض الشام ومدح فيها أبا محمد ابن طنج الأخشيدي « وقد بقي أبو الطيب في جوار الأمير أبي محمد بالرملة مكرماً يصحبه الأمير في رحلاته ، وبحضره مجلسه ، ويرافقه في زيارته ، ويفضل عليه كل الأفضال ، حتى أرضى ذلك القلب الذي كان ينض الأعاجم فيه طيبة ثانية قائمة لا تقتر »^(٢) .

ومن الرملة خرج أبو الطيب قاصداً أنطاكية فر يطوايلس وبها بك ودمشق حتى وصل إلى أنطاكية في أواخر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، وكانت في يد الحدانيين العرب الذين انتزعوها من يد الأخشيديين الأتراك ، وقد وصل أبو الطيب إلى هذه المدينة وهو مكبر لنفسه مستشعر لمظلمته وتقوقه على الشعراء ، ومدح أبا العتاش فقال له :

أأصيرُ منك ، لم تبهلُ بشئ ولم تبهلُ على كلامٍ واش ؟
وما وُجد اشتياقٌ كاشتياق ولا عُرف انكماشٌ كانكماش
فسرتُ إليك في طلب العالی وسارَ سيواي في طلب العاش

(١) تسمى الجدة أما ، والضم يمين المظلم .

(٢) المتن لمحمود هاكر ج ١ ص ١٧٧ طبعة للذی سنة ١٩٧٦ م .

وقد استقر المتن عند أبي المثنى ما يقرب من عام ، ونال منه
المزة والكرامة .

المتن رسيق الدولة :

قدم - بف الدولة إلى أنطاكية في جمادى الأولى من سنة سبع وثلاثين
وثلاثمائة للراحة والاستجمام بعد أن ظفر في حرب له مع الروم بمصر برزويه ،
وعندما استقبله ابن عمه أبو المثنى أخيره بما كان من قدوم المتن ، فطلب
أمير بني حمدان من أبي المثنى أن يستدعي شاعر العرب للقائه ، فهو لا زال
يذكره منذ مدحه في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . والتقى الرجلان
سيف الدولة وأبو الطيب ، وزاد إعجاب كل منهما بصاحبه ، وفي هذا اللقاء
مدح أبو الطيب سيف الدولة بإحدى قصائده المظمية والتي يقول في مطلعها :

وقاؤكا كالأربع أشجاء طاسمه
هأن تسميدا والدمع أشقاء ساجه^(١)

ومن الأبيات السائرة في هذه المقدمة الفنائية قوله :

بليت إلى الأطلال إن لم أقت بها
وقوف شطيج ضاع في التراب خاتمه

ويقول في مدحه :

سكنت صروف الدهر حتى لقيته
على ظهر عزم مؤيدات قوائمه

(١) وقاؤكا : الخطاب لخليله الذين حاداه على أن يساعداه على البكاء عند ربح
الأحبة . أشجاء : أحزته ، الطاسم : المارس ، ساجمه : من سجم الدمع إذا سال
وهطل .

مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه
ولا تحلت فيها الغراب قوارمه^(١)
فأبصرت بذكر لا يرى اليدر مثله
وخاطبت بحراً لا يرى المير عاتمه^(٢)
غضبت له لما رأيت صفاته
بلا واصل والشعر تهذي طميطمه^(٣)

بقى سيف الدولة بعد هذا اللقاء في أنطاكية أشهراً وأبو الطيب إلى جواره .
وقد تماهدا على المصاحبة ، ورحب المتنبي بملازمة الأمير في حلب ، وقالوا : إنه
قد اشترط على سيف الدولة ألا ينشده وهو واقف ، وألا يقبل الأرض بين
يديه ، فقد تعود المتنبي أن يتخذ من مدحجه صحاباً وأصدقاء ، فسكأنه قد رفض
ما تعود عليه الشعراء في عصره ، وذلك لتعاطف في نفسه ، وإن كان دفع اللقاء
بين الرجلين لا يتوافق مع برودة هذين الشرطين .

وعندما عزم سيف الدولة على الرحيل مدحه أبو الطيب بقوله :
أين أزممت أئنهذا الهمام نحن كبت الرأي وأنت القمام^(٤)
وتبلغ أبياتها ثمانية عشر ، وفيها من أبيات الحكمة قوله :
وإذا كافت النفوس ركباوا تميت في مرادها الأجسام

- (١) المهالك : الفاو ، وهي منصوبة على أنها كليل من « المعروف » القوام :
صدور ريش الجناح من الطائر .
(٢) عبر البحر : شطه .
(٣) تهذي ، تنكح بغير كلام معقول لمرض أو انهيار ، الطامطم المفرد ططم ، وهو
هجمة في اللسان لا يفصح معها .
(٤) الإزماع ، إلزم على الأمر ، والهمام ، الملك العظيم .

وقد تأخر المتني ، ولم يصحب أميره في الذهاب إلى حلب ، وبقي مدة في أنطاكية ثم لحق به .

ذكر الأستاذ محمود شاكر^(١) أن مرض زوجة للمتني وهي حامل ثم وفاتها ووفاته وليدها بعدها بمدة أشهر كان السبب في تأخره عن مصاحبة سيف الدولة من حلب إلى أنطاكية .

نعم أبو الطيب بالأمان والاستقرار في جوار سيف الدولة ، وأحب الأمير شاعره واختاره واصطفاه من بين الشعراء ، واتخذة خلا وأخا ، وصارحه بأسراره وكشف له عن مكتون قلبه . وقد اجتمعا على حب العرب وكرهية الأعاجم ، واتفقا في أمور كثيرة وكان منها للذهب السهامي ، ودام الوداد بينهما ما يقرب من تسع سنين ، وكان المتني لا يفارق سيف الدولة إلا في ساعات قليلة فيصحبه في حروبه ، وينشده في مجلسه ، ويشيد به إذا انتصر ، ويواسيه إذا هزم ، ويعزيه ، ويرثى من يموت من أقربائه .

وكانت هذه السنوات التسع أخصب فترة في حياة المتني من حيث كثرة الشعر ، وجودته ، وتنوعه ، وقد نفس عليه الكثيرون في حاشية سيف الدولة ، وفي مقدمتهم أبو فراس وأحمد بن خالويه .

قال الهمداني فيما يرويه عن غيره : « كنت بمحضرة سيف الدولة وأبو الطيب القنوي ، وأبو الطيب المتني ، وأبو عبد الله بن خالويه الدحوي ، وقد جرت مسألة في الفنة تسكلم فيها ابن خالويه مع أبي الطيب القنوي والمتني ساكت ،

(١) في كتابه « المتني » والأستاذ محمود محمد شاكر أديب وشاعر ومحقق ، متفرد في مواقفه ، جرىء في آرائه ، وقد تفرقت على مذهبه في الأدب والنقد وتأليف من قراءة كسبته ومناجاة أخباره ، وزيارته في منزله كثيرا يحضر الجديدة (بالقاهرة) (٣ - شعر : خمسة)

فقال له سيف الدولة : ألا تتكلم يا أبا الطيب ؟ فاسكلم فيها بما قوى حجة
أبي الطيب اللخوى ، وضمت قول ابن خالويه .

فأخرج من كفه مفتاحاً حديثاً ليحككم به المعنى ، فقال له المعنى : اسكت
ويحك ، فإنك أعجمي ، وأصلك خوزي^(١) ، فسالك وللمربية ؟ فضرب وجه
المعنى بذلك المفتاح ، فأسال د. على وجهه وثيابه ، فغضب المعنى من ذلك
إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولاً ولا فعلاً ، فكان ذلك أحد أسباب فراقه
سيف الدولة^(٢) .

وذكر البيهقي ما دار بين أبي فراس والمعنى في حضرة سيف الدولة ، قال :
« قال أبو فراس لسيف الدولة : إن هذا الممشق كثير الإدلال عليك وأنت
تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار من ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتي
دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من
هذا الكلام ، وعمل فيه ، وكان المعنى غائباً ، وبلغته القصة فدخل على
سيف الدولة ، وأنشد :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتياً
فداه الوري أمضى السيوف مذكراً
ومالي إذا ما اشتقت أبصرت دونه
نائف لا أشفقهاً وسبأياً^(٣)

(١) نسبة إلى أهل خوزستان بين فارس وال عراق .

(٢) الصبح النسي ص ٨٧ .

(٣) التتائف ، جمع تنوفة وهي المفازة الواسعة . السباب ، الفلوات .

وقد كان يُدني تجلي من سمائه
أخاذه فيها بذرها والكواكب
حنانيك مشولا ، ولييك داعيا
وحسي موهوبا وحسبك وإميا^(١)
أعذا جزاء الصدق إن كنت صادقا ؟
أعذا جزاء الكذب إن كنت كاذبا ؟
وإن كان ذنبي كل ذنب فإنه
عما الذنب كل المحور من جاء تأنيا
فأطرق سيف الدولة ، ولم ينظر إليه كمادته ، ففرج المعنى من عنده مغفرا ،
وحضر أبو فراس وجماة من الشعراء فبالغوا في الوقيعة في حق اللقي ،^(٢)
وقد انقطع اللقي عن أمره مدة ثم مدحه فقال :
وأخر قلبك بمن قلبه شـ
ومن يجشئ ، وحالي عنده سقم^(٣)
مالى أكنتم حبا قد برى جدى
وتدعى حبة سيف الدولة الأمام
وفيها يقول :
يا أعدل الناس إلا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

(١) حنانيك ، كلمة استعطاف أى حنانا بعد حنان .

(٢) الصبح النبى ص ٧٨ .

(٣) الشم ، البارد .

وازداد أبو فراس غيظاً لقول أبي الطيب :

أنا الذي نظرت الأُمى إلى أدبي
وَأَسْتَمَتْ كَلَامِي مَنْ يَرِ صَمَمٌ
وقوله :

فانليل والليل والبيضاء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقَدَمُ

وقد انتقد أبو فراس هذه القصيدة معنى في حضرة سيف الدولة ، وذكر الشعراء وأشعارهم التي سرقها أو احتذاها أبو الطيب ، ولم يأبه سيف الدولة كثيراً لنقد أبي فراس ، وأعطى المعنى على هذه القصيدة أني ديار ، فهذأت نفس أبي الطيب ، وسكنت الفتنة بينه وبين حساده مدة ، ثم عاد لإشهار تماظه بنفسه وثقته بفته ، ولهذا كان ينصرف عنه سيف الدولة أحياناً ويسمع إلى ما يقوله خصومه وحساده .

وتعرض المعنى لمؤامرة كادت تودي بحياته ، وقد درها له أبو العشائر الجذاني ، وكلف بعض النملان بتنفيذها ، وأحسن أبو الطيب في الدفاع عن نفسه ، وتذكر بمد نجاحه أنه قد فرط في حق أبي العشائر الذي استقبله وعرفه بسيف الدولة ، وتذكر أيضاً أنه قد تناسى صلة أبي العشائر بسيف الدولة وأبي فراس ، ولام نفسه على أنه لم يمدحه مفض أن اتصل بسيف الدولة فعاتبه وصالحه ، وقال فيه خمسة أبيات أولها :

وَمُنْتَقِبٌ عَنِّي إِلَى مَنْ أَحْبَبَهُ

وَلَنَنْبُلُ حَوْلَ مَنْ يَدَبُرُ حَقِيفٌ^(١)

(١) من أحبه ، يقصد أبا العشائر ، حفيف ، صوت يحف في .

ولما ضاق أبو الطيب بخصومه وحساده اشتكاهم إلى سيف الدولة وأنشده :
أَزِلْ حَسَدَ الْحَسَادِ حَتَّى يَكْتَنِبُوا
فَأَتِىَ الَّذِى صَيَّرَتْهُمْ لِي حَسَدًا
ثم يقول :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رَوَاقٍ قَصَائِدِي
إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنَادِيًا
فَدَارَ بِهِ مِنْ لَا يَسِيرُ مُشِيرًا
وَوَعَى بِهِ مِنْ لَا يَنْفَى مَفْرَدًا
أَجِزْنِي إِذَا أَنْشَدْتُ شِعْرًا فَلَمَّا
بَشَّرَنِي أَنَّكَ لِلْأَوْحَادِ مُرَدَّدًا

وقد اشتد الصراع بين الخصاصمين ، وأحسن الشاعر أن الأمير ينصرف عنه ،
ولم يعد يستجيب له فيحميه ويمنه من خصومه ، فسكره القنطري حلب وزهد
في عيشها ، ثم ودع سيف الدولة ، وأنشده آخر قصائده بحلب في سنة خمس
وأربعين وثلاثمائة وهي المهمة التي يقول فيها :

لَا تَطْلُبْنِ كَرِيمًا بِعَسَدِ رُؤْيَيْهِ
إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَامِ هَذَا خَفِيُوا
وَلَا تَبَالِ بِشِعْرِ بَعْدَ شَائِرِهِ
قَدْ أَفْسَدَ التَّوَلُّ حَقَّ أَنْجِدِ الْعَشِيرَ

وهكذا فرق الكيد والحسد بين الرجلين المظالمين ، وأصيب أبو الطيب
في آماله السياسية ، وترك حلب ، وهو كاره لفراقها وسار منها إلى دمشق ،
وانتقل إلى الرملة ، والتقى بابن طنج الأختيذي الذي شجعه على السير إلى
مصر ، وأحيا ما بداخله من آمال في أن يكون واليًا أو أميراً على إحدى
البلاد في صعيد مصر أو في أطراف الدولة الأختيذية بالشام ، وأنبه القنطري

إلى القسطنطين ، ونزل في ساحة كافور الأخشيدي في السنة نفسها ، واستقبل مدحه بقصيدة يقول مطلعها :

كفى بك داءاً أن ترمى الموت شافياً
وحسبى للنساء أن يسكن أمانياً
وهو مطلع بمبر من حزنه وضيقة ، ثم قال له في آخر قصيدة مدحه فيها :
إذا قلتُ منك الودَّ فاللَّحْلُ حَبِّينِ
وكل الذي فوق التراب تراب

وقد مدحه بثاني قصائد ، وبقي في مصر أربع سنوات ، وساءت أحواله فيها ، فهرب منها في ليلة عيد الأضحي من سنة خمسين وثلاثمائة ، وترك في فراشه قصيدة يهجو فيها كافوراً بألفاظ المهجاء قال :

عيدٌ بآيةٍ حالٍ عُدَّتْ يا عيد بما قضى أمراً فيك تجديدٌ
وسار إلى العراق بعد أن فارقه ما يقرب من ست عشرة سنة ، ودخل السكوفة في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ، واستقر فيها عدة أشهر ، وهو كاره للقامة بها ، فتركها إلى بغداد ، وأقام فيها سبعة أشهر أو ثمانية ، ولم يمدح أحداً بها ، ورجع إلى السكوفة في أواسط سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، وفي هذه السنة أرسل إليه سيف الدولة ابنه من حلب إلى السكوفة ومعه هدية ، فشكره للتغني ورد عليه باللامية المشهورة ، وأولها :
ما لنا كلُّنا جورٌ يا رسولُ أنا أخوئى وفيلك المقبول^(١)

(١) الجوى : الذي أصابه الجوى وهو الحرفة في القلب من الحزن أو الحقد ، والتبول : الذي هيمه الحب والمطلع تنليدى يتحدث فيه إلى رسول محبوبته وحمل مشتركاً في حبها .

وفيها يقول له :

أنت طول الحياطة للروم غازي فقي الوعد أن يكون القُقول^(١)
وسوى لروم خلف ظهرك رومٌ قَمَلٌ أَيْ جَانِبِيكَ تَمِيلُ^(٢)
قَمَدُ النَّاسِ كُلِّهِمْ عَنْ مَسَاعِيكَ وَتَأَمَّتْ بِهَا الْقَنَا وَالشُّمُولُ^(٣)
مَا الْقِي عِنْدَهُ تَذَارُ النَّسَايَا كَالْأَيِّ عِنْدَهُ تَذَارُ الشُّمُولُ^(٤)

وفي هذه السنة نُمِيتَ إليه خولة (أخت سيف الدولة) فَرثَها بالبائية المشهورة
التي بدأها بقوله :

أرى العراق طويلاً الليل مذ نُئِيتُ

فكيف ليلٌ فقي القديانِ في حلب ؟

وفي شهر ذي الحجة من سنة ثلاث وخسين وثلاثمائة وصله كتاب من
سيف الدولة يدعوه للحضور إلى حلب ، فرد عليه بقصيدة ، وكانت آخر
السيقيات في شهر المنفى ، ومطامها :

نَهْمْتُ لِلْكَعْبَابِ ، أَبْرَ السَّكْبِ قَسَمًا لَأَمْرٍ أَمِيرِ الْعَرَبِ
وَعَلَّوْهَا لَهُ ، وَابْتَهَاجًا بِهِ وَإِنْ قَصَّرَ الْفَعْلُ عَمَّا وَجِبَ

ولقد ذكر الأستاذ محمود شاكر في كتابه عن المنفى أنه « كانت بين
سيف الدولة وأبي الطيب أسرار سياسية تخص أغراضهما وآمالهما في إعادة
الحيد البري ، وإزالة الحكم الطاغين من الموالي ، وقع الفتن التي قام بها
المعويون والفاطميون في البلاد . . . »^(٥)

(١) القُقول : الرجوع .

(٢) يَمِيلُ بُوَيْهٌ أَوْ يَمْرُضُ بِالْمَبَاسِينِ .

(٣) الْقَنَا : الرَّمَحُ ، وَالشُّمُولُ ، جَمِيعُ نَصْلِ رَهْوٍ حُدِّ السَّيْفِ .

(٤) الشُّمُولُ : الْحُجْرُ .

(٥) المنفى ج ١ ص ٢٢٣ .

وإذا صح ذلك فإن سيف الدولة يكون قد غير رأيه في العلويين والفاطميين
معاً ، فقد بدأ حياته السياسية بولاء نحوها ، وقد ذكرت ذلك في الحديث
عنه قديماً سبق .

وتدور مجلة الأيام بالشاعر إلى أن تصله رسالة من ابن العميد وزير دولة
بنى بويه ، ورب النثر في هذا العصر ، والذي انتهى به النثر الجيد لاندثر الأدب .
وقد دعاه للحضور إلى أرجان ، وكان ابن العميد قد ترك مقر وزارته في الزى
فصاف إلى أبي الطيب من الكوفة في الحرم من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ،
ووصل إلى أرجان في شهر صفر ، وأحسن ابن العميد استقباله ، وأقام
أبو الطيب عنده ما يقرب من شهرين ، ومدحه بثلاث قصائد ، أولاها الزائية
للحق يقول في مطلعها :

يا بـهـواك صـبـرت أو لم تـعـبـيراً
وَبُكَاكَ إِن لَمْ يَجِرْ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى
كَمْ غَرَّ صَبْرُكَ ، وَابْتِسَامُكَ صَاحِبَا
لَمَّا رَأَاكَ . . . وَفِي الْحَشَا مَا لَا يُرَى

وقد دعاه عضو الدولة إلى شيراز ، فارتحل أبو الطيب إليه ، وأقام عنده
ثلاثة أشهر ، وأق من كل تقدير ومودة ، فمدحه بمدح قصائد متنوعة أولاها
المائية ، وأولها :

أَوْفِرْ بِدِيلٍ مِنْ قَوْلِي وَاهَاً
لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرُهَا

(١) أوه : كله تعجب ، ونأت : غارت .

وفيها يقول :

كلُّ جريحٍ تُرجى سلامته إلا قواداً دعه عيناها^(١)

وايست كثرة الشعر وتنوعه في هذه المدة دليلاً على حب المعنى وإخلاصه
قبي بويه ، وإنما لأشياء أخرى في نفسه ، وإلا فإن فترة إقامته عندهم قليلة جداً
لا تتناسب مع هذا الإنتاج المتنوع والجيد في الوقت نفسه . وأفضل ما في إنتاج
هذه الشهور القليلة القصيدة التي وصف فيها شغب بوزان .

ولقد أعادق عضد الدولة ووزيره على الشاعر ، ومع هذا تركهما ، وأشد
أبو الطيب عضد الدولة آخر المدايح وآخر ما له من شعر ، في شعبان من
سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، ومطلع قصيدة الوداع :

فَدَى لَكَ مِنْ يَقَعْرٍ عَنْ مَدَاكَ فَلَا تَلَيْكُ إِذَنْ إِلَّا مَدَاكَ

وفيها يقول :

ولو أني استعطمتُ خَفَضْتُ طَرْفِي فَلَمْ أَبْصِرْ بِهِ حَتَّى أَرَاكَ

وقتل أبو الطيب راجعاً إلى العراق ، بعد أن ذكر لعضد الدولة أنه راجع
إليه (دعاه ومكرأ) وانتفى إلى واسط .

وعند موضع يقال له « دير الماقول » في الطريق إلى العراق خرج عليه
شعبة من أعراب بني أسد وبني ضبة بزعامة فائق بن أبي جهل الكلبي
فقتلوه ، وقتلوا غلماناً وابنه محمداً في السابع والعشرين من رمضان من سنة
أربع وخمسين وثلاثمائة .

(١) دعه : أصابته .

وقد قاتلهم القتي قاتلاً شديداً ، وأراد أن ينهزم منهم ، فقال غلام له :
أين قولك ؟

الليل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فقال : قتلتني ، قتلت الله ، ثم قاتل حتى قتل ، وأخذ الفضة كل ما كان معه
من أمتعة وأموال وأوراق ، وحزن الناس عليه ، ورثاه الشعراء منهم ، رحمه
الله بقدر إخلاصه للغة وحبه للعرب والعروبة ، فقد عاش وحيداً ، ومات غريباً ،
وشغل الناس في عصره ، ولا يزال يشغلهم حتى اليوم .

الفصل الثاني

الحماسة في سيفيات المتنبي

السيفيات :

يمتاز شعر المتنبي بالجودة ، والكثرة ، والتنوع ، ولقد برع أبو الطيب في المدح ، وفي وصف الجهاد بين المسلمين والروم ، ويعد شعره في سيف الدولة والمسمى بالسيفيات أفضل ما قاله من شعر ، ويمكن أن تؤلف هذه السيفيات ديواناً خاصاً لا نظير له ، فلم ينقل الشعر العربي مديحاً لأمرير أو ملك بلغ ثمانين قصيدة ومقطوعة ، وليست الكثرة بحسب بل الجودة كذلك .

وقد تنوعت السيفيات تبعاً لحياة سيف الدولة ، وما يمتدورها من تغير واختلاف ، وأجاد فيها أبو الطيب لموهبته الشعرية وقدرته اللغوية ، ولطيفه لسيف الدولة ، وانتمائه العام بجهاده ضد الأعاجم وبتأله للخارجين عليه ، ومن أهم أسباب إجادته في هذه السيفيات بيئة حلب وما فيها من حب للأدب ، وتذوق للشعر ، إذ كان سيف الدولة ممن يقولون الشعر ويحكمون عليه ، وقد جمع حوله عدداً كبيراً من الشعراء والبلغاء والفلاسفة والمؤرخين وغيرهم . وقد ذكر الرواة بعض المواقف التي اعتقد فيها سيف الدولة شاعره ، ومنها ما نقل عنهما حول الميمية التي أنشدها المتنبي بعد موقعة الحلدت .. وأولها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في حين الصبر صبرها وتصغر في عين العظيم العظائم

قال البديعي : « ولما بلغ المتنبي إلى قوله » (١) :
 وَقَفْتُ وما في الموت شك لواقبِ كأنك في جفن الردى وهو نائم
 تمر بك الأبطال كلتي هزيمةً وَوَجْهَكَ وَضاحٌ وتترك باسِمُ
 قال سيف الدولة : قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرىء القيس قوله :
 كأنني لم أركب جواداً ليلذة ولم أنيطن كاعبا ذات خلخال (٢)
 ولم أشتأ الزق الروي وأنم أقل ليخيلي كرمي كرمه بعد إجمال (٣)
 فبيتاك لم يافتكم شطراهما ، كما لم يأنتم شطرا بيت امرىء القيس ، وكان ينبغي
 له أن يقول :

كأنني لم أركب جواداً ولم أقل ليخيلي كرمي كرمه بعد إجمال
 ولم أشتأ الزق الروي ليلذة ولم أنيطن كاعبا ذات خلخال
 وكذلك كان ينبغي أن تقول :
 وقفت وما في الموت شك لواقبِ وَوَجْهَكَ وَضاحٌ وتترك باسِمُ
 تمر بك الأبطال كلتي هزيمةً كأنك في جفن الردى وهو نائم
 فقال المتنبي : إن صح أن الذي استدرك على امرىء القيس هذا أعلم
 بالشعر منه (٤) فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب
 لا يملأ البراز كما يملأ الحائك لأن البراز يعلم جلته ، والحائك يعلم تفاصيله ،
 وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب قصيد ، والشجاعة في منازلة
 الأعداء بالسباحة في شراء الخمر للأضياف للتضاييف بين كل من الفريقين .
 وكذلك لما ذكرت اللوت في صدر البيت الأول أنبغته بذكر الردى في آخره .

(١) المصحح المتنبي عن حيثية المتنبي ص ٨٤ .

(٢) أنيطن : أحضن .

(٣) سبأ الخمر : اشتراها ، الزق : وماء الخمر ، الروي : الذي يروي ويشبع ،
 الإجمال : الغفور .

(٤) وفي بعض النسخ « وهو أعلم بالشعر مني » .

ليكون أحسن تلاؤمًا ، ولما كان وجه الجريح للنهزم عبوسًا ، وعينه باكية
قلت : (ووجهك وضاح وتترك باسم) لأجمع بين الأضداد في المعنى ، فأعجب
سيف الدولة كلامه .

ونقد سيف الدولة أبا الطيب في قوله عن موقعة الحدث أيضًا :
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تماثيل
قال المتنبي : « ما رد على أحد شيئًا قبله إلا سيف الدولة فإني أنشدته :
ومن جيف القتلى ، فقال : مه قل : ومن جثث القتلى ، فديات وقلت
كما قال لي »^(١) .

وكانت حكمة النقد متوهجة في بيضة حالب ، ولم يكن سيف الدولة وحده
هو الذي ينقد أبا الطيب بل كان ينقده معظم من كانت تضمهم حلقة الأدب
في مجلس الأمير ، وكان هذا يدفع المتنبي إلى الإجابة أحيانًا وإلى الإيمان
في التقريب والتمهيد أحيانًا أخرى نكايه فيمن حوله عن سماهم بالمشاعرين ،
وقد سبق الإشارة باختصار يقتضيه المقام إلى نقد سيف الدولة المتنبي ،
ولم يكن أبو الطيب على وفاق مع ابن خالويه الذي كان ينقده من جانب
الغنى ، وقد نظم عليه الشعراء الآخرون في مجلس سيف الدولة ، كأبي العباس
الغامي^(٢) الذي قال : « كان قد بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبي ، وكنت
أشتغي أن أكون سبقتة إلى معنيين ، قلما ماسبق إليهما أما أحدهما فقوله :

رمانى الدهر بالأرزاق حتى فزادى في غشاه من نبال
فصرت إذا أصابنى سهام تكسرت النصال على النصال

(١) الديوان ج ٤ ص ٩٧ شرح البرقوقى .

(٢) أبوالعباس أحمد بن محمد الدارمي المعروف بالناسى كان من الشعراء البارزين
في عصره ، وكان يلى أبا الطيب في المنزلة والرتبة تولى سنة ٣٧٠ هـ على المشهور
(يتصرف عن هاشم المصباح ص ٨٠) .

والآخر قوله :

في جعل ستر الميون غبارهُ فبكأنما يُعمرن بالآذان^(١)

ولقد تفوق أبو الطيب في شعر الحاسة والحرب ، وفي وصف الجهاد بين المسلمين والروم ، وفي وصف القتال بين سيف الدولة والقبائل العربية التي تجاوزه ، وكان الشاعر محبا لأميته ، وأخلص له ، وأشاد بانتصاراته ، فكان يحضر معه الغزوات والحروب ثم يعود لينشده الشعر في مجلسه مجلس ، ومما أسهم في إجادته المتنبى لشعر الحاسة أنه كان فارسا ومقاتلا ومحبا للدم العربي ومنتصرا لبني جلدته أليس هو القاتل مفتخرا :

انليل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ولإذا كانت السيوف قد زادت عن الثنائين قصيدة ومقطوعة فإن شعر الحاسة فيها يبلغ أربع عشرة قصيدة ومقطوعة في وصف وقائع سيف الدولة مع الروم ، ومن السيوف كذلك أربع قصائد في حروب سيف الدولة مع القبائل العربية غير الميمية التي قالها أبو الطيب في صدر شبابه يمدح فيها سيف الدولة بمد انتصاره على بعض القبائل العربية ، وكل هذه القصائد الحاسية تفيض بالقوة والشجاعة واليسالة .

وسوف نعرض لعدد من المارك التي خاضها سيف الدولة وتحدث عنها أبو الطيب ، وتجلت فيها موهبته الشعرية ، وقدرته على وصف الحروب ، والاشادة بالانتصارات .

(١) الصبح المنى ص ٨١

أولاً : معارك سيف الدولة مع الروم

لم تنقطع الحروب بين الدولة الحدانية والروم في القرن الرابع الهجري ، وقد كثرت هذه الحروب في المدة التي تولى فيها سيف الدولة إمارة حلب وماجاورها ، ولم يمر عام من غير أن تكون هناك موقعة كبيرة أو سرية صغيرة ، وكان سيف الدولة يهب أحيانا لنصرة أخيه ناصر الدولة بالموصل ، ثم يقصر من عنده فجأة للدفاع عن الثغور العربية ، أو للتزو في أرض الروم إذا كان هناك ما يدعو إليه .

كان الجيش الحداني أقل عددا من جيش الروم ، لكن رجاله كانوا أكثر حاسة ، وأقوى عقيدة ، وأقدر على تحمل مشاق القتال ، فكانوا يحاربون بشجاعة وبسالة مع قلة عددهم ، وكانت انتصاراتهم أكثر من انتصارات الروم ، فنشكليات جيش الروم من جنود مرتزقة لا يحميهم دين ، ولا توحيد بينهم لمة ، وما يحققونه من انتصار يأتي نتيجة لكثره عددهم أو لمظم ما وعدوا به من عطاء أو نتيجة لتكاسل وتهاون أو غليظة أو انزواء من جيش سيف الدولة . وعلى كل فقد كانت الحروب في معظمها سجالا بين الفريقين .

وفي معركة خرشنة أو معركة جبل اللقان سار سيف الدولة بجيشه ومعه اللقيط لأول مرة وتوغل في أرض الروم ، وعبر نهر « آلس » وهو نهر عظيم تحدث عنه الشعراء ، ومنهم أبو تمام ، وهو على مسافة يوم من « طرسوس » . ثم نزل في مدينة « صارخة »^(١) وليس فيها ألمان ، وأحرق أرباضها ، ثم نزل « بخرشنة »^(٢) في منتصف ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة ،

(١) في السكتب الرومية (صارخة) .

(٢) بلد بالروم قرب ملطية (مسيرة خمس ساعات من القرات) .

وهي ذات قلعة حصينة جبالية ، وعلى مقربة من جبل الققان ، وقد أحرق أرباضها كذلك ، وظهر بهذا طريقة ، وأذل عدوه . وهذه النواحي مناطق جبلية فيها بعض الترى كخرشفة وبمض الأنهار مثل « آلس وبردى » .

ولقد استغل سيف الدولة ذكاهه وخبرته في ممارسة الحروب فالحرب خدعة وهو يعلم من كثرة تجاربه مقدرة الدمستق ملك الروم ، ويعرف العدد المائل للجيش ، ويعلم طبيعة الأرض التي يقاتل عليها ، لسكنه لا يشك في مقدورته الحربية ، ويتق في حاسة جنوده وخبرة قواده .

كان جيش الروم في هذه الموقعة في ألوف من الخيل غير أن هذه الألوف قد خدعت كما خدع الدمستق^(١) نفسه ، فمتدما ظهرت له سرية من جيش العرب ، وكانت بمثابة مقدمة للجيش خلفها كان الجيش ، وقد أراد سيف الدولة ذلك حتى يستنفذ الروم كل قواهم ، ثم طلم عليهم ببقية الجيش فلما انقضت كثرة ، وقاتل العرب ببسالة ، واشتدت المعركة ، وحى وطبىها ، وانتصر أمير حلب انتصارا عظيما ، وهزم الدمستق هزيمة منكرة ، وقتل وأسر من الروم الكثيرين وأسر من البطارقة وكبار القواد أكثر من ثمانين شخصا ، ثم فر الدمستق هاربا ، وولى ببقية جيشه الأدبار ، وعاد العرب بالأسرى والغنائم والنصر العظيم ولم يسكن هذه هي النهاية . . .

يقال : إن سيف الدولة وجنوده قد لحقهم الفرور بعد نصرهم العظيم في جبل الققان ، فعمهم الأسرى والغنائم ، وخلفهم الخراب والدمار ، وقد نسوا أنهم في أرض الأعداء ، بعد كل ذلك هب الروم للدفاع عن شرفهم ، وللاعتاق

(١) الدمستق : مناء الحسادم الأعظم ، وهو أعظم القواد في جيش الروم أثناء هذه الحروب .

لأرضهم وجنودهم ، فحملوا على العرب بقيادة « قسطنطين بارداوس »^(١) عند مقطع الأنظار بالقرب من بحيرة الحدث في منتصف جادى الآخرة من السنة نفسها ، وقد حوصر سيف الدولة بين جبلين ، وقتل من جيشه عدد كبير ، وتفرق معظمه وأخذ يستنفر الناس فلم ينفر أحد ، فأمر بقتل البطارقة ومن تبقى معه من أسرى الروم ، وتحاذل الناس لكثرة التعب وطول السفر ، وقسوة الممارك .

وقد ارتجع الروم السهى الذى كان المسلمون قد غنموه ، وقتلوا وأسروا عددا كبيرا من العرب ، وغنموا غنيمة عظيمة : وعاد سيف الدولة إلى حلب مع بعض جيشه منكسرا منهزما ، بعد أن استغرقت هذه الحرب بشتائها النصر والمهزلة ثلاثة شهور ، وقد سميت بغزوة القنزة لأن سيف الدولة كان يقفز بين الجبال قفزات كبيرة لينجو هو ومن معه ، وسماها النخريون غزوة المصيبة للنتيجة المحزنة التى انتهت إليها ، ومن سوء حظ الملقى أن هذه الغزوة كانت أول غزوة يحضرها مع سيف الدولة فى حروبه مع الروم فتألم لما حدث فيها ، وساء له أن يرى أميره مهزوما ورجاله من حوله لا ينفرون معه ، ولا يلبون نداه .

وقد قال أبو الطيب فى هذه المعركة قصيدتين الأولى بعد الانتصار فى جبل الققان وقبل الهجوم على جيش سيف الدولة فى وادى الأنظار وأولها :

لهذا اليوم يعد غد أريجٌ ونارٌ فى العمدو لها أجمعٌ
وهى قصيدة لا تزيد عن اثنى عشر بيتا . إذ أن ساحة القتال ليست مكانا ملائما للإطالة فى قرض الشعر ، وهى لا تعدو أن تكون إشادة بسيف الدولة ، وإنذارا لللاعداء ، وتحريضا لجيش المسلمين ، وتعبيرا عن آمال المتأني وثقة فى الفوز العظيم على الروم .

(١) هو إمبراطور الروم .

والقصيدة الثانية ، قالها في حلب ، وأنشدها في قلعة سيف الدولة ، وفيها يشيد بحماسة ويذكر إقباله على العدو ، والتمحاض معه ، ثم يعيب على الأشرار الذين وقفوا في قبضة الروم ، والقصيدة في تسعة وأربعين بيتاً ، وهي من أعظم السينيات الحربية لاعتبارات كثيرة ولهذا سوف تتوسع بعض التوسع في الحديث عنها ، والتعليق عليها .

ولنبدأ بالتأني هذه المعينة حزينا ملتاعا بسبب هؤلاء الجبناء الذين يتقاعسون عن القتال ، ولا يشجعون إلا بالكلام ، فشجاعتهم بالقول لا بالعمل وهم جبناء أدعياء ، يتحسسون للقتال قبل التجربة ، وبمدها ! يتركون لهمجزهم وفشلهم وكسبهم .

وذكر أنه لا يريد الحياة ولا ينتمى لها إذا كانت على هذه الصورة ، ولعله قد نفار إلى قول قطري بن النجاعة وهو من شعراء الحجازة عند الخوارج :

وما الدرد خيرٌ في حياة إذا ما عُذَّ من سقط المتاع

وبراصل أبو الطيب حديثه الحماسي في مطلع هذه السيفية مؤكداً أن الجبال ليس في الوجه الجليل ، أو في استقامة الأنف ، وإنما في البأس والسكافح ، إذ أن الميزر المتحمس عندما ينقطع المز عنه يكون كالقدي جدد أنفة مع أنه صحيح الوجه سليم الأنف ، فالجند وبسطة العيش إنما يطلبان بالسيوف التي هي دماء الكرم أو دأؤه .

قال :

غيري يا كثر هذا الناس يتخذ ع^١ إن قاتلوا جَبَّوْا أو حدثوا شَجَّوْا^(٢)

(١) قال : هذا الناس ، ولم يقل : هؤلاء الناس لأنه نظر إلى لفظ الناس لا إلى صنفه ، وفي رواية : هذا الخلق .

أهل الحفيظة إلا أن تجرهم
وما الحياة ونفسي بعد ما عليت
ليس الجمال لوجه صبح مارت
أنف العزيز يقطع العز يجتدع
الطرح المتبدع عن كفتي وأثامي
بأنرك الميث في غدي رأيت
والشرفية لا زالت مشرفة
دواه كل كريم أومى الوجع

وهذا مطلع حاسي رائع أملاه التجربة ، ومعايشة الحرب ، وأوحى به
المناسبة الحزينة التي عانى منها أمير بني حديد . وفيه نعمة خطابية قوية تلامح
مع حديث الشاعر عن شروط الفروسية فليست نهياً لكل من حب ودب .
وفي المطلع ثورة غاضبة ، وعاصفة عاتية ، وتوبيخ موجع ، وتسمية لبعض الجنود
الذين جبنوا وانهاروا ، وانصمروا فلأبوا ، وتكاسلوا فأساءوا في المعركة
المذكورة . وهو يستنفض المسلمين ، ويقرر أدب الحرب ، ويقنن للفروسية ،
ويواسي الأمير ، ويعبر عما في دخيلته من حزن واكتئاب .

ثم انتقل بعد ذلك إلى سيف الدولة ، فذكر أنه الفارس الشجاع الذي يثبت
على الخيل ، ويقرها إذا أرادت الفرار ، ودমে منسكب على جوانبها ، وهو
شجاع وإن كان وحيداً ، وحليم في ساعة الغضب .
وذكر أن الملوك تحصى بمجروشها ، لكن ابن أبي الهيثم هو الذي يحصى

(١) الحفيظة : الحية والأنتة ، النى : الاتهامك في الجهل أو الاختلال ، ينزع :

يكف ويردع .

(٢) القطيع : الدنس والشتين ، وما استلهامية في قوله : وما الحياة ؟

(٣) المارن : ملان من الأنف ، واجتدع أنفه : قطع .

(٤) المراد بالثبث لازمه من بدلة البيت . الانتجاع : جلب الكلاب .

(٥) الشرفية : السيوف .

جيشه ، ويقوده لقاء العدو ، وهو لا يقنع بالانتصارات كالموت الذي لا يرتفع ولا يشيع .

وقد واصل لمساعره على مقابله حتى نزل بضواحي « خرشنة » وأقام فيها فشق به الروم لأنه يسبي النساء والأطفال ويقتل الأولاد السكار ، وينهب الأموال . ويحرق الزروع .

ويواصل المتنبي حديثه عن هذه الفارة التي التهمت الأخضر واليابس عند الروم ، وذكر أن الأمر بلغ النهاية في الذكابة بهم عندما أحقل دورهم ويلازم وأقام فيها شعائر الإسلام . وصوّر الشاعر المزعجة أبلغ تصوير عندما قال إن الطيور الجارحة قد طمعت في أكل الأحياء منهم أطول أكابها من لحوم قتلاهم ، ولو رأى الحواريون منهم سيف الدولة وشهدوا عدله وإنصافه لجللوا محبته واجباً وفرضاً عندما يشرعون لأهل ديارهم ، لنقرأ له قوله :

وفارس الخيل من خفت فوقها
في الدرب والدم في أعطانها دُع^(١)
وأوحده وما في قلبه قَلَق^(٢)
وأغص سبته وما في أنفه قَذَع^(٣)
بالجيش تمتنع السادات كلام^(٤)
والجيش بآبى أبي الهيجاء تمتنع^(٥)

(١) فارس الخيل : القصور سيف الدولة ، خفت : أسرعت ، وفرها : ثبته .
الدرب : الطريق إلى الروم ، أعطانها : جوانبها .
(٢) أوحده الخيل : تركته وحيداً ، قَذَع : نعتى .
(٣) آبى أبي الهيجاء : سيف الدولة .

قَادَ الْمَنَاقِبَ أَقْمَى شُرَيْبَهَا كَهَلْ
 عَلَى الشَّكِيمِ ، وَأَذْنَى سَهْمَا يَرْحَ (١)
 لَا يَمْتَقِي بَلَدٌ مَشْرَاهُ عَنْ بَلَدٍ
 كَالْمَوْتِ لَيْسَ لَهُ رِيٌّ وَلَا شَيْعٌ (٢)
 حَقٌّ أَقَامَ عَلَى أَرْبَاضٍ خَرَشْتَنَةٍ
 تَشَقَّى بِهِ الرُّومُ وَالصَّلْبَانُ وَالْبَيْعُ (٣)
 لِلْسَبِي مَا نَسَكَحُوا وَالْقَتْلُ مَا وَلَدُوا
 وَالتَّهْبِيرُ مَا جَعُوا ، وَالتَّقَارُّ مَا زَرَعُوا (٤)
 غَلَى لَهُ الْمَرْجُ مَذْهُوبًا بِصَارِخَةٍ
 لَهُ لِلنَّسَابِ مَشْهُودًا بِهَا الْجَلْبَعُ (٥)
 يُطَمِّعُ الطَّيْرَ فِيهِمْ طُولُ أَكْلِهِمْ
 حَقٌّ تَسْكَادُ عَلَى أَحْيَانِهِمْ تَقَعُ
 وَلَوْ رَأَتْ حَسَوَارِثُهُمْ انْفَوْا
 عَلَى حَبِيبَةِ الشَّرْعِ الَّذِي شَرَعُوا (٦)

- (١) المنائب ، جمع مقنّب وهو الجماعة من الخيل ، التهل ، لشرب الأول ، الشكيم
 والفكينة في الأجزاء ، الحديدية المقترضة في ذم القوس . السرعة ، السرعة .
 (٢) لا يمتق ، لا يموق .
 (٣) أرباض : جمع ربيض وهو ما حول المدينة من البادية .
 (٤) أقام (ما) مقام (من) في الشطر الأول لتوافق (ما) في الشطر الثاني ، ويموز
 أن تسكون محمولة على المصدر .
 (٥) المرج ، موضع ببلاد الروم ، صارخة ، مدينة من مدنها وهي في كتبهم صارخة
 (Dharija)
 (٦) الحراريون ، أتباع السيد المسيح ، وأصنافهم إلى الروم لأنهم من أهل دعوته .

وقد ركز أبو الطيب في هذه الأبيات حل وصف سيئ الدولة بالشجاعة والإقدام ، وتنازع سير الجيش وهو يتحرك إلى أرض الأعداء في سرعة مذهلة ، وصور نزوله بمكان المعركة وإبادته لأرباض خوشة تصويراً بليغاً في شعر حاسي معوج لا نظير له .

ثم انتقل إلى وصف اللقاء بين الجيشين ، فبدأ بدم الدمستق الذي خاتمه عيناه فذمهما ، إذ أنه أبصر بهما كتائب سيف الدولة فظنهما شرارهم قليلة مع أنها جعائل عظيمة ، وقد عبر بسود النعام عن كثافة الجنود ، وبالتذرع وهو السحاب للفرق من قلة الجنود . ونلاحظ هنا الألفاظ جزلة قوية والمعاني ملائمة أشد اللامعة والمحافظة قوية وصادقة ، قال :

ذمّ الدمستق عينيه ، وقد طامعت	سود النعام فظنوا أنها تزغ ^(١)
فيها السكاة التي مفلوؤها رجل	على الجياد التي حوليها جدع ^(٢)
تذري ألقان غباراً في مناخرها	وفي حناجرها من آلس جرع ^(٣)
كأنما تعلقاهم لتسلطهم	فالظمن يفتق في الأجواف ما تسع ^(٤)
تهدي نواظرهما والحرب مظلمة	من الأسفة نار واللقنا تسمع ^(٥)
دون السهام ودون القر طافعة	على قوسهم المقورة للزع ^(٦)

(١) الدمستق : قائد جيش الروم ، القزع ، التفرق من السحاب ، إحدتها ، قزعه .

(٢) فيها أي في سود النعام والمقصود جنود سيف الدولة ، السكاة : جمع سكي وهو البطل الشجاع ، الحولى ، الذي آلى عليه الحول ، والجذع الذي آلى عليه حولان .

(٣) الألقان : موضع ببلاد الروم وآلس ، نهر بها .

(٤) نار فاعل تهدي ، واللقنا ، الرماح .

(٥) القر : القرد ، طافعة : مسرعة ، المقورة : الضاحرة ، المزع : السريعة .

تد وصف أبطال العرب وخيول الحرب فذكر أن السكاة من طول تمرسهم بالحرب لا زالوا بالنسبة إلى الأحمار الحربية في سن النظام ، أو أن العبي فيهم وجل لدى الوعى ، وهم على الجهاد . ووصف الخيول بالسرعة الرهيبة للدرجة أن مفاخرها قد امتلأت بنهار الققان ، وهى بلد بالروم وراء خرشنة بيومين ووصات إليها قبل أن تبتلع الماء الذى شربه من نهر آلس ، وهذا البيت كما ذكر ياقوت الحموى في معجم البلدان من إمرافات اللقنى في المبالغة الذى يثب ويقفز بجياله قفزات طويلة مسرعة ، ويتابع في وصف رائع وممان خلافة الخيول وهى تمدو ومن فوقها الفرسان الذين يطعنون بسيفهم جنود الأعداء ويشقون لخيولهم بين صفوف الروم أجواناً تسعها . ولما أظلمت أرض المعركة بالنهار كانت الخيل تهذى بالفار المتبعثة من ضوء الشموع ، فالرياح هى الشمع ، وأستنها هى تلك النار المضيئة .

ويبدع اللقنى في وصف الخيل فقد عرف أوصافها وأنواعها ، ولا تكاد تأتى قصيدة من شعره الحماسى دون أن يذكر الخيل ، فلقد تعرف عليها وتعرفت عليه . وهو في هذه العناية يتابع حركتها وانطلاقتها إلى الأعداء ، حيث تصل إليهم قبل السهام ، وقيل برد بلادهم فسكانها تصبى الرياح فتمدو على أجسامهم وتطوهم بموافرها .

ثم يواصل حديثه في هذه القصيدة الواثمة عن انتصار سيف الدولة على الروم في بلادهم ، فيذكر أن الرياح السمر تفرق بين ضلوعهم ، وتحرق أعلاهم ويصف ابن الدمشق بالجبن والخور إذ أنه قد سبق الخيل بقراره فلم تدركه فأعظم منه قدراً أسير مشدود لأنه قاتل حق أسير ، وأشجع منه قتيلاً مصروع ، إذ أنه قاتل حق قتل ، ولم ينبج من السيوف من نجا إلا وفى قلبه منها خوف وفزع ، فإذا عاد الحارب إلى وطنه ، وصار فى مأمنه عاش محتبل العقل ، أصغر

اللون ، لا تحيل الخمر لونه إلى الحرة لشدة ما لحقه من الفزع ، وقد أبدع المعنى في هذا التصوير الرائع لجيش الروم ، فهم بين مقتول ومأسور وهارب لم تدركه الخيل لسرعته في الفوار .

ثم انتقل إلى وصف البطارقة المقيدين بالأغلال كي يتقلوا إذا دعت الحاجة إلى قتلهم ، قال : إن أرواحهم في ضمان القيود الأمانة التي لا تخون من وكل إليها الحفاظ عليهم حتى تضرب أعناقهم بالسيوف ، وهذه القيود غير ورعة ، لأنها تقلق المقيدين بمعصيها انطوط والقوم عنهم ، ثم ذكر أن اللطا تأتمر بأمر سيف الدولة فتعصر عنهم أو تدفق عليهم ، وهذه من مبالغات أبي الطيب ، ومن معانيه العميقة ، قال :

إذا دَعا المَلِجُ عَاجِبًا حَالًا بَيْنَهُمَا
أَغْلَى مُفَارِقٍ مِنْهُ أَخْبَاهُ الصَّاعِ (١)
أَجْلٌ مِنْ وَلَدِ النَّفَّاسِ مُنْكَتِفٍ
إِذْ فَاتَهُمْ وَأَمْعَى مِنْهُ مُنْصَرِعٍ (٢)
وما نجا من شِفَارِ البَيْضِ مَذْقَلَتِ
نَجَا ، وَمِنْهُنَّ فِي أَحْشَاءِهِ قَزَعٌ (٣)
بِإِشْرَ الْأَمْنِ دَهْرًا وَهُوَ مُخْتَبِلٌ
وَبِشْرَبِ الْخَرِّ حَوْلًا وَهُوَ مُعْتَمِقٌ (٤)

- (١) المَلِجُ : الرجل النليظ من أهل الروم ، أظنى : رجع أسر .
(٢) النَّفَّاسُ : لقب امبراطور الروم ، وكان يلعب بالدمستق Domestique
ومستاه الضادم الأعظم لجيش الشرق : منكف ، مشدود الكتفين .
(٣) هَفَارٌ : جمع شفرة وهي حد السيف .
(٤) الْمُخْتَبِلُ : المضطرب ، المتع : المتغير اللون .

كم من حُشاشة بطريق تضمنها
 للباطرات أمين ما له ورع^(١)
 يقاتلُ الخطو عنه حيث يطلبه
 ويطرُدُ النوم عنه حين يضطجع^(٢)
 تغدو النساء فلا تنفك واقفة
 حتى يقول لها عودي فتنديع^(٣)

ويعد هذه الأبيات التي أشاد فيها المهني بانتصارات سيف الدولة يتبع
 من هذه القصيدة عشرون بيتاً (كما ذكر الديوان). تحدث في العشرة الأولى
 منها من هزيمة سيف الدولة وانكسار جيشه في طريق العودة إلى حلب ،
 ولا يصرح بذكر الهزيمة بل يكتفي بالإجمال وسرد الدلائل وإبراز العلامات
 وتحديد الملامح « وهو لا يرى الهزيمة إلا امتعاضاً للمسلمين ، وتمحيصاً لهم ،
 وتفقية لجيشهم من الضملاء والجنباء »^(٤).

وقد جعل الأمرى من الجيش الجذافي (بعد هزمته) خونة بأنحيازهم إلى
 الروم في حديث موجه إلى قائد الروم ، وأبدع عقدهما دافع عن سيف الدولة
 ملتصاً له الذر في وقوع بعض جنوده في الأمر لكن ماذا قال ؟
 قال إن هؤلاء اليهود الأمرى ضعافاً وخونة وأن الأمير أراد أن يماقهم

(١) الحشاشة : بقية الروح ؛ البطريق : الفارس أو القائد من جيش الروم .
 تضمنها : كفلها ، الباترات : السيوف ، والمراد بقوله : أمين ماله ورع : القيد .
 (٢) الضمير في « يقاتل ويطرُد » راجع إلى الأمين وهو القيد ، وعنه : أى
 عن القيد .

(٣) حديث الأربلاء ص ٢٣١ .

فرضى بتسليمهم إلى الأعداء ، وكانوا قد شهدوا المعركة ، وطمعوا بمناظر القتلى من الروم وأن دماء هؤلاء القتل لطخت ملابسهم فوقوا في الأسر أو رضى الأمير واستحسن وقومهم في الأسر حتى يذهبوا إلى الأعداء . وهم متعطشون بدمائهم ومفجوعون بقتلهم ، (أذكر أنى ما قرأت مثل هذه المأني !) . وبواصل حديثه عن الأسرى فيقول : إنهم من الضعف بحيث لو هموا بقتال العدو لأعرض عنهم وهم ضماف كالأموات ، والروم ضباغ ولا تأكل الضباغ إلا الموتى ، ثم يخاطب الروم قائلا : هلا وقتتم ، وقد صمد إليكم أبطال شجعان فرادى لا يتوقف بعضهم على بعض في الحرب لحاسنهم القوية ، ولثقتهم الكبيرة في أنفسهم ويذكر أن الظهول بن عليها من الفرسان تشق صفوف الأعداء كأنه قد نسي أنه يتحدث عن انكسار وهزيمة ، فذكر خيول العرب وعلمها الجنود البواسل الذين يضربون في جيش الروم أعدادا أكثر من يركون معهم بلا ضرب وإيذاء . ويعود لمناقشة الروم في مسألة الأسرى ليهون الهزيمة ويمزى أميره ، فذكر أن المأسورين من جنود سيف الدولة عجيبة ضعاف لا يشرفون بأن يكونوا تحت قيادته ، ولا يصلحون للحرب معه ، وما دام قد تخلص من هؤلاء الضمفاء ، فسوف يكتب له النصر في كل غزواته فهو أمير الغزاة وكل غاز تابع له ومققد به .

ويقول لسيف الدولة : إن غيرك من الكوام متبعون لغيرهم أما أنت فبتدع ومبتكر لما تفعل ، وإن بشيفك ويميك قتل الأعداء للضعاف من جنودك ومن هذه المأني قال :

قل "لذم منق إن المسلمین لكم خانوا الأمير فجازام بما صنعوا"^(١)

(١) المسلمين : الذين أسلمهم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم .

وَجِدْتُمْوَعْمَ نِيْسَامًا فِي دِمَائِكُمْ
 كَانَ قَتْلَاكُمْ لِيْلَهُمْ فَجَعُوا^(١)
 ضَعْفَى تَمِيفُ الْأِيَادَى عَنْ مَنَالِهِمْ
 مَنَ الْأَعَادَى وَإِنْ كَمَلُوا بِهِمْ تَزَعُوا^(٢)
 لَا تَحْتَبِئُوا مِنْ أَسْرَتِهِمْ كَانَ ذَا رَمَقٍ
 فَلَيْسَ بِأَكْلٍ إِلَّا الْمَيِّتَ الضَّعِيفُ
 مَلَا عَلَى عَقَبِ الْوَادَى ، وَقَدْ صَعِدَتْ
 أُنْدُ نَمْرُ فَرَادَى لَيْسَ تَجْتَمِعُ^(٣)
 تَشْفُكُمْ بِنَقَاهَا كُلُّ سَلْهَبَةٍ
 وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدْعُ^(٤)
 وَإِنَّمَا عَرَضَ اللَّهُ الْجَنُودَ بِكُمْ
 لِكَيْ يَكُونُوا بِلَا قَتْلِ إِذَا رَجَعُوا^(٥)
 فَكُلُّ غَزْوٍ إِلَيْكُمْ بَعْدَ ذَا قَلَّةٍ
 وَكُلُّ غَازٍ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْقَبِيحُ
 يَمْشِي السَّكْرَامُ عَلَى أَعْيُنٍ غَيْرِهِمْ
 وَأَنْتَ تَخْلُقُ مَا تَأْتِي وَتَبْتَدِعُ
 وَهَلْ يَشْفُوكُ وَقْتُ كَرْتِ فَارَسِهِ
 وَكَانَ غَيْرُكَ فِيهِ الْمَاجِزُ الضَّرْعُ^(٦)

(١) فِي دِمَائِكُمْ : أَي فِي دِمَائِهِمْ قَتْلَاكُمْ .

(٢) ضَعْفَى : جَمْعُ ضَعِيفٍ .

(٣) الْعَقَبُ : جَمْعُ عَقْبَةٍ ، فَرَادَى : جَمْعُ فَرْدَانٍ - أَي فَرْدٍ - عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ .

(٤) السَّلْهَبَةُ : الْعَاوِلَةُ مِنَ الْحَيْلِ .

(٥) الدَّرِيلُ : الْمَجِزُ .

(٦) الضَّرْعُ : الضَّعِيفُ .

وقد رأينا كيف كان أبو الطيب بارعا في حديثه عن المزية ، فأشاد بسيف الدولة وببراعته في تنقية جيشه ، ولكنه انتهى ! الذي يحول بقدراته البهائية المزايم إلى انتصارات ، ويرفع أعلام النصر بدلا من رايات الاله تسلام . ثم تحدث في الآيات العشرة الأخيرة من هذه القصيدة عن سيف الدولة بقصد تمزيقه وتسلية وتهمين الأعداء عليه فقال :

إن من بلغ للثابة ، وارتفع فوق الشمس لا يبالي بمن يرفعه أو يضره ، وقال : إذا كان الأصحاب قد خذلوه ، فإنه لم يفرط في حق نفسه بل كان يدافع عنها بمعاودة السكر على أعقاب الأعداء ، ثم تحول أبو الطيب إلى الحديث عن نفسه لتعويبه بمكائنه ، وبيان فضله فقال : ليت الملوك يملكون الشعراء حسب قدراتهم ، ولو فعلوا لما طمع في خيرهم خبيث خبيث ، وهو وحده الذي يشترك مع الأمير في الحرب دون سائر الشعراء . وهم ينشون سيف الدولة ، وبأخذون أمواله يشعرون الكاذب . ثم عاد للحديث عن ممدوحه فأبرز حسنة وقوة جيروته ، فالدهر يمتدح إليه بما حدث من قتل الروم لضعفاء أصحابه ، والسيف يأتمر بأمره ، وينتظر كرتة عليهم ، وأرض الأعداء ملك له ينزلها صيفا أو ربيعا ، وإن الجبال لن تحميهم ، وإن تحصى أوعالمهم إذا انتصرت هي الأخرى .

شهد أبو الطيب هذه المعركة ، ورأى سيف الدولة وهو يحارب الأعداء بسيفه ، واتدحده في هذا المول بعد أن جربه عندما كان يقاتل ، بينما جنوده يلوذون بالفرار .

وذكر أنه يمدح عن تجربة ، ويصف بعد الرؤية والمشاهدة فليس مدحه عن ظن أو تخمين فالظن قد يحمل من الأخرق شيئا ، ومن للشجاع الذي به رعدة من النضب جباناً ، ثم يختم هذه المعينة الرائعة بحكمة ملائمة للشعر الخاسي فذكر

أنه ليس كل من يحمل السلاح شجاعاً ، كما أنه ليس كل ذى غلب أسدا يزأر ويفترس .

لنقرأ الأبيات الأخيرة من هذه القصيدة قال :

من كان فوق محل الشمس مؤمناً	فليس برقمه شيء ولا يضع
لم يسل السكّر في الأعقاب	إن كان أسد لها الأصحاب والشجع
ليت للملوك على الأقدار مطيعة	فلم يكن لدى عندها طمع
رضيت منهم بأن زرت الوغى فراوا	وأن قرعت حبيبك البيض فاستمعوا ^(١)
أفد أياك غشاً في مسامحة	من كنت منه بنير الصدق تنفع
الدهر معتذر والسير منتظر	وأرضهم لك مصطاف وسريع
وما الجبال لتضربان بحامية	ولو تضرع فيها الأعصم الصدع ^(٢)
وما حزنك في هول ثبت له	حتى يلوئك والأبطال تمتصع ^(٣)
فقد يظن شجاعاً من به خرق	وقد يظن جباناً من به زرع ^(٤)
إن السلاح جميع الناس تحيله	وليس كل ذوات المختلج السبع

ويلاحظ أن الأفكار غير مرتبة وليس بينها ما يسمى بالوحدة العضوية .
ولم يبال أبو الطيب باستجلاب محسنات بدعية فتتقهر المعاني ، ولكنه عفى
عناية شديدة بالألفاظ فجاءت قوية ومؤثرة وصاخبة وذات جرس وهي ملائمة
للمعنى أشد للملائمة ، وهي فعلا ألفاظ حماسية مجلجلة وليست رقيقة ناعمة ، وكيف
توجد الرقة في مقام القتال ؟

(١) الحبيك : جمع حبكة وهي الطرائق .

(٢) الأعصم : الوعل الذي في إحدى يديه بياض ، الصدع : الوعل لا بالسن .

ولا بالصغير .

(٣) امتنع في الأرض : ذهب إليها هارباً .

(٤) زرع : رعدة .

أما المماني فيعمدة وحمقة ومميرة أعظم تنبیر عن هذه الحروب وصادقة...
لأن الرجل قد شهد الموقعة وعاین أحداثها وعایش ما فیها من نصر وهزيمة ،
وكانت عاطفته عميقة وصادقة ، ومتلألئة مع خياله الوثاب .

ولم تكن الحرب بین العرب والروم تنتهی حتی تبدأ من جدید فی شكل
معارك كبيرة أو سرايا صغيرة يقوم بها أحد الفريقین ، ويرد علیه الآخر ،
وقد یبدأ الطرفان لمدة بسيطة یبادلان فیها الأسرى ، ویأخذان الأهبة بالسلاح
والرجال ثم یواصلان الحرب من جدید .

القصيدۃ التي بین یدی الآن هی اللامية التي یقول أبو الطیب فی مطلعها :
لیالی بعد الفاعنین شکول طوال ولیل الماشقین طویل^(١)
بین لی الہدر الذي لا أریده ونخفین بدرأ ما لایه سبیل
وما هشت من بعد الأحبة سلوة واسکنی للذائبات حول

وقد أنشدها المتنبی فی حلب ، وليس فی میدان المعركة كما كان یفعل فی بعض
الأوقات عندما تطول الإقامة مع الأمير فی أرض القتال ، وقد أراد أن یصف
ما وقع فی جمادی الآخرة سنة ٣٤٣ هـ . أما عن تفاصيل هذه المفاسیة فسوف
أکتفی بما ذكره الذکفور عبد الوهاب عزام فی التقديم لهذه القصيدة فی شرحه
لديوان المتنبی قال : « رحل سيف الدولة من حلب إلى ديار مصر لاضطراب
البادية بها ، فنزل حران فأخذ رهائن بنی عقیل وقشیر والجبلاز . وحدث له بها
رأى فی الغزو فعبير الفرات إلى دلولك إلى قنطرة صنبجة إلى درب انقة ، فشن
(١) قطاعن : للرحل ، شکول : جمع شكل أى شبیه ومثل ، ویجمع علی
شکول وأشکال .

الغارة على أرض عرقنة وعاد ليوم من درب مؤزار فوجد العدو قد ضبط عايه فرجع وتبعه العدو ، فعايف عليه فقتل كثيراً من الأرمن ، ورجع إلى مملطية . وعبر قباقيب ، وهو نهر ، حتى ورد ما تخاض على القرات تحت حصن يعرف بالمشار ، فمير إلى بطن هنزيط وسمنين ، ونزل بمحصن الران ، ورحل إلى سبيساط فورد عليه بها من خبره أن العدو في بلد المسلمين فأرسل إلى دلوک وعبرها ، فأدركه راجعاً على جيحان ، فمزقه وأسر قسطنطين بن الدمستق ، وجرح الدمستق في وجهه^(١)

ولا يختلف ما ذكره الدكتور هزام عما ذكره البرقوق في شرح الديوان نفسه .

وهذه القصيدة من أربع وأجل ما قاله المتنبي في حروب سيف الدولة ، وبلاحظ أن هذه السيفية تختلف عن غيرها من السيفيات في نواح كثيرة ، فن حيث الطالع جاء هنا غنائياً حزيناً على غير العادة في قصائد المتنبي الحاسية . كما أن القصيدة لم تخلص كلها للحرب فضلاً عن المطلع الثنائي الذي زاد عن عشرة أبيات من القصيدة وعددها سعة وستون بيتاً ، كما اجمعت المتنبي ببعض الأبيات فدح فيها سيف الدولة مدحاً تقليدياً خالياً من الحديث عن حاسته وحاسة جنوده ، وفي القصيدة عدة أبيات أخرى اختص المتنبي بها نفسه كمادته في معظم مدائحه إذ يحمل من مدحه لدلوک والأسراء قسطاً يختصه لنفسه ويعبر فيه عن كبريائه وشموخه وثقته بنفسه وأحب أن تطالع بعضاً من هذا اللون حتى يتجمع لك قدر من الشموخ يمكن أن تتضح به شخصية المتنبي عندك قال :

أنا السابق الهادي إلى ما أقولُه إذ القول قبل الثاقنين مقولُ
وما اسكلام الناس فيما يُريبي أصولُ ولا لقنائله أصولُ

(١) الديوان ص ٣٤٧ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٩٣ هـ سنة ١٩٤٢ م . وقد رتب الدكتور هزام القصائد والمقطوعات ترتيباً تاريخياً .

أعدّى على ما يوجب الحية للفق وأهدأ والأفكار في تحول
سوى وجع الحساد داو فإنه إذا حلّ في قلب فليس يحول
ولا تطلعت من حاسد في مودة وإن كنت تهبها له وتنبئ
ولنا لائق الملائكة بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا أن تصاب جؤونا وتسلم أعراض لها وتطول

وقد تعجب من المتنبى كيف انتظم هذه الأبيات فتحدث فيها عن نفسه ،
وانشغل بها عن مدحها وإس فيها مروج الحكاه ، وحذر من الحساد ،
وهكذا بدت القصيدة على جمالها وروعها محتلة اختلافاً عضوياً إذا نظرنا إليها
نظور النقد الحديث .

وبعد هذا الاغتراب من حاسة سيف الدولة ، وتصوير المتنبى لها نمود إلى
ما تبقى من هذه اللامية فنجد أن القسم الأكبر منه قد تحدث فيه أبو الطيب
عن الخيل وهي تعبر الأنهار وتغرق من بين الجبال . فالبطولة هنا لا تخيل ومعهما
سيف الدولة ، والأدوار الثانوية للسلح والجند . فالخيل هي السهام أو كالسهم
في سقوطها على الأعداء ، وهي التي تقطع القيافي وتغذ الركض ، وتجري
مسرعة ، وتخرج وتصل رائحة أذناها ، وقد هزات وضربت لكثرة الركض
وسرعة الجرى في بلاد الروم من غير راحة أو مقول ، وهي كالسحاب بما عليها
من أسلحة وعتاد فإذا ما وصلت إلى الهدف صبت أو صب من عليها السهوف
على الأعداء فقتل الأرض يدماهم ، وأخذت السبابا تنقعين ، وشققن الملايسه
شهدت على الأرض كأنها ذبول ، قال :

رى الدوب بالجرير الجيساف إلى المدا

وما علموا أن السهام خيول^(١)

(١) الدوب : الطريق إلى الروم ، الجرير : الخيل القصيرة همر الجلد .

شوائل تشوال المقارب بالنفس
 لها مَرَحٌ مِنْ نَحْمِهِ وَصَمِيلٌ^(١)
 وخيل براها الركض في كل بلدة
 إذا عرست فيها فليس ثقيل^(٢)
 فاشعروا حتى رأوها مفهومة
 قباحا ، وأما خلفها فجميل
 سحائب يُمَطَّرُونَ الحديدة عليهم
 فكل مكان بالذووف غسيل^(٣)
 وأمسى السبيل ينتحين بقرقة^(٤)
 كأن جيوب الثاقلات ذبول^(٥)

ولما حقق سيف الدولة هذا النصر ، وفاز بما غنم أراد الفحول ، وفرح
 الأعداء ، ولما وجد أن الطريق ليس له ، انتفض الخيل عليهم ، وأحاطتهم
 النيران ، فأكلت الدور ، وحوّلتها إلى ملول ، وكرت الخيل على الروم وهي
 تركض في دماء أهل ملطية ، وعندما عبرت قباحب - وهو نهر - عطلت سمر
 الماء فيه ، ولسكنها حل الورع في قلب نهر الفرات . ثم نزلت النهر كالسيل
 لتطارد موجه ، وهي تخوض وتسبح ، وكانت تظهر من الماء وتختفي فلا يبين
 منها إلا العنق والرأس . وانظر إلى براعة المتنبي في وصف الخيل ومقابعتها
 أثناء الكرور والافتحام ، حيث قال :

- (١) شوائل : رامات ، تشوال مفعول مطلق ، وقد شبه حماها لارماح كحبل
 المقارب لأذنانها ، المرح : اللب والنشاط .
 (٢) براها : عزها ، نعرس : نقي وقت الهجرة .
 (٣) عرقة : بلد بالشام ، الجيب : ما انتح من القميص على الشجر .
 (٤) - شمر الحاسة -

وعادت فظفروها بمَوَزَارَ قَفَلًا وليس لها إلا الدخول قُفُولًا^(١)
تسيرها النيرانُ في كلِّ مسلك به تقوم سرعى، والدبار طُلُول
وكرمت فرت في دماء مَلَطِيَّةٍ مَلَطِيَّةُ أُمِّ لَبَيْنِ تَحْمُول^(٢)
وَأَضْمَنَ مَا كَلَفَتْهُ مِنْ قَبَاقِبٍ فَأَضْحَى كَأَنَّ لِلْبَاءِ فِيهِ عَمِيل^(٣)
وَزَعْنُ بِنَا قَلْبَ الْفَرَاتِ كَأَنَّمَا تَخِرُّ عَلَيْهِ بِالرَّجَالِ سَيُول^(٤)
يطاردُ فيه موجّه كلِّ سابع سواء عليه حَمْرَةٌ وَمَسِيل^(٥)
تراه كَأَنَّ الْمَاءَ سَرَّ بِجَسَمِهِ وَأَقْبَلَ رَأْسُ وَخَذَمَ وَتَلِيل^(٦)

ولقد عايش الشاعر الأحداث ، ورأى وشاهد ، وأبدع وأجاد بعبقرية فذة ،
وموهبة خارقة ، وخيال رحب . . . ثم انتقل مع الخيل إلى أرض المعركة ،
وكانت بمرعش وهي بلد بالنفور قرب أنطاكية ، وأراد أبو الطيب أن يسجل
انتصار سوف الدولة على الروم في هذه البلدة بمد أن انتصر عليهم في عدة نفور
أخرى . فذكر أن الخيول قد وصلت في ظلام إلى مرعش ، لأن الأعداء
قد غافلوه وحرروا مده في أرضهم ونزلوا بأرض المسلمين مما جعله يسجل بفزوحهم ،
والإغارة عليهم أينما كانوا .

ولعل القارئ يلاحظ مدى مقدرة القنبي في متابعة الأحداث من موقع

(١) موزار : حصن في بلاد الروم .

(٢) مَلَطِيَّة : بلد بالروم تتاخم الشام وقد بناها المسلمون سنة ١٤٠ هـ في عهد
أبي جعفر المنصور (يشعرف عن مدجم البلدان ج ٥ ص ١٩٢ طبعة دار صادر ،
بيروت) .

(٣) قَبَاقِب : اسم نهر .

(٤) تَلِيل : العنق .

إلى البحر وقد جعل السرعة ركيزة أساسية في معركة مرعش وما سبقها من لقاءات بالكنوز ، فالتحليل تجري وتسرع كالسهم والسحاب ، لا تقبل ولا تهدأ وتمير الأنهار فتعطل جريان الماء بها ، ولا تنتظر إلى الصباح حتى تواجه الأعداء بالسكر ، بل تلبس الهدى وتلتصق الظلام ، وتباعدت الروم فتصلهم بفرعون بأسرع ما يكون الفرار ، حتى بحر الطويل الذي عرفناه ونبدأ حاداً بدا سريعاً متحزراً ، فيطاول الشاعر والتحليل والليل ، ويمعن في الإسراع والوقوف .

وجعل المنهي القسم الباقي من الأبيات الحاسية في هذه النصيدة لتصوير ما جرى في مرعش وليان ما حل بالدمستق وابنه .

وقد واجه سيف الدولة الأعداء بنفسه بعد أن حلوا بأرض المسلمين ، فلما رآه على هذه الصورة تعجبوا ، ثم علموا أنه يقوم بما يقوم به كل الجيش ، فكانوا يلاقونه ، فيقتلون بسيفه عند رؤوسهم عليه ، ونحن نعرف ما انتهى من خيال يمدح به إلى ميالقاته المهددة ، وهي على كل حال تروق وتعجب ، بل وتأخذ بالألباب .

وسيف الدولة شجاع ، كريم ببذل المال ، ولكنه ضدين ويخيل بالرجال فيصونهم وبرعهم ويحافظ عليهم ، ولهذا أحب قسطنطين ابن قائد الروم - بعد أن وقع في الأسر - بكرم الأمير وشجاعته مما جعل أبا الطيب يقول :

لَيْسَ الدَّجَى فِيهَا إِلَى أَرْضِ مَرْعَشٍ
وَلَرُّومٍ خَطْبٌ فِي الْبِلَادِ جَلِيلٌ (١)
فَلَا رَأَوْهُ وَحَدَّهُ قَبِيلٌ جَيْشُهُ
هَرُوا أُنْتَ كُلِّ الْعَالَمِينَ قُضُولُ

(١) مرعش : بلد بالكنوز قرب انطاكية

فأوردتهم صدر الحصان وسيفه . فنى بأشبه مثل المطاء جزيل
جواز على الملائك بالمال كله . ولسكنه بالدار عتف بميل^(١)
على قلب قسطنطين معه . تعجب وإن كان في ساقية منه كميل

ثم يوجه حديثه إلى الدمستق وهو القائد الرومي العظيم فينذره ، ويسخر
منه ، لأنه آثر قذبة ، وترك ابنه يقع في الأسر ، وبهذه السخرية قال أبو العليبد
في قصيدة أخرى قبلت من هذا الانتصار ، وأنشدتها بحلب مهتفاً بالأمير بعيد
الأضي الذي أعقب هذا الانتصار :

لذلك سمى ابن الدمستق يومه . ما لنا ومما الدمستق مولدا
وأول هذه الدالية :

لسكل اسرى من دهر ما تمودا . وعادة سرف الدولة الطعن في العدا

ونعود إلى اللامية بمد هذا الاستطراد فنذكر أن الشاعر كان يسخر من
جين الدمستق وأنانيته ، عندما هرب - وجروحه تنزف من وجهه - وترك
ابنه - وهو مهجته الثانية - إلى الهلاك والموت . ثم ذكر أن كثرة أعداد
الروم لا معنى لها ، وربما كان الدمستق وهو كالفيل في الضخامة صالحاً لقدام
القيث وهو سيف الدولة ، وعن هذه المعاني قال أبو العليبد :

لعلك يوماً يا دمستق عهد . فكم هارب مما إليه ينول
نجوت بإحدى مهجتيك جريمة . وخلفت إحدى مهجتيك تسيل^(٢)
أنتسليم . للضامة ابنك هارباً . ويسكن في الدنيا إليك خليل^(٣)

(١) على الملائك : على كل حال

(٢) المهجة : الروح

(٣) أسلحة : خذله ، الخطية : الرناح

أغرسكم طول الجيوش وعرضها على شروب للجيش أكلوا
إذا لم تكن قايث إلا فريسة غذاءه ، ولم ينفك أنك فيل^(١)
واكتفى من هذه القصيدة بما ذكرته من أبياتها على أن في الشرح والتحليل
صايفي ، وإن كنت أفضل أن يرجع إليها القارئ في الديوان ليستمتع بها وهي
تامة غير منقوضة .

كان العرب قد أقاموا مدينة الحدث في أرض الروم سنة تسع وتسعين ومائة
من الهجرة ، واتخذوا منها قلعة يحمون بها ثورهم وأطراف دولتهم في أقصى
الشام ، وقد بنيت في أول الأمر بالطوب اللبن ، فهدم سورها .. وأعاد الرشيد
حمارتها ، ودفن عنها الروم ، وأسكنها الجند^(٢) .

تقع مدينة الحدث ، وهي قلعة حصينة بين مملطية وشمشاط ومرعش في بلاد
الأناضول ، ومكانها الآن في تركيا ، ويقال لها الحراء لأن تربتها جليما حراء ،
وقلعتها على جبل يقال له الأحيدب^(٣) ، ويقال : إنها وصفت بالحراء لسكثرة
حار أريق هليها من دماء الروم البيزنطيين ، وعلى أرضها دارت معارك كثيرة
بين الروم والعرب ، ولما كانت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة التقى الجيشان الرومي
والعربي على هذا الحصن ، وانتصر الروم في هذه الموقعة ، واستولوا عليها ،
وهدموا قلعتها ، وقد أبقى سيف الدولة إلا أن يبعد هذا البناء ويستولى على هذه
القلعة ، وأخذ يعد للأمر عدته بجمع الأموال وتجهيز الجيش ، واختيار الوقت

(١) غذاءه : صار له غذاء

(٢) مسجم البلدان ج ٢ ص ٢٨٨

(٣) للرجع السابق ج ٢ ص ٢٨٨

الذى يبدأ فيه تحركه ، ونهياً لذلك بعد أن فرغ من ثورة السكلايين في الشتاء من سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وخروج في جيش قوامه خمسة آلاف مقاتل بين فارس وراجل ، وفيهم خمسمائة فارس من أخلص الرجال سيف الدولة ، واستشر الروم خماراً محققاً في ذلك البناء إذ كانت هذه القلعة أحد الأبواب المهمة إلى بلادهم ، فجمع بروزوس فوكاس والذي يسمى بالدمستق جيشاً ضخماً من الروم والروس والبلغار والخزر وغيرهم ، وعدده رجاله خمسون ألف مقاتل وهو عدو كبير بالنسبة للجيش العربي ، وتحرك هذا الجيش ليبتلع سيف الدولة من الوصول إلى الحصن والاستيلاء عليه . ولكن سيف الدولة كان قد سبقهم إليه ، ونزل به في يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادى الآخرة في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة ، ثم بدأ الأمير الجنداني من يومة ، فوضع الأساس ، وحفر أوله بيده مع البنائين ، واستقرت جيوشه في هذا الحصن ، فلما كان يوم الجمعة التقى الجيشان وتضمنع العرب شيئاً ، وكادوا ينهزمون لولا أن الأمير ومعه خالصاً مضوا يشقون الصفوف حتى وصلوا إلى مكان الدمستق ، فانهزم الروم هزيمة نكراء وقتل منهم ثلاثة آلاف ، وأسبر أضعاف ذلك ، ثم حرب الدمستق بعد أن قتل ابنه وصهره ، ولم يقوأت الهنادون من البناء في يوم الجمعة الذي دارت فيه رحمة الحرب . وبقي الليل في أرض الحدث حتى اكتمل البناء في يوم الثلاثاء . تاسع رجب من السنة نفسها ، وأقام سيف الدولة في ذلك اليوم حفلاً مبهجاً تخليداً لهذا الانتصار العظيم . وفي هذا الحفل أنشد أبو الطيب قصيدته (المهمة) وأولها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعد هذه القصيدة من أعظم قصائد الحماسة في الشعر العربي فقد كان الشاعر ساخرًا لهذه الموقعة ، وشهد بمنه انتصار العرب وهزيمة الروم ، وتأييد استيلاء

سيف الدولة عليها ، وقد أبرز الشاعر حماسه ، وحماسة جنوده الذين قاتلوا معه أعظم قتال ، ووصف أبو الطيب أرض المعركة التي تطلعت بدماء الأعداء ، ووصف جيش الروم ، وحول المعركة ، وأشاد بانتصار العرب إلى غير ذلك من الأوصاف والمضامين الحماسية .

وبعد هذه الموقعة بميام شنت سرية من جيش الروم غارة على هذا الحصن ، فتصدى لها العرب . ووافعوا عن الحدث وانسحبت السرية في خوف عظيم ، فقال المعني قصيدة أخرى جاء فيها :

لا ألومُ « ابن لاون » ملك الروم وإن كان ما عصىني محالا
وميمية الحدث هي القصيدة الثالثة التي أعرض لها من بين أربع عشرة قصيدة حماسية في وصف وقائع سيف الدولة مع الروم ، وهذه القصيدة شهيرة كبيرة لما فيها من خصائص فنية متميزة وإيقاع موسيقي رنان ويبدو أن ما سبقها من أحداث قد أسهم في بناء هذه الشهرة ، ناهيك عما يذله الأبطال العرب لاستكمال بناء التلمة . وما أغرى الدارسين بهذه القصيدة أنها من أنفها إلى فاتها في الحماسة والحرب ، وقد استجاب التنقيح للأحداث ، وتفاعل معها ، ووفق في وصفها والتعبير عنها . والذي أذكر أن يكون أبو الطيب قد قال شعراً خالصاً للحرب يكتفيه أن يقرأ هذه الميمية فلربما أعاد النظر في مقولته ، وأرجو ألا ينكر القارئ على إجماعي بهذه القصيدة مستغفلاً التكرار في هذا الإحجاب من قصيدة لأخرى فنحن مع المعني لا نخاف إلا ما يروق ويمسح .

ولقد بدأ أبو الطيب القصيدة بالحكمة ، ولكنه كان يعني سيف الدولة ، ويسمى إلى وصفه بالشجاعة والحماسة والبطولة . والحكمة لا تصدر إلا من حكيم مجرب ، وقد كانت تجارب أبي الطيب فهم الحياة كثيرة ، وهو هنا أمام انتصار عظيم لقائد عظيم براه أهلاً لما يوصف به ، فنبات الحكمة بالبيتين الأول والثاني

من القصيدة في إيجاز وتركيز، ووضوح وتصريح. فالعزائم والمهم تأتي على قدر أصحاب العزم وتأتي للكريم أيضا على قدر أصحابها، ومن كان كريم النفس كان عطاؤه من المكرمات عظيما، فأعمال الله تتناسب مع طاقته واستعداده، إذ أن الرجال قوالب الأحوال، ولهذا كان صغير الهمة يستعظم الأمور الصغيرة، وكبير الهمة يستصغر الأمور العظيمة أي إن همة سيف الدولة كبيرة وعزيمته جبارة كان ما حققه من نصر بعد ضئيل بالنسبة لقدراته وعزيمته، ولما كانت همة بهذه الطاقة فهو يكلف جيشه بالقيام بأعمال عظيمة تتناسب مع هذه الهمة لكنها صعبة جدا إذ تميز عنها الجيوش الكبيرة، فكيف بجيش صغير المدد كجيش، ويطلب من الناس أن يكونوا مثله في الشجاعة والإقدام، واسكن ذلك صعب التحقيق حتى على الأسود. قال :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم^(١)
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم^(٢)
يكلف سيف الدولة الجيش همه وقد هجرت عنه الجيوش الخضارم^(٣)
ويطلب عند الناس ما عند نفسه وذلك مالا تدعيه الغرائم^(٤)

ثم عمد أبو الطيب إلى وصف أرض المعركة، وبدأ ذلك بالتساؤل : هل تعرف هذه القلعة لو أنها ؟ كان اللون أحمر لكثرة الدم الذي أريق عليها

- (١) العزم : الثبات والجد، العزائم : جمع عزيمة وهي ما يترجم عليه من الأوامر، الكرام : جمع مكرمة وهي فعل المكرم
- (٢) الصغير في « صغارها » العزائم وللكرام
- (٣) يكلف : يطلب أمرا عظاما، همه : « الله » ما هممت به من أمر لشدة
- (٤) الخضارم : جمع خضرم وهو الكثير العظيم من كل شيء
- (٤) الغرائم : الأسود والفرد خرمهم أو خرمهم

تصنع أرضها ، وهل كانت تعلم أى الساقين لها؟ أهو النعام أم جاجم الأعداء ؟
فلقت أجرت عليها الجاجم من الدماء مثلما أجرت عليها النعام من الطر . وأقام
سيف الدولة بناءها في وقت المعركة (والقنا تفرع القنا) ومن حوله المنايا تتلاطم
تلاطم الأمواج ، فيجعل المنايا بحرا تتلاطم أمواجه . وكان بالحدث شيء يشبه
الجنون لكثرة الإضطرابات فيها نتيجة لانجلاء الروم إليها بالحاربة والتقال
لصرف الناس عن دينهم ، وإذا بسيف الدولة يدافع عنها ، ويبعد الأعداء
الذين كانت جثثهم كأنها نعام وتعاوذب تمنع عنها شر القنعة وهوس الجنون ،
ثم يقول: كيف يؤمل الروم والروس هدم هذه القلعة وهي مؤسسة على طمئنة قديم
وقته لهم . وهذا الطمئنة كآته أسس ودعائم لما تتقوى بها مثلما يتقوى بالأسس
والدعائم أى بناء .

وجعل الشاعر الأعداء والقلعة يتحسا كأن إلى المنايا ، وقد حكمت بينهما ،
فأبقت المظلوم وهو النعمة : وأختطفت الظالم وهو الروم فلنقرأ هذه الأبيات :
هل الحدث الجراء تعرف لونها وتعلم أى الساقين النعام (١)
سقتها النعام الغر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجاجم (٢)
بناها فأهل والقنا تفرع القنا وموج المنايا حولها تتلاطم (٣)
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القنلى عليها نعام (٤)

(١) وصف الحدث الجراء لأنها أجرت بدناء الروم . أو أنها قامت على نل

يسمى الأحمر

(٢) امر : جمع أمر وغراء بمعنى بيضاء

(٣) المنايا : جمع منية وهي الموت .

(٤) النعام : جمع نعمة وهي المودة يتولون بها من الجين ، ومثل : اسم كان

وهو عوض عن موصوف محذوف تقديره وكان بها هيء مثل الجنون

وكيف تَرَجَّى الرومُ والرومُ هدمها ودا الطعنُ أساسُ لها ودعائمُ^(١)
وقد حاكوها وللغاة حواكمُ فامات مفلوهمٌ ولا عاش ظالمٌ

ولعل القارئ يلاحظ ما في الآيات من خيال رائع ومبالغة فطرية ، وروى
بدائية ، وقوة في الصياغة ، وجهازة في الألفاظ ، فجاء وصف القلة بديما
وانما .

ثم يصف المتنبي جيش الروم لبيان قوته وضخامته وحسن استعداده ، فيقول
لسيف الدولة : لقد أتاك الأعداء مدججين في مختلف الأسلحة ، ولكثرة ما على
الرجال والفرسان من أسلحة بدت الخيول أن ينظر إليها كأنها بلا قوائم ،
وإذا سطعت الشمس وانعكس ضوءها على أسلحة الروم لم يعرف ما الذي يبرق
فيهم أسيوفهم أم دروعهم أم خوذهم ؟ فهم غارقون في الحديد للبراق ، ويذكر
أن هذا الجيش ضخم جدا يكاد يملأ الأرض كثرة ، وتصل ضخامته إلى عنان
السماء ، فقد تجمعت فيه أجناس مختلفة لا تدر على التفاهم إلا بواسطة المترجمين ،
وكل هذا تأكيد على عظم الجيش ، وبيان لكثرة المقاتلين فيه ، والشاعر يقصد
بذلك الإشادة بسيف الدولة ، والتأكيد على مقدرته الحربية إذ استطاع بجيشه
القليل المدد أن يهزم كل هذه الجيوش المجهزة . قال :

أتوكلُ بمحرون الحديد كأنهم سَرَوْا بجواهر ما لهنَّ قوائمُ
إذا برزوا لم تُعَرَفِ البيوضُ منهم ثيابهم من مثلها والعمائمُ^(٢)

(١) أساس : جمع أس ، والأس هو أصل البناء ، الدعائم : جمع دعامة وهي عماد
البيت .

(٢) البرق : اللعان ، البيض : السيوف ، ثيابهم : دروعهم ، والمراد بالعمائم :
الحوذ والمناظر

خمس بشرق الأرض والنوب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم^(١)
تجمع فيه كل لسن وأمة فسا نفهم الحداث إلا القراجم^(٢)

وعهد الشاعر في هذه الومعة بتصوير جو المركة وأحداثها فوق أرض الحداث
الجراء لإبراز حساسة سيف الدولة ورجاله ، ونسج من مقدرة المتنبي على هذا
الوصف بهذه التفاصيل ! وقد ذكر أن المركة رهيبة جدا ، وأن نيرانها
قد أذهبت ما كان معها منشوشا ، فلم يبق من السيوف إلا ما كان صارما ، ولم
يحصد من الرجال إلا من كان بطلا جريشا شجاعا ، وقال إن السيوف التي
لا تقطع تسكسرت وتحطمت ، وأن الرجال الذين لا يحسدون المناعة فروا
وهربوا .

فقف وقت ذوب النش ناره فلم يبق إلا صارم أو صارم^(٣)
تقطع ما لا يقطع الذرع والتمنا وفمر من الأبطال من لا يصارم

وفي وصف المتنبي للقتال أكد على حساسة سيف الدولة وشجاعته وعلم
خوفه حيث وقف في أرض المركة معرضا نفسه للهلاك إذ أن ثمنه بالنصر
جملته يندى الموت كأنه محفوظ في حصن الردى وكان الردى ذلك السكائن الحى
للشخص ناعما فنقل عن سيف الدولة ولم يهصره ، ولم يسكن الأبر في هذه

- (١) الخمس : الجيش العظيم . وسمى بذلك لأن له مينة وميسرة ، وقلبا
وجناحين . الجوزاء : نجمان مترضان في جوز السماء أى في وسطها . الزمازم :
الاصوات المتداخلة التي لا تبين .
(٢) لسن : لغة ، الحداث : جميع حداث بمعنى متحدث ، القراجم : جمع ترجيل .
(٣) النش : يريد به الضعفاء من الرجال ، الصارم : الميف القاطع . الضبارم :
الضديد القليظ . والمراد للشجاع الجرى .

المواقف المصيبة خائفاً ، أو مضطرباً ، بل كان سميحاً مستبشراً يمر به أبطال الأعداء ، وهم جرحى مهزومون ، وهو مشرق الوجه فيقدم النصر .

وقال إن بمدحهم قد أظهر الشجاعة والمقل مما جعل الناس يقولون عنه : إنه كوشف على الذئب ، وعرف بظفره فبدأ على هذه الصورة التي لا يكثر فيها لما حولة من أهوال ، فلقد شد على أعدائه شدة قوية ، وقبض عليهم قبضة رجل قوى على طائر ضعيف فإذا هو يلصق الجناحين بالقلب ، فاختل جيش العدو واضطربت صفوفه ، ثم ذكر أن الهجوم كان سريماً ، وأن النصر كان خاطفاً ، لدرجة أن سيف الدولة بدأ يضرب رموس الأعداء ، ولم يبلغ في ضربه الدور حتى تحقق النصر .

وَقَفَّتْ وَمَا فِي اللَّوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ ذَائِمٌ
تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَغَلَى هَزِيمَةٍ وَوَجْهَكَ وَضَّاحٌ وَتَفْرُكٌ بِاسِمٍ^(١)
تَجَاوَزَتْ مَقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّهَى إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمٌ^(٢)
صَمَمَتْ جَفَائِحُهُمْ عَلَى التَّلَاسُفِ ضَمَةً تَمُوتُ الْخَوَافُ نَحْتَهَا وَالْقَوَادِمُ^(٣)
بِضَرْبِ أَيْ الْهَامَاتِ وَالنَّصَرِ غَائِبٌ وَصَارَ إِلَى الْآبَاتِ وَالذَّصْرِ قَادِمٌ^(٤)
وفي حديثه من السلاح المستخدم في هذه الموقعة ذكر أن سيف الدولة كان يلجأ بالسيف مفضلاً لها على الرماح ، فالسيف سلاح الشجعان الذين يلتصقون ،

- (١) كلٌّ : جريئة والمفرد كليم بمعنى جريح ، هزيمة : منهزمة . وضاح : مشرق
(٢) الذئب : جمع ذئبة وهي العقول والقطايع
(٣) الجناحان : مينة الجيش وميسرة لشبيها بجناحي الطائر . والقلب : وسط
الجيش ، والقوادم : الرضى في مقدم جناحي الطائر ، والخواف : ماتحت القوادم ،
وهي تختبئ إذا ضم الطائر جناحيه .
(٤) الهامات : الرموس ، الآيات : المنحور والفردلية .

ويضربون من قوب ، والرمح سلاح الجبناء الذين يقاتلون من بعد ، ولهذا كان
السيف يشتم الرمح ويتعالى عليه ، ولا عجب في ذلك لأن السيوف الصوارم
مفتاح القصر العظيم لكل فتح جليل . وأراد أن يستكمل جو السرور والفرح
في هذا الموقف الصارم بعد أن قال :

ووجهك وضاحٌ ومنركٌ باسمُ

فيجعل جيش الأعداء تنتثر فوق جبل الأحيدب كما تنثر الدراهم فوق العروس ،
وكانت خيول العرب تلاحقهم وهم أحياء فتقتلهم في وكور التصور ، وتدوس
عليهم ، وتجعل منهم طعاماً للتصور الجائمة ، وقد ظنت فرائخ الدقبان عقد صعود
سيف الدولة بجيلة الشديدة الصلبة أن هذه الخيول أمهات لما لأنها زودتها
بالطاعم من جيش التتلي . وتحدث عن مهارة التاجل في صعود الجبال ، فمقدما
تزلق أقدامها في الصخرة تزحف على بطونها مثل الحيات . وهذه الحروب
ليست بين ملك الروم وملك العرب وإنما هي حرب بين الإسلام والشرك قال :

حَقَرَتِ الرُّدَّيْنِياتِ حتى طرحتها وَحَقَّى كَأَنَّ السَّيْفَ لِلرَّمْحِ شَايِمٌ^(١)
ومن طلب الفتح الجليل فإنما مَفَانِيحُهُ الْبَيْضُ الْخَفَافُ الصَّوَارِمُ^(٢)
نَثَرَتْهُمُ فوقَ الأحيدبِ كُلِّهِ كَمَا نَثَرَتْ فوقَ العروسِ الدَّرَاهِمُ^(٣)
تدوسُ بكِ التَّاجِلُ الْوُكُورَ على الذرى وَقَدْ نَثَرَتْ حَوْلَ الْوُكُورِ الْمَطَائِمُ^(٤)

(١) الردينيات : الرماح نسبة إلى امرأة من النجاة تسمى ردينة كانت هي وزوجها
يعملان الرماح .

(٢) البيض : السيوف ، الخفاف : الخفاف ، الصوارم : القواطع .

(٣) نثرتهم : فرقهم ، الأحيدب : جبل الحدث .

(٤) الوكور : جمع وكر وهو عش الطائر ، الذرى : أعلى الجبال والمفرد ذروة
يكسر الدال وضمها .

تظن فراخُ الفتح أنك زُرْتها بأمانها وهي المتاع الصلادم^(١)
إذا زَلَقَتْ مَشِيَّتْها يبطونها كما تمشي في الصمد الأراقم^(٢)
ولست ملجأ هازماً لنقايرها ولكذك التوحيد للشرك هازم

وهذه القصيدة - كغيرها من الصيغيات الحماسية - تفيض بالشجاعة والقوة
وتعتمد على الواقع والخيال معا ، وتبرز سيف الدولة بطلا عربيا ومقاتلا حربيا
مؤثرا إسلاميا . وتصف انهول وأدوات الحرب ، وتصور انهزام الروم
وتقهقهم بين شعاب الجبال تاركين وراءهم قتلاهم وأسراهم رسايلهم ،
والقصيدة أنشودة من أناشيد الحروب ، وملحمة من ملاحم العرب ، وعروس
الشعر في موقعة الحدث ، ورائحة من روائح المعنى ، وما أكثر الملاحم
والعرائس والروائح في أيام الاسلام الخالدة .

تختتم هذه القصائد المختارة من حماسيات المعنى لإبراز شجاعة سيف الدولة
في حروب الروم بالميمية التي يتول في أولها :

عَقَى البين على عقي الوغى نَدَمٌ ماذا يزيدك في إقدامك القَسَمُ^(٣)
وهذه القصيدة - ومما أخرى سنشير إليها - تصف عدة أعمال حربية وقعت
في أرض الروم ، وكان آخرها مادار في الدرب ، وقد انتصر سيف الدولة
في هذه المارك انتصارا حاسما ، وبعدة أقل نجمة ، وغابت كواكبها ، وبمدها

- (١) الفتح : جمع فتخاء ، وهي ألقى القيان ، الأمات ، الأمهات ، النفاق :
سكرام الخيل الصلادم : جمع صلدم وهي الفرس الشديدة الصلبة .
(٢) الصمد : وجه الأرض ، الأراقم : الحيات فيها سواد وبياض .
(٣) القى : القابة ، الوغى : الحرب .

أيضا ترك المعنى حلب ، وانفصل عن أميرها - بعد إنشاد اللبيرة - لأسباب سبق الحديث عنها .

وتبدأ أولى مراحل هذه الحروب عند ما علم سيف الدولة أن الروم قد هوى بالفاوة على آمد^(١) وهي بلد قديم بالقرب من نهر دجلة ، فنهض إليهم في الرابع عشر من المحرم سنة خمس وأربعين وثلاثمائة من المعجزة ، ومرت طريقه على الرقة^(٢) وحران وسروج ، ودخل في أرض الروم ، وفتح حصن الران وهو في نواحي أرمينية وفتح سمين^(٣) وعبر بحيرتها ، ثم انتقل إلى الشمال الشرقي من هنزيط^(٤) ثم أرسل من يعرف له أخبار الروم عند نهر أرسناس ، وكانوا قد عادوا إلى هذا النهر فارين من جيوش العرب فتبعهم سيف الدولة وعبر الفهر إلى أن التقى بهم في تل البطريق وهم بقيادة « يوحنا ترميسيس » وانتصر عليهم انقصارا عظيما ، وأحرق أرباضهم في هذه القنور ، ودمر حصونهم وقلاعهم ، وعاد فمير الفهر وقد أحسن تأديبهم .

وعلم سيف الدولة أن البطريق شامشيق قد أقسم عند ملك الروم على الانتقام من سيف الدولة في الدرب ، وطلب منه أن ينجده بمدد من قادة الجيش والمسمين بالبطريق ، وبمدد كبير من المقاتلين ، وبمدد كثيرة من الأسلحة ، واستجاب ملك الروم لما طلبه هذا البطريق ، ثم سار إليه سيف الدولة ، والتقى

(١) يناسب إليها الحسن بن بشر الأمدى الناقد القديم والمؤلف المبدع ، وصاحب الموازنة بين أبي تمام والبحتري .

(٢) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات وبينها وبين حران ثلاثة أيام وهي ممدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي ممجج البلدان ج ٣ ص ٥٩ .

(٣) سمين : من قنور الروم .

(٤) هنزيط : من قنور الرومية أيضا .

الجيشان عند الدرب في الحادي عشر من صفر من السنة المذكورة ، وكتب النصر فيها للعرب ، ومزم الروم هزيمة كبيرة إذ أسر منهم سبعة آلاف وقتل عدة آلاف أخرى ، وعاد أمير العرب بجيشه إلى « آمد » ظافرا مقتصرا ، وأنشده المتنبي القصيدة الأولى عن هذه الحروب وفيها يقول :

الرائى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى اللؤلؤ الثاقب
فإذا ما اجتمعا لنفس مرمية بانث من العالما كل مكان^(١)
قاد الجياد إلى الطمان ولم يقد إلا إلى العسادات والأوطان
في جعلل ستر البيوت شباروه فكأما يبوسرن بالأذان
يرى بها للبلد البعيد مظان كل البعيد له قريب دان
فكان أرنجلها بترية منبج بطرخن أيديتها بحصن الران^(٢)
حتى عزن بأرسناس سواجا ينشرن فيه عائم الغرسان
فوارس يجهي الحياض نفوسها فكأنها ليست من الحيوان
ومهدب أمر النابا فيوم فاطعته في طاعة الرحمن^(٣)

ولما عاد سيف الدولة إلى حلب ، وأعيد حديث هذه المعارك — وبخاصة ما وقع في الدرب — في مجلسه ، وما كان من قسم البطريق ، وخيبة ظنه ، وضياح أمه تذكروا كل ذلك في مجلس سيف الدولة ، فأنشدا المتنبي القصيدة الثانية له .

- (١) المرة : يكسر الميم . القوة والشدة ، والمراد : الإباء وعزة النفس .
(٢) منبج : بلد بالشام ، وحصن الران : من بلاد قروم أى كان الخيول تنال قروم بخطرة واحدة .
(٣) أى أن طاعة النابا له طاعة لله سبحانه وتعالى ، لأنه جهاد في سبيل الله .

عن هذه المارك وهي آخر ما أنشده بحلب كما يقول الديوان^(١) ، وهي التي
سُعرض لها .

ولم يشهد المتنبي بعد أن فارق حلب الانكسار الأكبر لسيف الدولة
في معركة (مشارة السكحل) : « التي سحق فيها نيسيفور فوكاس الجيش
الحداني ، وكعب على سيف الدولة التمر الأخير ، وأزول النجم الحداني من سماء
حلب إذ فتحت أمام جيوش الروم أبواب حلب فدخلوها وأحرقوها ، وجن
فيها جيوشهم في الذهب والذهب والقتل والاستعباد »^(٢) .

وفي هذه المعركة أسر أبو المصائر ، وأبو فراس ابن عم سيف الدولة ،
وكان المتنبي بعيدا عنه في العراق أو في الطريق إليها فإرا من وجه كشافور
الأسود في مصر ، وعلم الشاعر أن أميرة التقديم قد أصيب بانتكاسات كثيرة ،
ومنها وفاة أخته (خولة) وقد خلا شعر المتنبي من الحديث عن هذه المعركة ،
ولأن كان في شعره ما يؤكد استمرار الاتصال بينهما ، ولتعد إلى الميمية
بعد هذا التقديم .

يستعين أبو الطيب بمنطق الحكمة فيستخر من بطريق الروم الذي أقسم على
عقبى الحرب ، لأن النهاية غير معلومة ، وسوف يندم على هذا القسم الذي لا يفيد
في التقدم وإحراز النصر ، وما دام هذا البطريق قد حالف على ما وعد به نفسه
فهو غير صادق في وعده ، لأن الصادق لا يحتاج إلى قسم . وقد كان هذا

(١) الديوان ج ٤ ص ١٢٩ .

(٢) شعر الحرب لوكي الحاسبي ص ٢٩٤ .

الحلف نكبة على ابن شمشيق^(١) فغث في بجمته، ونسي كلامه ووعدته لشدة ضرب سيف الدولة له، فأمر حاسب يفعل ما يريد به ويشتميه، ولا يحتاج للحاف مثل بطريق الروم، لثقتة بنفسه، وأفعاله حاضرة لا يحتاج للقسم عليها، ويذكر أبو الطيب في مطلع القصيدة أيضا أن كل السيوف تضجر وتكل إذا كثر استخدامها في القتال إلا هذا السيف ويقصد (سيف الدولة) ذلك البطل الذي يسر إلى الأعداء بنفسه وبهمة عالية عندما تميز الخيول عن حله قال:

عَفَى الجَمِينُ عَلَى عَثَى الوَغَى نَدَمٌ ماذا يَزِيدُكَ في إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ^(٢)
وَفِي الْيَمِينِ عَلَى مَا أَنْتَ وَاعِدُهُ ما دَلَّ أُنْكَ في المِيعَادِ مِنْهُمْ
أَلَى الْغَى ابْنُ شَمَشِيقٍ فَأَحْنَتْهُ فَنَى مِنَ الْغَرْبِ نَمَى عَقْدَةُ السَّكَمِ^(٣)
وَقَالَ مَا اشْتَعَى يَنْتَهِي عَنْ حَلَبٍ عَلَى الْإِمَالِ حُضُورُ الْقَتْلِ وَالْكَرَمِ
كُلُّ السِّيفِ إِذَا طَالَ الضَّرَابُ بِهَا بِمَشْأَى غَيْرِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ السَّامِ^(٤)
لَوْ كَلَّتِ الْخَيْلُ حَتَّى لَا تَحْمِلَهُ تَحْمِلُهُ إِلَى أَعْدَائِهِ الْمَيِّمِ

ثم يواصل الشاعر في سخريته من بطريق الروم الذين حلفوا برأس مذكهم أنهم سوف يظفرون بسيف الدولة، ويتصهرون عليه، واسكن سهوفه كذبت قولهم نيا أدموه من صبر على القتال، وجعل المقهى بقدرته الشرية وبخيا له الرائع السيوف ألسنة، وجعل رموس الأعداء أفواها لها، وكانت السيوف تتحرك في رموسهم تحرك اللسان في النهم:

- (١) يصغر شمشيق إلى شمشيق، وقد حقق د. زكي الحفاسي هذا الاسم الذي جاء في الديوان «شمشيق» مستمينا بما جاء عن مؤرخي الثرب الذين كتبوا عن الحروب العربية البيزنطية والبطريق هو ابن جان تزييس.
- (٢) البقي: الماقبة، الوغى: الحرب.
- (٣) آلى: حلف.
- (٤) الضراب: المضاربة، السام: اللل والضجر.

أَيْنَ الْبَطَارِقُ وَالْمَلُتُ الَّذِي خَلَقُوا
بِمَقَرَّتِي الْكَفَرِ وَالزَّهْمِ الَّذِي زَهَمُوا^(١)
وَلِي صَوَارِمَهُ لِكُذَابِ قَوْلِهِمْ
نَهْنُ السَّنَةِ أَفْوَاهُهَا التَّيَمُّ^(٢)

وبعد أن سخر للقبى من هذا الخلف الباطل مدوها بتدرات سيف الدولة
رمؤ كذا على حاشته التي لا تحتاج منه إلى قسم انتقل إلى المعركة من مطاردة
الجيش العربي لجيش الروم من بلد إلى بلد حتى تعمق سيف الدولة في أرضهم
من غير أن يعوقه عنهم جبل أو بحر أو نهر ، وأخذت الخيل تسرع في ركعها
حتى وصلت إلى نهر أرسناس .

وقد وصل الجيش إلى سروج مع الصباح الباكر ، وانشرق أنفها في حركة
دائمة أثارت الغبار الذي غطى حران وما حولها من الأرض وحجب ضوء
الشمس وجعل الجيش كالسحاب طولا وكثرة ، وما يسقط من هذا السحاب
على أرض الروم يكون نقما عليهم .

ويذكر أن الخيول الضوامر قد خرجت في الجمر القانظ وأحمت الشمس
الليجم فترك آثار كي على أنفها ، وعندما وردت بحيرة سمين شربت بلجمها ،
وكانت أفواهها تنفث بالماء من شدة الحر ، ثم أخذت تجول بقرى هنزيط ،
والديوف ترعى في رؤوس الأعداء ، إلى أن هربوا في الجحور كالفئران أو
طاروا إلى أعلى الجبال كالبازي قال :
فَلَمْ تَقِيمَ سَرُوجَ فَنَجَّ نَاطِرَهَا إِلَّا وَجَيْشَكَ فِي جَنْبِهِ مُزْدَجِمٌ^(٣)

(١) البطارق : جمع : بطريق وهو كل قائد عظيم من قواد الروم .

(٢) الصوارم : السيوف ، القدم : جمع : قدم وهي الفرس .

(٣) سروج : بلد قرب حران .

والفقع يأخذ حراناً ويقتتها . والشمس تسفر أحياناً وتلعثم^(١)
 شخب نمر يحضن الزان عسكة . وما بها البخل لولا أنها تقم
 وشرب أحت الشفوى شكائهما . ووسمنها على آناها الحكم
 حتى ورفن بسمنين بجهتها . تانيش الماء في أشدائها الأجم^(٢)
 وأصبحت بقوى هنزيط جائلة . ترمي الظبي في خصب نبعه الهم^(٣)
 فما تركن بها خلدأ له بصرو . تحت التراب ولا بازأ له قدم^(٤)

والجوانب الحاسوة الجديدة في هذه القصيدة تتمثل في الطاردة التي يتمقب
 فيها سيف الدولة الجيش الرومي أينما كان وحيثما حل في شدة وحركة
 صريمة ، وأملنا نلاحظ أسماء البلدان والقرى والجهال والأنهار والقلاع والطرق
 التي ذكرها أبو الطيب مما يؤكد أن الطاردة لم تقتصر على موضع واحد وقد
 ساعد بحر البسيط بتفاعيله ووجداته اللوسوتية في أسككال وإبراز هذه المشاهد
 المختلفة .

ونأى إلى الخيل التي طارد بها سيف الدولة الأعداء ، لم يصده عنهم بحر
 أوجيل وقد عبر الجيش على الخيول وهي تضرب بصدورها مياه نهر أرسناس
 وغرقها رجال لا يخافون الموت ، ولوت يحفل منها وهي لا تجمل منه ، وكان

- (١) البقعة : يفتح لواء وضوا السكان الواسع من الأرض ، تدار : تكشف
 عن وجهها .
- (٢) الشخب : صوت الماء إذا غلى .
- (٣) الظبي : جمع طية وهي حد السيف ، الهم : مفرد ما الامة وهي الشعر الذي
 يجاوز شعرة الأذن ، والظبي فاعل لترمي .
- (٤) الخلد : نوع من الثمران ليست له عيون .

سيف الدولة أول الخاضعين في أرسناس إلى تل البطريق حيث تحول الأعداء إلى رمم باليه ، وتحولت مساكنهم وأرباضهم إلى رقاد وحجم ، وجعل الشاعر السيوف في أيدي العرب فإرا كأنهم كانوا يهدونها مثلما كانت النار تمهد في أهل الجيوس ، وصور ما انتهى إليه حال تل البطريق ، فيعمل مصور الرجال إلى النار ومصير النساء والأطفال إلى سيف الدولة . لنقرأ ما قاله للتعبى عن هذه الحاقى :

وَجَاوَزُوا أَرْضَنَا مُعْتَمِينَ ^(١)	وَكَيْفَ يَصِيبُهُمْ مَا لَيْسَ يَنْصَبُ ^(٢)
وَمَا يَصُدُّكَ عَنْ بَحْرِ لَهْمٍ سَمَّةٌ ^(٣)	وَمَا يَرُدُّكَ عَنْ طَوْفٍ لَهُمْ شَمَمٌ ^(٤)
ضَرْبَتُهُ بِصُدُورِ الْخَيْلِ حَامِلَةٌ ^(٥)	قَوْمًا إِذَا تَلَفُوا قَدْ مَاتَ قَدْ سَلِمُوا ^(٦)
تَجْفُلُ الْمَوْجُ عَنْ لِبَاسِ خِيَلِهِمْ ^(٧)	كَأَنَّ تَجْفُلُ نَحْتِ الْفَسَارَةِ الْقَتَمُ ^(٨)
عَبْرَتْ تَقْدِمُهُمْ فِيهِ ، وَفِي بِلَدٍ ^(٩)	سَكَانِهِ رِجَمٌ مَسْكُونُهَا رَجَمٌ ^(١٠)
وَفِي أَكْفِهِمْ الْفَسَارُ الَّتِي عُبِدَتْ ^(١١)	قَبْلَ الْجِيُوسِ إِلَى ذَا الْيَوْمِ تَضَعُ رِمَ ^(١٢)
فَقَاتَتْهَا تَلُّ بِطَرِيقٍ فَكَانَ لَهَا	أَبْطَالُهَا وَلَكِ الْأَطْفَالُ وَالْحَرَمُ ^(١٣)

ماذا جرى للبحاريين في درب الروم ؟

عند ما التقى سيف الدولة بالأعداء في الدرب تمنوا أن يهزأوا ويتألفوا منه ،

- (١) أرسناس : نهر بالروم ، معتمدين : محتئين .
 (٢) الطود : الجبل .
 (٣) قدما : إنداما .
 (٤) لتجفل : الإسراع في الذهاب ، الأبات : جمع لبة وهي أهل الصدر ، فئارة : الخيل الفائرة على العدو ، التميم : المواشي .
 (٥) كرم : النظام قبالية ، الحميم : الرماد والحمم .
 (٦) وفي أكفهم أى أكف أصحاب سيف الدولة ، ولراد بالنار : السيوف .

ولسكنه أقدم توازنهم ، وجملهم كالمميان ، وقد صدمهم بجيشه الذي كان
كالفرس وسيف الدرة غرته ، والرماح للفرقة في أيدي رجاله كالشعير للثقل
على الوجه ، وبقيت الأجساد وفرت منها أرواحهم في مدة وجيزة ، وملأت
الطبول الطرق وراء الروم ، وكانت السيوف تملأ وجوههم طوال اليوم ،
أما الجنود فلا يضرهم ضربة إلا قطعوا بها رأساً فلا ينجب لهم ضرب ، ومن
هذا كان التوافق بين الضربات يحدث توافقاً في اصطدام الرؤوس التي تطلع
بها السيوف . ثم يضربون من ابن شمشوق الذي ترك بجيشه وأثنى من الحرب ،
وهرب منها وطرحها خلفه ، وكانت بجيشه تبسم وتسخر منه ، ويعمل من
من أنفاسه أشياء محسوسة بحسنة فجعله لا يطلع في أنفاس بعيدة ، وإنما يكتفي
باغتنام أنفاس قريبة مرسلة من أيدي الأجل . ولم يصد إمام الخطر الداهم ،
وغاب واختفى بين الأدغال ، ولو تكشف من تحت الأشجار لاجتمعت عليه
الطير ، ولانتمت جسمه وأزالته من الأرض وأخفته من الوجود .
قال :

وقد تخنوا غداة الدرب في لجب
أن يهبروك فلما أبصروك نحواً^(١)
صدمتهم بحميس أنت غمروته
وسميرته في وجهه غم^(٢)
فكان أثبت ما فيهم جشومهم^(٣)
بسةطان حولك والأرواح تنهم

(١) اللجب : الصياح .

(٢) فترة : البياض في جبهة الفرس ، السهوية : الرماح ، قنم : كثرة الفرس
وإسبلة على الوجه .

والأعوجية ميله الطريق خلفهم
والشرقية ميله اليوم فوقهم^(١)
إذا توافقت الغربات صاعدة
توافقت كمال في الجو تصطبم^(٢)
واسلم بن شبيب اليته^(٣)
ألا انشئ فهو يقاى وهي تبسم^(٤)
لا يأمل النفس الأقمى لمهجه
فيشرق النفس الأدنى ويتنم
فلا سقى النيث ما واره من شجر
لوزل عنه لو ارت شخصه الرخم^(٥)

وهكذا رسم الشاعر الروم بموسم لا يفتى مع الزمان ، ولا يبلى مع الحداث ،
وسجل في هذه القصيدة الرائعة عدة أحداث حربية ، وتابع الجيش العربي
في تفرقاته بأرض الروم لمطاردة الأعداء ، ونقل مآذرى معركة القرب من
أحداث ، ورسم بهذا الشعر العظيم لوحة ناطقة ومعمرة من حاسة سيف الدولة
الحذاني .

ولقد وفق أبو الطيب في اختراع الصور وابتداع الأختلة وابتكار المعاني
عند ما كان يصف الجيش العربي وهو يقفز بالخيول من بلد إلى آخر ، ثم

(١) الأعوجية : الخيول المنحوية إلى أعوج وهو فرس كريم كان لبق هلال .

(٢) كمال : الرؤوس .

(٣) أسلم : ترك ، أليته : يمينه ، ينأى : يبعد .

(٤) الرخم : جمع رخمة وهو طائر أبيض يشبه النسر في الحلقة .

ما هذه القدرة القوية في تجميع الأحداث ونقل جغرافية أرض الروم إلى شعر العرب بهذه الصورة ؟

وإذا كان الشعر ليس مصدرا للتاريخ ولا يصح الاكتفاء به في نقل الأحداث تحسبا لخيال الشعراء ، ولجنوحهم كثيرا إلى المبالغات التي يلتوى معها الحقائق فإن ما ورد في حروب أبي الطيب له قيمة كبيرة فإن لم يكن في نقل الحقائق وقد كان الشاعر شاهدا عليها ففي استكمالها والإضافة إليها على أقل تقدير ، وبكل هذه الاعتبارات وغيرها تأكدت أهمية ما قاله المتنبي في حروب سيف الدولة مع الروم في القرن الرابع الهجري .

ثانيا : معارك سيف الدولة مع القبائل العربية :

يحتوي ديوان المتنبي على خمس قصائد يصف فيها اضطراب البادية على سيف الدولة ، وأولى هذه القصائد قد قالها أبو الطيب في مدح سيف الدولة لإيقاعه بعمرو بن حابس وفي ضبة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ولم ينشده إلاها ، ومطلعها :

ذكرُ الصبا ومرائع الأرام جللت حامي قبل وقت حامي^(١)
وأما القصائد الأربع الأخرى فقد أنشدها أبو الطيب في مجاس سيف الدولة في المدة التي قضاها معه بحلب وهي موضع حديثنا ، والقصيدة الأولى منها عن حزب سيف الدولة للقرامطة ، الذين أغاروا على حصن في بادية السماوة ، وأخذوا عامل سيف الدولة عليها ، فقال المتنبي « اللامية » ومطلعها :

إلام طماعية العازل ولا رأى في الحب للعازل^(٢)

(١) ذكر : جمع ذكرى ، ومرائع : جمع مرتع وهو الموضع الذي يرتع فيه الدواب ويريد ديار الأحياء ، والأرام : القطيعة والمراد : النساء .
(٢) إلام : إلى ماء طماعية : مصدر بمعنى قطع ، العازل : اللاتم .

ثم قال قصيدتين في هجوم قبائل قيس على ملك سيف الدولة وردة لها ،
وتفكيكه بها ، ومطلع الأولى :

تذكرت ما بين المذئب وبارق سحر عوالها وتجرى السوابق^(١)
ومطلع الثانية :

قلوا قنّا تطلعها قيسار وقطارك في ندى ووغي بحار^(٢)
والقصيدة الأخيرة في ثورة بني كلاب ببادية السماوة سنة ثلاث وأربعين
وثلاثمائة ، وأولها :

بفسرك راعياً عيث الذئاب وغيرك صارماً تلم العراب
وبصرف النظر عن القصيدة التي قالها المنتهي قبل أن يصل إلى حلب ، فإن
القصائد الأربع للذكورة تؤكد أن الحياة الداخلية في مملكة سيف الدولة
لم تكن هادئة ، وأن حروبه مع الروم لم تصرف جيرانه العرب عن مفاوئهم ،
وربما كان البعض من أهل البادية والحاضرة على السواء من انتقد مشاعره
الإسلامية الخالصة فنسى أو تناسى أن الأمير الحمداني يقاتل تحت راية الإسلام ،
ويدافع عن أرض العرب في الجزيرة والشام ، يقول الدكتور طه حسين :
« فقد كان من هؤلاء الملوك من لا يكره أن يمين الروم على خصمه سرّاً
أو جهراً برغم أنه كخصمه مسلم ، وأن الروم عدوله ، ولهذا انغمس . وكان من
هؤلاء الملوك من لا يكره أن يمين القرامطة على خصمه سرّاً أو جهراً برغم

(١) المذئب وبارق : موشعان ، وقوالى : الرماح ، والسوابق : الخيل .

(٢) قلنا : الرماح ، لندى : الجود ، الوغي : الحرب .

أنه متفق مع خصمه في بعض النظام الترمطى والفساد الترمطى في السياسة والدين جوهراً^(١).

ثورة بني كلاب :

خرج أبو الطيب إلى بلاد كلاب في بادية السماوة بالشام ، ولم يكن حرماً قد زاد على عشرين سنة ، فأقام بينهم مدة لأنهم كانوا وكراً من أوكر الافة وحصناً من حصون الصاد ، فقتل منهم ، واستفاد بمخاطبتهم ، وأخذ ينشد الشعر في باديهم ، وقد وجد في رجالهم مثل سعيد بن عبد الله السكلافي ميلاً إليه ، وإعجاباً بشعره ، واقتناعاً بفكره ، وكانوا يرجون أن ينصبوا المقتنى أميراً عليهم بعد أن أشعل نار الثورة فيهم ضد الأعاجم الذين بنوا وظفروا وسلبوا سلطات الحكم من حكام بغداد ، وكأنه كان يستنهض بني كلاب للقيام بثورة عنيفة تحقيقاً لقوله :

وإنما الناس بالملوك وما يُفْلَحُ عُزْبٌ ملوكها عَجَمٌ
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ولا عهدٌ لهم ولا ذِمٌّ

ووصل خبر المقتنى إلى أبي إزائز وإلى حمص من قبل الأخشيدي فقبض عليه بعد صراع عنيف مع بني كلاب ، وذلك لأنهم كانوا يريدون أن ينصبوه أميراً عليهم ، ودخل أبو الطيب السجن في حمص سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . ثم أفرج عنه الوالي في العام التالي ، كما أوضحنا في حديثنا عن حياة المقتنى . فلم تكن بادية الشام وما يحرق فيها غريباً عليه أو جديداً على فكره الثوري . ثم تُشرع الأيام في خطوها ، ويصل بسيف الدولة ، وتتوثق الصلة بين

(١) مع المقتنى ص ٢١٦ دار المارف .

قلبهم ، إلى أن تجدد الثورة في بني كلاب ضد سيف الدولة ، إذ كانت هذه
البادية تحت لوائه ، ويحدثون حدثاً بناحية (بالس)^(١) ، نفوج إليهم في جمادى
الآخرة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة قبل ذهابه لبناء الحدث ، وقد حلوا
بمسيرة إليهم ، فارتحلوا عن أمكنتهم ، فسار خلفهم ، وأدركهم بجيشه بعد ليلة
وأوقع بهم ، وملك حربهم ، وأبقى ما بين حتى انتهى من قتالهم وانتصر
عليهم فردد إلى طاعته ، وشملهم جميعاً بفضوه .

وعندما عاد إلى حلب ، وقيل أن يتركها في هذه الآونة للخروج إلى قلعة
الحدث الجرام أنشده المعنى بأبيته الحاسية في انتصاره على بني كلاب وعفوه
عنهم ، وأولها :

بشرك راعياً تمث الذئاب وغيزك صارماً تليم الضراب^(٢)

والمطلع بدوى حاسى ، وفيه سرعة في الوزن العروضى ، ورشاقة في الألفاظ
من حيث السهولة والجزالة وعمق وبراعة في المعنى ، وقد جعل المعنى سيف الدولة
راعيًا ، وبني كلاب ذئابًا ، فإذا كان هو الراعى لم تمت الذئاب به ، وإذا
كان هو السيف لم يئله الضرب .

ثم يقول :

طلبتهم على الأمواه حتى تخوف أن تقش السحاب
فبت ليالها لا نوم فيها نخب بك السومة العراب^(٣)

(١) بلد بالشام بين حلب والفرقة - راجع معجم البلدان ج ٩ ص ٣٢٨ .

(٢) صارماً : سيفاً فاعطى ، الضراب : المضاربة .

(٣) نخب للفرس : أسرع .

يَهْرُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيهِ كَمَا نَقَضَتْ جَنَاحِيهَا السُّقَابُ (١)
تَوَسَّلْ عَنْهُمْ الْفُلُوتِ حَتَّى أَجَابَكَ بِمَضْمَأَوْهُمْ الْجَوَابُ (٢)
تَكْفُكُفَتْ عَنْهُمْ صَمَّ الْعَوَالِي وَقَدْ شَرَقَتْ بِظُلْمَتِهِمُ الشَّمَابُ (٣)
وَأَسْتَقِطَتِ الْأَجِيَّةُ فِي الْوَلَايَا وَأُجْهِضَتِ الْجَوَائِلُ وَالسُّقَابُ (٤)

ثُمَّ يَسْتَمِطُّهَا قَالًا :
تَرَفَّقْ أَبِهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الرِّقَّ بِالْجَانِي عَتَابُ
وَأَنَّهُمْ عَيْدُكَ حَيْثُ كَانُوا إِذَا تَدْعُو لِحَادِثَةٍ أَجَابُوا
وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمْ وَلَيْسُوا بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطَاوُهَا فَتَابُوا
وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ وَهَجَرُ حَيَاتِهِمْ أَنَّهُمْ عَقَابُ
وَمَا جَهَلْتَ أَيْدِيكَ الْهَوَادِي وَلَيْكِنْ رُبَّمَا خَفِيَ الصَّوَابُ (٥)
وَجَرَمٌ جَرَهُ سَفَاهُ قَوْمٍ وَحِلْ يَذِيرُ جَارِمَهُ التَّمَذَابُ (٦)

صاغ المتن هذه البصيدة من بحر الزاهر ، وهو من البحور السهلة السريعة التي تؤخذ بالسرعة وتلائم المذمور ، ولا تسمح بالتوقف ، فسيب الدولة ينطلق

- (١) السقَاب : طائر من الجوارح ، قوى الخالب .
- (٢) الفلوات : الصعاري .
- (٣) تكفكفت : تكففت ، الصم : الصلاب ، العوالي : صدور الرماح ، شرقت : ضحت ، الظلمن : النساء جمع طينة ، الشاماب : جمع عيب وهو الطريق في الجبل أو بين جبلين .
- (٤) الولايَا : أعطية فوق ظهور الإبل « البرافع » الحوائل والسقَاب : الإناث والذكور من أولاد الإبل .
- (٥) أيديك : نملك .
- (٦) الجرم : القنب .

في سرعة يتعقب الخازجين عليه ، وينقش عليهم بين الأيماء حتى خاف السحابه
أن يصل إليه ، وينقش منهم لما فيه من مياه ، وهو يسرع إليهم في بقعة على
الطبول المسرعة ، وفي أثناء تعقبه لهم والجيش من حوله كالقالب يسأل عنهم
الصغارى ، وينقش عليهم في الفلوات حتى أدركهم في إحداها . وكان الظفر بهم
لإجابة له ، وعندما أمسك بهم منع رماحه عنهم ، وقد امتلأت بنسائهم الطرق
في الجبال ، ومن شدة الخوف أسقطت الأمهات أولادها على ظهور الإبل ،
كما أسقطت النوق هي الأخرى أولادها من الإناث والذكور أى امتد الخوف
والفرع من الإنسان إلى الحيوان .

وفي أبيات الاستعطاف يطلب أبو العلي من أميره أن يترفق بينى كلاب
نهم جناة والرفق بهم عقاب لهم ، وهم رجاله وقد ينقمونه في ساعة الشدائد
وهم مخطئون حقاً لكنهم ليسوا أول المخطئين الذين ندموا وتابوا ، ويجعل
المنفى سيف الدولة حياة لهم ، فإذا هجرهم فكان الحياة قد هجرتهم ، ويذكر
أن كرمه وحله يصلان لأهل البوادي والمواضر على السواء ، وله عليهم سابق
فضل ، ولكن ربما خفى عليهم ذلك فكان منهم ما كان . ثم يحاول أن يلتصق
المذنب لهم ، ويرفع الإساءة عنهم ، وينسبها لمن سوغها لهم .

وفي تعليق الدكتور طه حسين على هذه القصيدة يقول : « فهو يرضى حاجة
كلاب إلى العنو ، كما يرضى حاجتها إلى السكرامة ، وهو يرضى حاجة
حيث الدولة إلى الحلم كما يرضى حاجته إلى تصوير بأسه وشدته . . . »^(١)
ثم يقول : « وأنت تذكر أنه قد كان المنفى عهد بالسكلايين في صباه ،
فقد نزل بهم ، ومدح سيدهم من ساداتهم في منبج حين أقبل من العراق ، وشهد
مجالس لهمهم أيضاً ، وبرم به لجزى خيراً بخير ، وإحساناً بإحسان »^(٢) .

(١) مع المتن من ٢٢٠ .

(٢) المرجع نفسه من ٢٢١ .

ولا يخفى الفرق الكبير بين أجيال الحاسة في هذه البائية والقصاصد الحاسية التي أنشدها عن حرب سيف الدولة مع الروم .

واقدر بدأ المعنى هذه البائية بداية حاسية فلم يبدأها بالثناء ولكنه استفتحها بالحاسة التي تكاد تكون مصطفة ، لأن في كلاب على كل حال خصوم لسيف الدولة وليسوا بأعداء له كالروم ، والانتصار عليهم ، وإلحاق الهزيمة بهم ليس انتصاراً للإسلام ولا للمروية .

والشعر الحاسي في حرب الروم شعر مقوم مع ملتبس ، والقصيدة فيه من أولها إلى آخرها في الحرب والطمع والغضب باستثناء بعض القصائد التي بدأت بالنزل التقليدي أو بالحسكة في بيت أو بيتين ، وربما بدأها بداية حاسية قوية مؤخرًا جرعة الحسكة إلى آخر القصيدة ، أما قصائد حروب البادية فهي من النوع التقليدي ، ففيها بعض الملامح من البادية والحضر معا وهي من النوع الحاسي القناني من حيث الألفاظ والتراكيب والأوزان .

ذلك أن المعنى متمسك بالحرب كاره للمعجم ، فقد قال :

وإنما الناس بالملك وما تنلح حرب ملوكها معجم

ولهذا جاءت الألفاظ والتراكيب رقيقة ليقة مائة ناعمة ، وفي الأوزان

خفة ورشاقة على عكس ما رأينا في حروب الروم .

أما المعاني والصور والأخولة بما فيها من تشبيهات رائقة ، واستعارات جميلة ، ومبالغات وثابة فلا تخرج عن المنهج القناني الذي اتبعه المعنى في كل السينيات .

الفصل الثالث

خصائص الشعر الحماسي

في سيفيات المتنبي

تجلى موهبة المتنبي وقدرته في إبراز حماسة سيف الدولة في الشعر الحربي الخالص الذي قاله في وصف المدارك والحروب ، وقد عرضنا لبعض الأمثلة من خلال التمرين به أولاً ثم من خلال قصائد النازك والحروب ثانياً . وللمتنبي الكثير من الشعر الحماسي الذي يفرى بالحديث ، إذ أنه كان محباً للفروسية ، ووضع هذا الحب في مواقف عديدة من حياته ، وكان حب الفروسية يسرى في دمه ، ولهذا عاش قلقاً خائفاً ، وقد وجد في سيف الدولة الكرم والشجاعة ، والتأييد وحب الشعر ، ولهذا كان اتصال الشاعر بأميره من أهم العوامل التي ساعدت على رقي الفن الشعري عند أبي الطيب وبخاصة شعر الحماسة والحرب ، واكتسب سيف الدولة المجد والتخالد والتأريخ لحروبه التي انتصر فيها ، فشهد العصر العباسي الثاني وفي ظلال الدولة الحمدانية ازدهاراً للأدب ، ونموا الحركة الشعر ، ووصل فن الحماسة في عصر المتنبي إلى القمة وأخذ الناس يتابعون ما قيل في مجالس سيف الدولة بدارة (الحلبة) لأن هذه الأشعار تشكل أهمية كبيرة من نواح متعددة .

يقول الدكتور زكي المحاسني عن أهمية السيفيات : « وإن هذه القصائد فوق ما حوت من قيمة أدبية وسحر بيان وتحليق في فن العاني والأسلوب ، وسموف الصفة ، فإنها تجمع في أبياتها (قيمة لاريمية) و (جنرافية) غالبية القدر ،

وتعد (وثائق) في غاية الخطورة لكتابة التاريخ السياسي والتعريف الأدبي.
في عصر سيف الدولة» (١).

مطالع القصائد :

تختلف ابتداءات الصفحات تبعاً لحالة اللغز نفسه ، والطبيعة : نادرة من جهة
أخرى ، ومن المطالع الجيدة في شعر الحاسة قوله :
على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم

وقوله :

لكل امرئ من دهره ما تعودا
وعادة سيف الدولة العظمى في العدا

وقوله :

إذا كان مدح فالنسب المقدم
أكل فصيح قال شبرا مقيم

وقوله :

الرأي قبل شجاعة الشجيمان
فإذا ما اجتمعا لنفس مرقرة
بلنت من العلياء كل مكان

ومن مطالع الصفحات التي استتبعها الأديب والفقاد قوله :

وظا كالربيع أشجار طائفة
بأن تسعدا والدمع أشقاء ساجدة (٢)

(١) شعر الحرب ص ٢٧٤ .

(٢) سبق ذكره في التعريف بالنتي .

وقد كثر الحديث من هذا المطلع ، ولم يجد البرقوق (أحد شراح ديوان
المتنبي) وسيلة يتخلص بها من هذا التعميد والالتواء فمعد إلى كلام السابقيه
من تفسير هذا البيت ، ونقله عنهم إلى شرحه بالديوان ليؤكد اختلاف السابقيه
في فهم هذا المطلع وتوجيه معناه ، وانقرأ ما قاله الدكتور طه حسين عن هذا
المطلع : « . . . » . ولناحظ أن المعنى الذى قصد إليه متكلف في نفسه ، لم يصدر
من نفس سمعة مرسلة مع طبعها وإنما صدر من شاعر يريد أن يأتي بشئ جديد
لم يسموه الناس والمثقفون منهم خاصة أن يسموه .

يريد أن ينجأ سامعيه ، ويأتيهم بشئ لا عهد لهم به . ففى سمع الناس تشبيه
وفاء الأصدقاء بجمع الأحباء ؟ ، وأى علاقة بين هذين الطرفين من أطراف
التشبيه ؟ ، وإذن فهذا المعنى الغريب يحتاج إلى تعبير غريب » (١)

فالواضح أن المتنبي قد قصد هذا التعميد عن عمد ، وكان بسبيل عرض بضاعه
بأنطاكيا ، فأراد أن يكلف سامعيه جهدا ومشقة في فهم هذا المطلع ، حتى
يحكموا له ، ويشيدوا ببراعته !!

فطالع المتنبي ترتبط ارتباطا وثيقا بحالته النفسية ، فإذا كان طبعيا وغير
مهموم جاءت المطالع جيدة ، وقد يبدأ بالأنزل أو يتحدث عن الحروب في المطالع
أوق القصيدة نفسها بألفاظ التشبيب والنزل كقوله :

ليالى سبغت الطاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل
بين لى البدر الذى لا أريدُه ويخفين بدار ما إليه سبيل

(١) مع المتنبي ص ١٩ .

(٢) - شرح الحاشية -

فيكون قد قال هذه القصيدة - كما يذكر الديوان - في سنة اثنين وأربعين
وثلاثمائة عين معارك سيف الدولة في الثور .

ومن المطالع التي خلط فيها الحب بوصف الحروب والمنازع قوله :

أهل للمالك ما يفي على الأسل والطن عند محبين كالقيل^(١)

فاستخدم ألفاظ الغزل والنسب في أوصاف الحروب والمنازع ، وقد استطاع
المتنبي أن يلائم بين جو المعركة وما فيه من دماء وطمع وجو الفرح والبهجة
والأنس . وهذا راجع لحيه للحروب ، وعشقه لما يدور فيها ، وهيامه بأوصافها .

شجاعة سيف الدولة :

إن معظم ما قاله المتنبي من شعر الحرب في السيفيات إنما هو تصوير
شجاعة سيف الدولة ، وبسالته . فالعرب عادة من عاداته :

لسكل اسرى من دهره ما تودا

وعادة سيف الدولة الطمن في اللدا

والجيش يحتمس به على عكس غيره من الأمراء الذين يلجأون إلى الجيوش
للاحتماء بها :

بالجيش تمنع السادات كلهم

والجيش ما بن أي الهجاء بمنع

والغيا تأمر بأمره لأنه يقاقل تحت راية الدين ، ويتجاهد لنصرة الإسلام .

تقدو للبايا فلا تنفك واقفة

حتى يقول لها عودي ففندقع

(١) الأسل : الرماح ، وقد أُنشدت هذه السيفية سنة ٣٣٧ هـ .

وهو واقف ثابت ، لا يزول ، ولا يتحرك في وقت النصر أو في ساعة الهزيمة
والإنكسار .

وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
وقد حدثك في هول ثبت له
حتى بلوتك والأبطال تنصع
ولقد افتتن الناس بشجاعته حتى قال بعضهم إنه يعلم مسبقا نتائج حروبه
وقتاله مع الأعداء .

تجاوزت مقدار الشجاعة والفهم
إلى قول قوم أنت بالغيب أعلم
وهو يقا تل باسم الدين وبمآرب دعاة الشرك ، وخصوم الإسلام .
ولست ما لي كما عازمًا لنظيره ولشكك التوحيد للشرك عازم
ومهدب أمر النساء فيهم فاطمة في طاعة الرحمن
وهو يسير إلى الأعداء مدفوعا بهمة عالية وعزيمة جريئة .
لو كان الخليل حتى لا تحمله تحمته إلى أعدائه المهيم
ومن شجاعته وبسالته تسلم له دماء الأعداء ، وتقدم له الطاعة والولاء .
ألفت إليك دماء الرؤم طاعتها
فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم
وهذه أثلة تلوثة من شعر المغني في حاسة سيف الدولة ويطولعه .

وصف الجند وطريقة دخولهم المعركة:

أجاد المقتدى في وصف الجيوش وهي متحركة إلى أرض الأعداء قال :
صدمتهم بحميس أنت غرته وسمريته في وجهه غم
فكان أثبت ما فيهم جوشهم بسطن حولك والأرواح تنهمر
فالجيش يتحرك رائحة الرياح ، فإذا ما وصل إلى العدو انخلت أرواح
جفوده ، وبقيت الأجسام جثثا بلا حراك ، والصورة رائحة ومبتكرة .

ومخاطب سيف الدولة قائلا :

يهز الجيش حولك جأشيه كما تفقت جناحيها العقاب
وتسأل عنهم الفلوات حق أجابك بمضها وهم الجواب

وعندما تتحرك جيوشه وتتجه إلى أرض الروم ، ثم يفتاج قواد الأكاجم
بما أقبل عليهم يذمون حواسهم ، ويكذبون أعينهم ، إذ لم يكونوا متصورين
جيوش سيف الدولة بهذه الصورة .

ثم الذم من عنييه ، وقد طلعت سود الفمام فظنوا أنها قرع
فيها السكة التي منطوما رجل على الجياد التي حولها جنع
ويذكر أن الجياد تحمل الأبطال إلى الحروب ، وكسأتهم مقبلون على
أوطانهم فيثيرون بتحركهم النبار الذي يمنع الرؤية ، ويجعل الخيول ترمح
بأذيها ، قال :

قاد الجياد إلى الطمان ولم يقد إلا إلى المادات والأوطان
في جعل ستر المعيون غباره فكأما يبعثرن بالآذان

وجعل الجيش العربي يمرا من حديد عند ما يتحرك إلى أرض المارك وذلك
بكثرة من ليس الحديد فيه ، قال :

رميتهم ببصر من حديد له في البر خلقهم حباب^(١)
فشاغهم وبسطهم خربز وصيهم وبسطهم تراب

وصف الخيل :

لا تمكاد تحلو قصيدة حماسية لأبي الطيب من وصف الخيل ومتابعة تحركها
إلى الأعداء ومطاردتها لحيوشهم أو وهي تميز مياه الأنهار والبحيرات ، حاملة
الرجال بأسلحتهم ومعداتهم ، وقد تحدث الشعراء عن الخيل ، وهي تحملهم
في جهنم الخيل إلى ديار محروقاتهم أو المنازلة في أرض القتال ، ولكنهم لم يبلنوا
ما يبلنه أبو الطيب في وصف الخيل وصفا عاما أو وصفها وهي تأكل وتشرب
وتسرع إلى أرض الأعداء ، قال :

قاد المسايب أقمى شربها أهل
على الشكهم ، وأدى سيرها سرح

وقال عن سرعتها :

بذري القان غبارا في مناخرها وفي حناجرها من آس جرع
وقال :

فكان أرجلها بقرية متنجس يطرحن أيديها بحسن الران
حق عين بأرسناس سواجحا ينشرون فيه عائم الفرسان
فوارس يحمي الحسام نفوسها فكانها ليست من الميوان
والغنى يضيق من رائق بيانه ، وجمال تصويره ما يكسب هذه المأى بهاء
وروقا .

(١) العباب : معظم الماء ، وكثرته .

وفي الجملة التي قالها المتنبي في موقعه الذي نراه يتحدث عن الخيل في أبيات كثيرة متتالية فيصف خروجها وهي «سريعة إلى الأعداء في الجوانب» ثم وهي تدير بحيرة سميذيين، وتجر بقرى حنظل إلى أن تصل إلى نهر أرسفاس فتعبره في سرعة فائقة إلى الأعداء قال :

وَيُزَيَّبُ أَحْتِ الشَّعْرَى شَكَاكُمَا وَوَسْمَتَهَا عَلَى آثَانِهَا الْحَكَمُ
حَقٌّ يَرْدَنُ بِضَمْنَيْنِ بِحِيرَتِهَا تَنْشُ الْمَاءَ فِي أَشْدَاقِهَا الْقَيْمِ
فَمَا تَرَكْنَ بِهَا خُلْدًا لَهُ يَبْصَرُ تَحْتَ التُّرَابِ وَلَا بَارَأَ لَهُ قَدَمُ
ويذكر الخيل وهي تسرع إلى الأعداء فتطرحهم بالحديد وتظلمهم بالصفوف
قال :

رعى الدرب الجرد الجهاد إلى العدا
وما علوا أن السهام خيول^(١)
شوائل تشوال المقارب بالقوسا
لها مَرَجٌ من تحفه وصهيل^(٢)
وخول برأها الركض في كل بلدة
إذا عرست فيها فليس تقول^(٣)
فما شعروا حتى رأوها مُنِيرَةً
قياحاً ، وأما خلفها ضجيل^(٤)

- (١) الجرد : الخيل القصيرة عمر الجرد ، وهو آية كرمها .
(٢) حالت المقرب ذنبها : رملته وهو يقير إلى سرعة جرياتها ، ورملتها لأذنانها
كالمقارب في نشاط ومرح .
(٣) الخيل دائمة السير لا لتريح ولا تقيل
(٤) قيحا بمعنى مستقيمة .

شعائب يطرون الحديد عليهم فكل مكان بالسيوف غسيل^(١)
وهذا قليل من كثير أجاد أبو الطيب فيه وصف الخيل لما لها من
أهمية في إحراز النصر وتحقيق الظفر وسرعة الوصول إلى أرض المعارك
أو التفرق منها .

وصف أدوات الحرب :

اهتم المتنبي بالأسلحة التي يستخدمها الجيش في قتاله مع الأعداء فأشاد
بكثرتها، وتحدث عن أنواعها حديث المارف لها البصير بأماكن صناعها،
قال يصف السيوف وهي أهم الأسلحة التي كان الأقدمون يستخدمونها
في العروب :

والشرقية لا زالت مشرفة دواء كل كرم أومى الوجع
وقال في (مهمية الحدث) :

ومن طلب الفتح الجليل فإنما
مفاتيحه البيض الخفاف الصوامع

وقال في (مهمية الدرب) :

كل السيوف إذا طال الضراب بها
يسبها غير سيف الدولة السام
ولي صوارمه إكذاب قولهم
فهن السكة أفواظها القمم

(١) غسيل : بمعنى مقبول .

والأسلحة متنوعة في جيش سيف الدولة ومنها الزماح التي تفرع بعضها
في موقعة الحدث قال :

بهاها ناعلى والنفا تفرع القنا وموج المايا حوفا مغلطم
وليست الدبرة بالسلاح ، إياها بمن يحمله ويقايل به .
إن السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات الخلب السبع
وصف الحروب :

أبداع أبو الطيب في هذا الفن الشمري مصورا جيش الأعداء ، وهو متجه
في كثرة كثرة إلى أرض القتال قال :

أتوك يجرؤن الحديد كأنهم سروا بجوار ملحن قوائم
إذا برقوا لم تعرف الهض منهم ثيابهم من مثلها والنائم
خيس بشرق الأرض والترب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل إشنر وأمة فاتفهم الحداث إلا التراجم

ويصف الحرب وما يجري فيها من تلاحم للجند ، وقاتل بالسيوف ، ومبارزة
من فوق الخيول ، ويصف مقاومة الأعداء ، ويتحدث عن المزيعة ، وقد لحقت
بهم ، ويصور أرض المعركة ، واللدة التي استغرقها ويصف وقوع الأعداء
في الأسر ، ويعتقن أبو الطيب في تصوير رسول الروم وهو قادم لطلب الهدنة ،
والقيادة ، ويعين عليه لفتيقه كم سيف الدولة وهو واقف بين صفتين من السكاة قال :

وقيل كما قيل الترتب قبله وكل كي واقف معضائل
ومما قاله عن التصام الجنود في أثناء القتال :

ضمت جناحهم على القلب ضبة تموت الخوافي والقوايم

بَعْدَ رَبِّ أُنَى الْمَامَاتِ وَالنَّصْرَ غَاثِبٍ وَصَارَ إِلَى الْفَيْتَاتِ وَالنَّصْرَ قَادِمٌ
حَقَرَتْ الرَّدْبِيَّاتِ حَتَّى طَرَحَتْهَا وَحَقَّى كَأَنَّ السَّيْفَ لِلرَّمَحِ شَاتِمٌ
نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَادِ كُلَّهُ كَمَا نَثَرْتُ فَوْقَ الْمَرُوسِ الْفَرَامِ

ولقد بلغ التغايب حد الزوطة فيما قدمه في سهفاته من حماسة سيف الدولة ،
ومن تصوير معاركه ، وإبراز شجاعة رجاله ، ووصف الخيول للسرعة إلى
أرض الأعداء وهي تسبح وتخوض بين البحار والأنهار .

وتد عرض أبو الطيب لهذا الشعر الحماسي من خلال فن المدح الذي طوره
وأجاد فيه حتى جعل من بعض قصائده تصويراً كاملاً لما يجري على ساحة
القتال .

ففي بعض قصائد المدح يعرض لحماسة أميره ، ويتحدث عن بعض خصاله التي
لا تتصل بالحرب وما يجري فيها اتصالاً مباشراً ، ومن هذه القصائد التالية
المعروفة التي تبدأ بقوله :

لِسُكُلِ أَسْمَى مِنْ دَهْرٍ مَا تَمُودَا

وعادة سيف الدولة العظمى في العدا

ووصفه بالشدة في القتال ، وسرعة السير إلى الأعداء في الوقت الذي حرب فيه
عدوه (الدمستقي) وترك ابنه وجيشه للإقامة الموت . قال :

سَرِيتُ إِلَى جَيْعَانَ ، مِنْ أَرْضِ آمِدٍ

ثَلَاثًا ، أَقْدَ أَدْنَاكَ رُكُضًا وَأَيْمَدًا

فَوَيْلٌ " وَأَعْطَاكَ ابْنَهُ وَجِيوشَهُ

جَمِيعًا ، وَلَمْ يَمُطِّرِ الْجَمِيعَ لِيُحْتَمَدَا

ووصفه في القصيدة نفسها بالذكاء والقوة والرجية ، قال :
هو البحر غص فيه إذا كان ساكناً
على قدر ، وأحذره إذا كان مزبداً
وقال :

ولسكن تنوق الناس رأياً وحكمة
كما فقتهم حالا ونفساً ونجداً

وله قصائد في مدحهم ، ولكنها خالصة تماماً لأحدث عن حاسنة ووصف
حروبه ، وقد عرضت لهذا الآن من خلال ميمية الحدث التي تبدأ بقوله :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم

فإذا بحثنا عن الحاسة عند المتنبي وجدناها في القصائد الحاسية الخالصة
لوصف الحرب ، وفي قصائد المدح التي وصف فيها سيف الدولة بالشفاعة
والقوة وأبرز جنوده وهم يضرهون ويطمعون جيوش الأعداء في المسماع
والوقائع . وبهذا يتضح أن المقصود بشعر الحاشية عند المتنبي هو لشعر الحرفي
الذي عمد فيه إلى وصف الممارك ، ومتابعة الخيول في أفزها وتجربها ، وعليها
الأبطال البواسل ، ومهمم الأمير في يسألته وشجاعته إلى غير ذلك من المعاني
التي سبق الحديث عنها في القصائد الخالصة . ولو أطل أبو الطيب نفسه في القصائد
المدح كروية وغيرها وبلغ بكل منها مائة بيت أو أكثر ، واقتزع من نتائج الغزل وختام
للحكمة مما كان يستعملها في القليل من سويناته الحاسية . لو أنجبه هذه الوجهة
لسكان شعره الحاسي ملحماً خالصاً ، مع أن معظم الخصاص الفنية للشعر
اللاحق قد تضارفت في هذه القصائد إلا أن الشاعر قد اكتفى بقرائه العربي ،

وتأثر بشعر البطولة من نتائج الجاهلدين والخواارج ، ونماه بوصول به إلى أرق أطواره ، ومع ذلك فلامتضى في سيفياته تواجد خاص ، وضحج يفرد به ، وسامت وملامح لا تتوفر فيه .

وقد ساعد على ذلك أن المتنبي نفسه كان فارسا ، مشاركاً في أحوال الحروب ومعارنا للجنود في ساحة القتال ، بل لقد عرف بالفروسة في أحلك ساعات حياته ، فقد تعرض للقتل ، وأوشك دمه أن يهدر في أرض حلب على يد غلمان أبي المثنى ، ولكن الرجل نجح في الدفاع عن نفسه ، ثم استقبل الموت في (دير الماقول) عندما هجم عليه النصوص ، ولم يبق هذه المرة ، ولم يستسلم حتى قتل ، ولأبي الطيب شعر كثير يشهد فيه بشجاعته وبسالقه وحبه للفروسة .

والشعر الحاسي عند المتنبي كثير متنوع ، ولذلك استعوز على إعجاب السكثريين ، وحرصوا على قراءته ، ودراسته منذ أكثر من ألف عام ، وكأنه كان يستطلع الغيب ويقرأ مستقبل الأيام عندما قال :

وما الدهرُ إلا من رواقٍ قصائدي
إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنشدًا

وفي السيفيات الحاسية كثير من مميزات الشعر القصصي فهو يصف الوقائع ويسرد الأحداث ، ويصل إلى الالتقاء بالمبارزة ، ويصور تلاحم الجيول حتى تنتهي المعركة فتحدث عن القتل والأسرى ، ويقعّب الفارين ، ويشيد بالمتفكرين مع الحرص الشديد على جمال التعبير وروعة الأسلوب ، ومن المعاني الأخاذة قوله لسيف الدولة :

نهبت من الأمار ما لو حوزته لفتت الدنيا بآنك خالد

فالمنى فشم ودقيق وعظيم ومبتكر ، وربما وصل المعنى ببعض المعاني إلى
حد النور والإسراف حتى المهاللة كقوله :

تظل ملوك الأرض خاشعة له تفارقه حلكى وتلقاه سبيدا
وقد اعتمد على خياله الوغاب ، وعاطفته الصادقة الدميقة ، وقدرة على التمايل
والتناويل فيما جاء به من مبالغات .

وكذلك كان يستعين فى هذا الشعر الحادى بالحكم والأمثال كقوله :
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
وقوله :

الراى قبل شجاعة الشجيمان هو أول ، وهى الحل الثانى
وقوله :

عقبي البين على عقبي الوهمى ندم

« ومهما يكن من شىء فقد كثرت الحكمة فى شعر المعنى كثرة لم تمهد
لشاعر قبله حتى عدوا صاحب مذهبها لم يسبق إليه ، وكان منها ما هو أثر ثقافته
الفلسفية ، ومنها ما كان أثرًا لحياته وتجاربه ، وتطراته فى المجتمع ، وما يجرى
فيه من أحداث »^(١) .

وإذا كان أبو الطيب قد أحسن ، وأجاد فى معانيه فبجاءت حميقة ومبتكرة
فإنه قد اختار الأسلوب الذى يلائم هذا الشعر الحادى ، ففى أسلوبه قوة وجرأة
لم نعدنا لشاعر مثله ، وألفاظه عظيمة : الإيقاع شديدة الخارج لئلا تمزج القنا
بوعطن السيوف وركض الخيل .

(١) الشعر فى ظل سيف الدولة لمرزوق الجندى ص ٢٩٤ .

فجزالة الأسلوب تبرز عند التفتي في هذا الشعر الجاسي الذي نمرض له من غير تكلف ولا تصنع ، ومن غير سيطرة بديعية تفسد المعنى ، إلا ما جاء عفواً طبيعياً مناسباً .

فاللماي واثمة ، والتصوير بارع ، والوصف دقيق ، والشعر قوى ومطبوع والشاعر متمصب لمروبه ، ومحب لأبيه ، والأنماط قوية وغير معسكفة وخالية تماماً من كل صنعة مجوجة والماعطفة صادقة وعميقة والخيال وثاب ، والموسيقى ملائمة ومميرة .

ونخلص من ذلك أن التفتي رائد في فن الجاسية ، وهو أمير لشعراء الحرب في عصره ، ولا نبالغ إذا قلنا في كل المصور الأدبية حتى الآن .

ومن هذه القافية لأشعاره الجاسية نراه لم ينقل شيئاً يتصل بالحرب إلا ذكره حسب أهميته مع روعة التصوير وجودة اللماي وصدق الماعطفة .

لقد أحب سيف الدولة ، وغنى له ، وأشاد بانتصاراته في هذه السهقات القوية كانت ولا زالت غرة ومنازة على جبين الشعر العربي في عصوره الزاهرة .

الفصل الرابع

الحياة في شعر أبي فراس الحمداني

نبذة عن حياة أبي فراس :

ولد أبو فراس الخارث بن سعيد بن حمدان بالموصل سنة عشرين وثلاثمائة من الهجرة ، وبعد ثلاث سنوات من ولادته قتل والده أبو العلاء سعيد بن حمدان على يد غلمان لابن أخيه (ناصر الدولة) للخلاف بينهما حول تولي إمارة الموصل من قبل الخليفة العباسي «الراضي» .

وانتقل نشأ أبو فراس في كنف أخيه الحسين بن هبةج وهي إحدى مدن الشام ، وكان الحسين حاضرا مقتل أبيه بالموصل ، وحزن عليه حزنا شديدا ، وعاد إلى أمه «سبحونة»^(١) ليخبرها بما حدث لأبيه عند موته ، وقد اشتد حزنها على الأخرى لفقد زوجها وتزملها ، وعندما أفاقت من أحزانها أحقت بولدها أبي فراس ، واعتقت بتربيته ، وتنقيفه ، ووزعت وقته بين تعلم الفروسية ، ودراسة الأدب .

كان سيف الدولة يحب أبا فراس ، ويعطف عليه لشجاعته ، وكرم أخلاقه ، ولما انتقل إلى حلب سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وقد أقبل على مرحلة الشباب عتده الولاية على منبهج وحران ، وكان أبو فراس يشهد الحروب وهو في هذه السن ، ويسجل أحداثها في شعره ، وأصبح قائدا من قوادين حمة سيف الدولة .

(١) ذكر الأستاذ زكي المحاسني نقلا عن المؤرخ «شلمبرجة» أن اسمها «صبيجة» وهي في الأصل أمة من سبيل الروم ، وقد تزوجها ، سعيد بن حمدان وأنجب منها أبا فراس وغيره . راجع شعر الحرب ص ٣٤٦ .

ومع تقدم السن بأى فراش واشترائه فى الحروب ، والقهامه ببيعوش
الأعداء اضطر للوقوف فى الأسر مرتين الأولى . وكانت فى سنة ثمان وأربعين
وثلاثمائة عند ما عزم سيف الدولة على ضرب الروم فى بلادهم ، وكان أبو فراس
قائدا لقسم الأعظم من الجيش ، فوقع فى الأسر بعد أن نصب له الروم كميناً
بمعاونة أحد الخونة فى جيش سيف الدولة ، وحبسوه فى حصن خرشنة^(١) وهرب
من الأسر بعد أن طرح نفسه من فوق قلعة خرشنة فى نهر «آلس» وتزوج
محبوبته (نحلاء الخالدية)^(٢) وأنجب ابنته (فوزا) .

أما المرة الثانية التى أسر فيها فسكانت سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة
عندما زحف الزعيم إلى مملكة الحذانيين ، واحتلوها عن آخرها ، وكان أبو فراس
يدافع عن منبج ومعه سيمون فارساً وجرح فى فخذيه ، واستسلم للأعداء ، فنقلوه
أسيراً إلى خرشنة ، يقال :

إن زوت خرشنة أسيراً فلقد حلت بها أميرا

ثم مضوا به إلى القسطنطينية ، وقضى فيها أربع سنوات ، ونظم فى أسره
مجموعة من القصائد والنقاويع الشعرية امتازت بالركة والحسين إلى الوطن
والفخر بالآباء وعرفت باسم « الروميات » .

وقد اختلف للورخون فى سبب إبطاء سيف الدولة ، وتراخيه فى مقاداة
أبى فراس ، وإطلاق سراحه . والحقيقة أن خزانة سيف الدولة كانت خاوية ،
فقد نهبا البيزنطيون بقيادة قائدهم « نيسيفور فوكاس » ولم يرد سيف الدولة

(١) خرشنة : إقليم يقع فى الغرب إلى القسطنطينية .

(٢) أخت أبى عثمان وأبى بكر الخالديين الذين ألما معا كتاباً فى الحماة ، وكانا
من أدباء البلاط عند سيف الدولة ، ويشرفان على خزائن الكتب فى قصره .

مفاداته دون الثلاثة آلاف الذين كانوا معه في الأسر ، ومنهم أبو العشار
الجداني الذي أسر في موقعة (تل البطريق) ومات في الأسر سجيناً وابن أخيه
سيف الدولة محمد بن ناصر الدولة ، وغورهم كثير من الأسرة الجدانية .

وقد نكح أسر أبي فراس ومن كانوا معه^(١) بما أبهظ ابن عمه سيف الدولة ،
ولما عاد من الأسر سقة خمس وخمسين وثلاثمائة أقطعه سيف الدولة (حمص) بدلا
من منبج أو إضافة إليها ، وفي السنة التالية مات سيف الدولة على فراشه^(٢)
ودفن إلى جوار أمه في مدينة (ميفارقين) وأمسك ابنه أبو المعالي سعد الدولة
بزامان الحسكم بعد أبيه وكان صغيرا لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، فلم
يستطع التماس بالأعباء التي كانت منوطة بأبيه فاستعان بقرعويه غلام أبيه
وقائد جيوشه .

وأراد أبو المعالي أن يبسط نفوذه ، وأن يفرد سيطرته على الشام ، ففسكر
في استرداد حمص من خاله (أبي فراس) فأرسل جيشا لخاربه بقيادة قرعويه ،
والتقى الطرفان عند صدر على مقربة من حمص ، وهزم أبو فراس ، وتفوق
عنه من كانوا معه ، وسقط من على فرسه ، وفصلت رأسه عن جسده ، ودرى
في الزراب وهو ابن سبعة وثلاثين عاما « ففسر به الجندانيون وجلا من المع
رجالهم في القروسة والشمر »^(٣) .

(١) ذكر أن ندائه قد تم على يد زوجته « نجلاء » في الوقت الذي نكح فيه
أسر الآخرين .

(٢) وأوصى أن يوضع رأسه في قبرة على لينة كان جميعا من نفس خبار غزواته
« عن شمر الحرب ص ٣١٩ » .

(٣) مقدمة الديوان ص ٦ طبعة دار صادر بيروت .

ذكر ابن خالويه أن آخر شعر لأبي فراس قوله عند موته يرثى نفسه مخاطباً
إبنه :

أبني لا تنحزني كل الأنام إلى ذهاب
أبني صبراً جيم لا لاجل من المصاب
نوحى على بحسرة من خالف سترك والحجاب
قولي إذا ناديتني وعيت عن ردّ الجواب
زنى الشباب أبو فرا س لم يمتع بالشباب ١

ولقد شهد له أبو الطيب اللغوي بالتقدم والتبريز ، وكان يشاء ويتعاشاه ،
كما شهد له صاحب بن مباد وقال : « بدي الشعر بملك ، وختم بملك » ويعنى
بالأول امرئ القيس ، وبالثاني أبي فراس الجداني .

أبو فراس شاعر الحماسة والفخر

أبو فراس الجداني شاعر وجداني ، عاش حياته غريباً ، وتغنى فيها بالآلام ،
وبكى على حاضره ؛ وشعره ترجمة لحياته التي تلعبها في بيتين من الشعر ،
وهما :

جمعت سيوف الهند من كل بلدة وأعددت للميجاه كل مجالد
وأكثرت للفتارات يني وبينهم بنات البسكريات حول المزود^(١)
وهو يعرف مالبني قومه من حقوق فيفتخر بهم قائلا :

(١) بنات البسكريات: أراد بها الصيول، وأمل هذه السكامة مندوبة إلى البسكرة،
وهي ناحية من نجد والمزود : جمع مزود بالكسر وهو ما يجعل فيه الراد ، وأراد
الغلف .

لئن خُلِقَ الأنَامُ لِحُسُو كَأْسٍ وَمِزْمَارٍ وَمُطَبُّورٍ وَغُودٍ
فَلَمْ يُخْلَقْ بِنُو خِذَانٍ إِلَّا لِحَسْرِ أَوْ لِهَاسٍ أَوْ لِحُودٍ

وكان ينشع لآل البيت ، وله فيهم ثلاث قصائد من أروع شعره ، قال
في إحداها :

يا للرجال ! أما لله مُنْقَصِفٌ من الطَّنَاقِ ؟ أما للدين منتقمٌ ؟
بنو عليّ زعابك في ديارهم وَالْأَمْرُ تَمْلِيكَهُ النِّسْوَانُ وَالْغَدَمُ

ويغاز شعره بصدق الاحساس ، وتصوير الواقع ، ومما ظم في شعر الحرب
والحناسة ، والشكوى والدألم ، والحنين .

كان أبو فراس يحب الفناء ، ويضطرب له ، فقد دعا سيف الدولة لسمع غناء
أبي عبد الله للنجم ذات مرة وكان أحضره من أجله وأرسل إليه شعرا يدهوه
فيه ، فاعتذر إليه سيف الدولة ، وأجاب به هذه الكلمات : « أنا مشغول بقرع
الخوافر عن الزاهر » فرد عليه أبو فراس قائلا :

محلّك الجوزاء ، بل أرفعُ وَمَذْرُوكُ الدهناء ، بل أوسعُ !
وقلّبك الرحبُ الذي لم يزل للحنّ والمزل ، به موضعُ
رَقَّةٍ بقرع العود سمعاً ، غدا قرعُ الموالى جلّ ما يسمعُ
وقال عندما سمع حمامة وهو في أسره تنوح بقرعها على شجرة عالية قال :

أقول ، وقد ناحت بقرع حمامة :

أيا جارتنا هل تشعّرين بحالي ؟
مماذ الهوى ! ما دقت طارقة النوى
ولا خطّرت منك المصوم يبالى

أَتَعْرِينُ حَزُونََ الْفَوَادِ قَوَادِمَ
 عَلَى مَحْضِنٍ نَائِيٍّ لِّلْسَاقَةِ عَالِيٍّ
 أَيَا جَارَتَا ، مَا أَنْصَفَ الدَّهْرَ بَيْنَنَا !
 تَمَسَّكْنِي أَفَافِيئُكَ الْهَيَّوْمَ تَعَالِي !
 تَمَانِي تَرَكْنِي رُوحًا لَدَى ضَمِيرَةٍ
 تَرَدَّدَتْ فِي جِسْمِي يُتَذَبُّ بِهَا !
 أَيْضُحُكَ مَاسُورٌ وَتَبْكِي طَلِيْقَةً
 وَبَسْتِكُنَّ حَزُونََ وَبَتَذَبُّ سَالِي ؟
 لَقَدْ كُنْتُ أَوَّلَى مَعَكَ بِالدَّمْعِ مُقَلَّةً
 وَلَكِنْ دَمَعِي فِي الْحَوَادِثِ غَالِي !

١ - حَاسَتُهُ فِي الْحُرُوبِ :

إن أ كثر شعر أبي فراس في الحروب والحاسة، وقسم كبير من شعره الحاسي يتوجه فيه بالحديث إلى نفسه كصيدته الشهيرة (الرائية) التي قالها في أسره عندما قال له الروم اعتددا عليه إنه لم يؤسر أحد فبقى عليه ثيابه وفرسه وسلاحه غيره فقال :

أَرَاكَ عَمَى الدَّمْعِ شَيْمُكَ الصَّبْرُ
 أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ

وفي هذه القصيدة يذوه بشجاعته من خلال قتاله في جيش سيف الهولة ، ويتحدث عن حاسته فيقول :

(١) الْفَوَادِمُ : عَمُرُ رِيَشَاتِ هِيَ كِبَارُ الرِّيشِ فِي جَنَاحِ الطَّائِرِ ، الْوَاحِدَةُ قَادِمَةٌ .

وَأَن تَزَالَ بِكُلِّ مَخْـوْفَةٍ
كَثِيرٌ إِلَى تَزَالِهَا النَّظَرُ الشَّرُّ^(١)
وَأَن لِّجَرَارِ اسْكُلْ كَتِيبَةٍ
مُعَوَّدَةٍ أَن لَا يُخِلَّ بِهَا النَّصْرُ^(٢)
نَاصِدِي إِلَى أَن تَرْتَوِي الْبَيْضَ وَالْقَنَا
وَأَسْنَبُ حَقِّي يَشْبَعُ الدُّثْبُ وَالنَّشْرُ^(٣)

فهو كثير النزول بأرض يخاف فيها لكثرة الأعداء بها ، وكثرة نظراتهم
البيضة ، وهو القائد الشجاع الذي خاض للمارك ، وقاد الكتائب ، وهو البطل
الذي لم يقد جيشا إلا كان له النصر والغلبة ، ويظل صديان حتى ترتوي
السيوف والرماح ، ويبقى جوعان حتى تشبع الدثاب والنسور من لحوم الأعداء .
ثم قال .

وَلَا أَصْبِحُ الْحَيُّ اتْلُوفُ بِفَارَةٍ
أَوْ الْجَيْشُ مَا لَمْ تَأْتِهِ قَبِيلِي الدُّرُ^(٤)
وَمَا رَبِّي دَارِ لَمْ تَحْفَظِي لِمَنْعَةٍ مَنِعَةٍ
طَلَمْتُ عَالِيَهَا بِالرَّدَى أَنَا وَالْفَجَرُ^(٥)

-
- (١) المَخْوْفَةُ : أي أرض يخاف فيها . الشَّرُّ : نظراته لإعراض .
(٢) يُخِلُّ بِهَا : يتركها .
(٣) الْبَيْضُ وَالْقَنَا : السيوف والرماح ، أَسْنَبُ : أجوع .
(٤) الْحَيُّ اتْلُوفُ : الثائب رجالة .
(٥) دَارِ مَنِعَةٍ : حصينة ، الرَّدَى : الهلاك .

وسى رددت الخيل حتى ملكته
 قزيعاً وردتني البراقع والخمر^(١)
 وساحبة الأذيال محوى كقيتها
 فلم يلقها جاني القمار ولا قمر
 وهيت لها ما حازه الجيش كله
 ورحت ولم يكشف لأبياتها حتر
 ولا راح يطنني بأقوابه النقي
 ولا بات يثني من الكرم الفقير
 وما حاجتي بالمال أبني وفوره
 إذا لم أفر عرشي فلا وفر الوفر

ففي هذه الأبيات يذكر أبو فراس أدبه في الحرب، وحاسته عند القتال
 فلا يشن الغارة على الأعداء مالم ينفذهم مسجاة، فلا يكون فيها تبييت وترصد،
 لكنه يثور ويهيج أمام الديار الحصيفة فيهاغتها بالهلاك مع الفجر، ويواصل
 اقتضاره بأدبه في الحروب فيذكر أنه يسقو على النقي، ولا يسي نساء،
 فلا يقبل الضيم، ولا يرضى أن تسقيت به امرأة دون أن يمتو ويصنع عن
 قومها، وإنه ليهب لها كل ما حازه الجيش من غير أن يفصح لأهلها بيتاً أو
 يكشف لها ستره، وهو لا يطنى بما عنده من مال، ولا يبخل عندما تقل الفقود
 من يده، فليس محتاجاً إلى المال بقدر حرصه على طهارة عرضه، ونظافة منيعه،
 ثم يذكر قصة أسره فيقول :

(١) وددت الخيل : رددت فرسان الخيل ، الخمر : الواحد خمار وهو مائلته
 للراة رأسها .

أسرت وما صعب بمزل لدى الوثقى
ولا فرس مهنر ولا ربه مخز^(١)
ولكن إذا حتم القضاء على أسرى
فليس له برأ يقبض ولا يحرز
وقال أمتي حاجي : الفرار أو الردى
قتلت : هما أسران أحلاهما مؤر
ولسكني أمضي لا لا يميني
وحسبك من أسرين : خيرها الأسر^(٢)
يعنون أن خلوا نيسابى ، وإنما
على ثياب من دعائهم مخز
وقائم سيف فيهم اندق نصله
وأعقاب رُمح فيهم حطم الصدر^(٣)

وقد ذكر قصة أسره مع وفرة السلاح لدى أصحابه ، ولم يكن فرسه صغيراً ،
ولم يكن أبو فراس نفسه غافلاً عن الحروب ، وألقى بمسئولية الأسر على القدر
الذى لا يهرب منه أحد ولقد أشار عليه أصحابه بالفرار ، وإلا لما ملكوا قتال
لهم : إن أحل الأسرين مر وهو الفرار الذى لا يخاف إلا القتل والموت ، وسوف
يعرف طريقه ، ويكتفيه نضراً أنه دخل الحرب ، ونضال القتال الذى أعقبه الأسر
على الموت وذكر أن الروم لم يوردوه من ثيابه زاعمين أن ذلك تفضل منهم

- (١) المزل : جمع أمزل وهو من لا سلاح له ، المهر : ولد الفرس ، الثبر : مود
لم يهرب الأمور .
(٢) حسبك : كفاك .
(٣) قائم سيف : مقبضه .

مع أن ثيابه حراء لثلاثينها بدمائهم ولقد اندقت فيهم نصال السيوف، وحطمت صدورهم أعقاب الرماح فسالت دمائهم على ثيابه .

وهذه القصيدة من روائع الشعر الجاهلي، وقد قالها الشاعر في أسره مشيدا فيها بقوة عزمه وبأسه في قتال الروم .

وأبو فراس رجل حرب يصبر على الذنائب، ويتغنى بالآلام، ولا يستسلم للأعداء أو لواقع الذي يفرض نفسه، ولا ينهار أمام الفوازل التي تحيق به فهتف غبار الإنسكار رافعا هامته إلى السماء .

وفي خرشنة التي تحدثنا عنها مع أبي الطيب اللقيمي قال أبو فراس هذه الأبيات لما اقتيد إليها أسيرا جريحا قبل أن يحمل إلى القسطنطينية :

إن زرتُ خرشنة أسيراً فلكم حلتُ بها منيراً
ولقد رأيتُ الدارَ تنهت تمهت المنازل والقصورا
ولقد رأيتُ السبيَ يُج لمبُ نحونا حوًّا وخوًّا^(١)
تختارُ منه الغادةُ ألب حسناءً ، والظلي للفرج^(٢)
إن طالَ كَيْلِي في ذُرَا لكِ ، فقد تَمِمتُ به نصيرا
ولئن لقيتُ الحزنَ فيه لكِ فقد لقيت بك الشُّرُورا
ولئن رميتُ مجادئ فلا لَقَيْنَ له صُجُورا
صبراً لعلَّ اللهَ يَه فتح هذه فتحة يسيرا^(٣)

(١) الحو : الواحدة حواء وهي التي في شفتها سمرة مسحونة ، الحور : الواحدة حوراء ، وهي التي في عينيها حور ، وهو شدة بياض العين وشدة مواد سوادها .

(٢) القترير : الحسن .

(٣) الإشارة بقوله : « هذه » إلى خرشنة .

من كان مثلي لم يبيت إلا أسيراً أو أميراً
قد ذكر أنه انتقل بالأسر إلى خرشنة ، والحق دخلها كثيراً مهاجماً ومنيراً ،
ومحرراً لمدارها وقصورها وسابها للنساء ، ولئن اتى الحزن بها ، فقد نعم بالسرد
فيها ، وسوف يصير على ما نزل به من أحداث وخطوب ، ولعل الله يبدل الأحوال
فتفتح خرشنة ؛ ومن كان مثله في العزة والشرف والسكينة لم يبيت إلا أميراً
في قصره أو أسيراً في حربه .

٢ — شكواه من القعود :

ذكرت أن أبا فراس قد انتقل إلى سيف الدولة في حلب في أول شبابه ،
وكان فارساً شجاعاً ، ولم يكن ابن عمه يحب أن يدفع به إلى حروب الروم
لطولها وشدة الحرب فيها فضلاً عن خطورتها ، وقد قال أبو فراس : إنه اشترك
في حرب للروم وعمره تسع عشرة سنة ، وكان سيف الدولة يوجهه لحرب القبايل
العربية كبنى كلاب وبنى كعب وبنى قشير وبنى حفيظ ، وقيس عيلان .

ولهذا وجدت بالديوان كثيراً من القصائد والقطوعات عن حروبه مع بني
كلاب وبنى كعب بخاصة وقد كان يشقى في أول حياته الحربية من قعوده
عن حروب الروم قال فيما يرويه ابن خالويه :

« عزم الأمير سيف الدولة على مناورة بلد ابن شمشيق ، واستخلافه على
الشام ، فنال على القعود دفعة بعد دفعة ، وتفرده بالوقائع مع نفر من عساكره ،
فسكرت إليه :

أشدّ ما أراءُ منك ، أم كرمُ
تجودُ بالنفس ، والأزواجُ تُسكّلمُ^(١)

(١) الاصطلاح : الاستئصال .

بِأَتَايَلِ النَّفْسِ وَالْأَمْوَالِ مُتَبَسِّمًا
 أَمَا يَهْوَاكَ لَامُوتٌ وَلَا عَدَمٌ ؟
 تَفْدِي بِنَفْسِكَ أَقْوَامًا سَتَقْبَلُهُمْ
 وَكَانَ حَقُّهُمْ أَنْ يَفْقَدُوكَ هُمْ
 تَهْنُ بِالْحَرْبِ ذُنَا صَنْ ذِي بَخْلٍ
 وَمَنْكَ فِي كُلِّ حَالٍ يُزَفُّ السَّكْرَمُ (١)
 لَا تَشْفَاكَ بِأَسْرِ الشَّامِ أَرْضُهُ
 إِنْ الشَّامُ عَلَى مِنْ خَلَّ حَرَمٌ
 فَإِنَّ لَشَرِّ سَوْرًا مِنْ مَهَابَتِهِ
 سُخْرُوهُ مِنْ أَعَادِي أَهْلِهِ قِيمٌ
 لَا يَحْرِمُنِي سَيْفُ الدِّينِ صَحْبَتُهُ
 فَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي تَحْيَا بِهَا النَّسَمُ (٢)
 وَمَا اعْتَرَضَتْ عَلَيْهِ فِي أَوَامِرِهِ
 لَسَكُنَ سَأَلْتُ ، وَمِنْ عَادَاتِهِ نَعَمٌ !

فالشاعر فارس شجاع لم يرد النعم في الشام وجيوش ابن عمه تقاتل بالروم ،
 ويذكر أن سيف الدولة يقدى الناس ، وكان حقهم أن يفقدوه ، وهو يضمن
 بالحروب ، ولا يشركه فيها مع أنه كريم لم يعرف بالبخل ، ويذكر أن الشام في
 أمن بمن نزل به ، فقد بنى حوله سور من مهابة سيف الدولة ، والخوف منه ،
 وهو سور عال ، وصنوره من جود الأعداء ، ثم يطلب من ابن عمه صعيقة إلى
 الحروب لأنها حياة له ، ويرجوه أن يقول : نعم لتكتمل سعادته .

(١) البخل والبخل والبخل بضم وسكون ثم فتح وسكون ثم فتحين .

(٢) النسب : جمع نسمة وهي النفس والإنسان .

وربما كان سيف الدولة - لثقته في أبي فراس - يبقه بالشام لينوب عنه في إدارة مملكته ، وتصريف أموره ، عندما يزمع على سفر طويل ، وهذا ما كان يحز في نفس الفارس أبي فراس ، فهو يشكو أيضا من القعود بالشام عندما استخلفه ابن عمه ، وارتحل لقتال بني بكر بالمراق :

إني مُنِيتُ من المسير إليكم ولواستطعتُ لَكُنْتُ أَوْلَ وَارِدِ
أشكو ، وهل أشكو جَنَابَةَ مُنِيتٍ قَبِيضُ الدَّوَى بِهِ وَكَيْتُ الْحَاسِدِ ؟
قَدْ كُنْتُ عُدَّتِي الْقِيَامُ بِهَا وَيَبْدَى إِذَا اشْتَدَّ الزَّمَانُ وَسَاعِدِي
فَرُمِيَتْ مِنْكَ بِسَيْرٍ مَا أَمْلَقُهُ وَلِلَّهِ يَشْرَقُ بِالزَّلَالِ الْبَارِدِ
لَكِنْ أَنْتَ دُونَ الشَّرُّودِ مَسَاءً وَصَلَتْ لَهَا كَفُّ الْقَبُولِ بِسَاعِدِ
فَصَبَّرْتُ كَالْوَلَدِ الْتَقَى ، إِيَّاهُ أَغْضَى عَلَى الْمِرِّ اضْرِبِ الْوَالِدِ (١)

فهو يشكو من القعود ، لأنه يَشْرَقُ بالراحة ، ويمد البقاء بالشام إساءة وضربا من ابن عمه له (وهو كوالده) فصبر على ذلك برأيه ، وإغفاء عما أصابه من ألم .

وكان الروم قد قدموا إلى الشام في جيش بلغ الثمانين ألفا بأسلحتهم وفخيرتهم وجمع سيف الدولة ومعه أبو فراس وبقية القواد جيشا لا يزيد على أربعة آلاف ، وضحف الأعداء إلى حلب وانتشروا في أرجاء الدولة الحمدانية ، فاشتد الأذى والخوف ، ونهض أبو فراس للدفاع عن متبج ، وجمع حوله عددا قليلا من الفرسان ، وكان يدعو الناس للجهاد ، وهو يصيح بالشعر قائلا :

(١) الإغضاء : إثناء الجفون .

كيف أرجو الصلاح في أمر قوم ضيموا الخزم فيه أي ضياع؟
مُطاعُ القتال غيرُ سديدٍ وسديدُ القتال غيرُ مُطاعٍ

وقد قال هذين البيتين عندما اختلف القدير في أمر عسكره، ولم يقبل ما أشار به قومه فهزم العسكر^(١) وكان هذا القتال في أرض العرب في الواقعة التي هزم فيها سيف الدولة، وفر من حلب إلى بلس^(٢).

كان أبو فراس يفوح للخروج إلى القتال، ويزداد فرحه لظفر ولا نهصار، وقد حقق انتصارات كثيرة على القبائل والجيش العربية التي وجهه إليها سيف الدولة فقال يذكر ظفركه يني جعفر بن كلاب وصفحه عنهم:

إياه إياه العسكر غير مُدللٍ وعزم كعداليف، غير مُفَلِّلٍ^(٣)
أَغضى على الأمر الذي لا أريدُه ولما يقيم بالعدو رُعي ومُنْقَلِي
أبى الله، وَلَئِنْ لَمْ يَنْصُرْهُ، وَالتَّقَا وَأَبِضْ وَقَاعٌ عَلَى كُلِّ مَفْصِلٍ^(٤)
وفتيان صِدْقٍ مِنْ غَطَارِيفٍ وَائِلٍ إِذَا قِيلَ رَكِبَ اللَّوْثَ قَالُوا لَهُ انْزِلْ
يَسُوسُهُمْ بِالْغَيْرِ وَالْأَشْرُ مَا جَدَّ جُرُورٌ لِأَذْهَالِ الْخَيْسِ الْمَذْبِلِ
عزوفٌ أُنُوفٌ أَيْسَ يَقْرَحُ سَيْتُهُ جَرَى: متى يهزم على الأمر يَفْتَلِ
شديدٌ على طي المنازل صَيْرُهُ إِذَا هُمْ لَمْ يَظْفَرُوا بِأَكْرَمِ مَنْزِلٍ^(٥)
وعدت كريمة البطش والمعفو ظافراً أَحَدَثَ مِنْ يَوْمِ أَغْرَى مُحَجَّلِ

(١) انظر المحيون ص ١٨١ طبعة دار صادر، بيروت.

(٢) بلس: مدينة بين حلب والرقّة على ضفة الفرات.

(٣) عسكر: الفتي من الإبل.

(٤) المهر المنيس: أي أنه ذو منعة يمنع غير صاحبه من ركوبه.

(٥) طي المنازل: قطعها.

وفي معظم الحروب العربية التي خاضها أبو فراس أو اشترك فيها وتحدث عنها يعلن نصره على الأعداء ثم يشقه بالعفو عنهم ، والصفح عن مسيئهم ، وقد اكتسب خبرة كبيرة في هذه الممارك الكبيرة مع جيش الروم إلى جوار سيف الدولة ابن عمه أخقه ورائد نضاله ومعدد آماله .

الروميات

الروميات هي قصائد الشعر ، ومقطوعاته التي قالها أبو فراس في أسره ، وهو بعيد عن أهله ودياره في أرض الروم ، ففي هذا الشعر تنفخ بالآلام ، وأحزانه ، وذكر ما حدث له في غربته بالقسطنطينية وفي الأشمار السابقة قطع كثيرة من شعره بالروم لسكنى هنا أعرض لشعر الغربة عرضاً متكاملاً ، وإن كان معظم شعر أبي فراس شعر اغتراب ، قاله بعيداً عن وطنه (الشام) .

وقد تمددت الأغراض في الروميات ففيها حساسة ونخر ، ورناء ، وإخوانيات . وفيها حنين ووجدان ، وحزن وبكاء وأسى وحسرات . وكان أبو فراس في الأسر يتابع أخبار قومه ، فهو تنخر بهم ، وينهمهم إلى ما يبقه الروم لهم ، ويرى من مات لسيف الدولة كأخته وابنه ، ويعتب على ابن عمه عتياً شديداً لرد أمه « سخينة » إلى متبيح من غير أن يستجيب لها في مفاداة ابنها أبي فراس ، ويبادل ملك الروم في حساسة العرب . ف شعر الروميات شعر متنوع فيه صدق ومعاناة ، وأنين وزغرات ، والكثير منه مقطوعات صغيرة لأنه أشبه (بيومات) للشاعر أو حديث نفسه إلى نفسه بين جدران السجن .

١ - معاناته في الأسر :

كان الشاعر قد أصيب في فخذه ، وهو يدافع عن إمارته متبيح ، ولما شق

من الجرح الذي كان سببا في أسرهم ، قال هذه الأبيات ميمنا نفسه في جراحاته :

فلا تصيغرن الحرب عندي فلانها طمأمني منذ يثت الصبا وشرابي
وقد عرمت وقع السامير منهجتي وشققي من ذرق النصول إهابي^(١)
وتلججت في حلو الزمان وصرير وأنتقت من عجري بنهر حساب^(٢)

وقد كثرت جراحاته (١- سية واللذوية) فلم تلتئم ، فراح يفتس من معاناته
يقول الشعر ، قال :

مصابي جليل ، والعزاء تجيل وظلتي بأن الله سوف يديل^(٣)
جراح تنامها الأساة نخوة وشقمان : بادر منهما ، ودخيل^(٤)
وأشر أفاقيه ، وليل نبوئمة أرى كل شيء غيرهن يزول
تطول بي الساعات وهي قصيرة وفي كل دهر لا يسرك طول^(٥)

وهذه الأبيات من قصيدة بحث بها من الروم إلى أمه بمهيج يصبرها . وقد
بحث من الأثر رسائل متعددة إلى والدته يشيد فيها بحجاسته ، ويفتخر بأرومته
فيقول لها في التصيدة نفسها :

وإن وراء الشتر أما بكأوها على ، وإن طال الزمان طويل^(٦)
فيا أمنا ، لا تعذمني الصبر ، لأنه إلى الخير والتجج القوي برسول^(٧)

(١) يشير إلى شق جلده لإخراج نصل السهم منه « الديوان ص ٣٣ » .

(٢) لججت : خضت الاجة ، وهي معظم الماء .

(٣) يديل الحال : يغيرها .

(٤) الأساة : الإطباء ، وللفرد « آس » .

ويا ألقاً لا تخطيء الأجر ! إنه
 أما لك في ذات النطائين أسوة
 على قدر الصبر الجليل جزيل^(١)
 بمكة ، والحرب الموان تبول^(٢)
 أراد ابنها أخذ الأمان فم نجيب
 وتعلم علما أنه لقتيل
 وكوى كما كانت بأخذ صافية
 ولم يشف منها بالبكاء غليل
 ولو رد يومًا حزة الخير حزنها
 إذا ما علقها رقة وعويل
 اتيت نجوم الأنق وهي صورم^(٣) ونضت سواد الليل وهو خويل

فالشاعر يصبر أمه ، ويدعوها لتتأسى بأسماء بنت أبي بكر ، فقد دفعت ابنها
 لحرب الحجاج ، ومنعت من أخذ الأمان لما لها من رأى في تجاوزات الحجاج ،
 وشهدته مصلوبا أمام السكينة فقالت لابن يوسف في قوة وحاسة : « أما أن
 لهذا الفارس أن يترجل » ؟ ولم تصب أم أبي فراس عند أمره بما أصيبت به
 ذات النطائين ، ثم دعا الشاعر أمه لتتأسى أيضا بصافية بنت عبد المطلب ، فقد
 خزنه على أخيها حزة ، ولم ترده بالحزن والبكاء .

ولأبي فراس شعر كثير ، قاله في الأسرى من فيه إلى أمه ، وبعث به إليها
 في عبيج ، ومن هذا الشعر قصيدة حماسية في خسة وأربعين بيتا قالها عندما
 يانه أن أمه « ذهبت من عبيج إلى حلب لتسكلم سيف الدولة في القاداة فردها
 خائبة »^(٤)

يا حيرة ما أكاد أجولها آخسروها مزيح وأولها

(١) لا تخطيء الأجر : أى لا تدعيه يوتلك .

(٢) ذات النطائين : هى أسماء بنت أبي بكر ، زوج الزبير بن العوام ، وأم ابنه
 حديد الله الذى انتشرت دعوته بالحجاز والعراق في القرن الأول الهجرى .

(٣) العيون من ٣٤١ .

عليلة بالشام مُزْدَدَةٌ باتَ بِأَيْدِي الْعِدَى مُتَلَهِّيًا
تَسْأَلُ عَنَّا الرِّكْبَانُ جَاهِدَةً بِأَدْمَحٍ مَا تَسْكَدُ يُنْهَلِيهَا^(١)
يَا مَنَ رَأَى لِي بِحِمْلِي خَرَشَقَةً أَشَدَّ شَرِّى فِي الْقِيُودِ أَرْبَلَهَا
يَا مَنَ رَأَى لِي الدُّرُوبَ شَاخَةً دُونَ لِقَاءِ الْحَبِيبِ أَلْوَلَهَا
يَا مَنَ رَأَى لِي الْقِيُودَ ، مَوْتَةً عَلَى حَبِيبِ الْفُؤَادِ أَثْقَلَهَا

ثم ينقل أبو فراس من الحديث عن لسان أمه إلى السلام بلسانه ،
فيسأل الراكبين إذا كانت لدهما رغبة في حل نجواه إليها ، فيقول :

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبَانِ ، هَلْ لَكُمَا فِي حُلِّ نَجْوَى يَحِفُّ حَمَلُهَا
قَوْلَا لَهَا ، إِنْ وَعَتْ مَتَالِكُمَا وَإِنْ ذَكَرَى لَهَا يُذْهِلُهَا^(٢)
يَا أُمَّتَا ، هَذِهِ مَسَاوِلُنَا نَتْرُكُهَا تَارَةً ، وَنَتَزَلُّهَا
ويقول سيف الدولة :

جَاءَتْكَ تَمَتَّاحُ رَدٍّ وَاحِدُهَا يَنْظُرُ النَّاسُ كَيْفَ يُنْقَلُهَا^(٣)
إِنْ كَفْتَ لَمْ تَبْذُلِ الْقَدَامَ لَهَا فَلَمْ أَزَلْ ، فِي رِضَاكِ أَبْذُلُهَا
أَيْنَ الْمَالِ الْقِي عُرِفَتْ بِهَا تَقُولُهَا ، دَائِمًا ، وَتَقْتُلُهَا

وذكر أبو فراس في قصيدة أخرى أنه لولا أمه ما خاف من الموت ، فكان
طلبه للحياة من أجلها وكان يدعوها إلى الثقة بالله ، قال :

لَوْ لَا الْمَجُوزُ بِمَنْبَحٍ مَاخَفْتُ أَسْبَابَ الْمَنِيَةِ

(١) جاهدة : ملحة بالسؤال .

(٢) وع : حفظت ، يذهلها : ينسبها .

(٣) تمتاح : تسأل وتطلب ، تقولها : ترجمها .

ونسكان لي عما سألت من الفداء نفس أبيه
ولكن أردت مرادها ولو انجذبت إلى الدينه

ويظهر أنها كانت تطلب من أبي فراس أن يرسل إلى ابن عمه يحمل ليطلب
معه الإسراع في الفاداة ، ثم يقول لها موصيا :

يا أيتها ! لا تحزني وثقي بفضل الله فيه !
يا أمنا ! لا تيأسي بالله الطاف خفيته
أوصيك بالصبر الجيد لئلا فإنه خير الوصية

أليست هذه كلها معاناة في الأسر ؟ أي ألم أكبر من هذا ؟ . . . هذه ثمار
أو بعض من ثمار الحروب التي جناها الحارث بن سميد ، وهو يمانى ويتصبر ،
ويأسو جراحه بنفسه . . .

٢ - رسائله إلى سيف الدولة :

لم تنفجر بنا بيع المعاناة في شعر أبي فراس إلى أمه لحسب بل تنفجرت أيضا
في رسائله ، إلى سيف الدولة فيقول له في بائية بلغت خسة وأربعين بيتا :

وأبطأ عني ، والمنايا سريرة والدوت ظفرت قد أطل وناب
فإن لم يكن ودي قديم نعمة ولا نسب بين الرجال قراب
فأحوط للإسلام أن لا يضئني ولي عاك فيه حوطة ومناكب
وما زلت أرضى بالقابل محبة لذيك ، ومادون الكثير حجاب

(١) قراب : بمعنى قريب .

(٢) أحوط : أشد احتياطا .

وقد كنت أخشى المجر والشمل جامع
وفي كل يوم أفتة وخطاب
فكيف ، وفي بيتنا ملك قيصري
وللبحر حسولي زخرة وعباب ؟
أين بعد بذكر النفس فيها تربية
أتاب بمسر القتب حين أتاب ؟
فليتك تحلو ، والحياة مريرة
وليتك ترضى والآنم غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب

وشعر أبي فراس في أمره يسيل مذوبة ورقة ، ويعبر عن وجدانه في صدق ،
فلقد اعتقد إلى الأسر ، وترك الأهل والأحباب ، وتخلى عنه الأصدقاء والخلان ،
وتأخر عنه أقرب الأقربين ، فأخذ يشتكى ، ويستعطف ، ويذكر ابن عمه بأوامر
القراية ، وحقوق الاسلام ويعطى رضاه (مؤقتا) بواقعه ، ويكفيه أن يرضى عنه
ابن عمه حتى ولو غضب منه كل الخلق .

وفي نهاية هذه الأبيات يباغ أقصى درجات الاستعطاف بهذا الشعر الذي
كانت تردده رابعة المدوية حتى ظن الناس أنه لها .

وقد كثرت أشعاره إلى سيف الدولة وهي في الاستعطاف والعتاب وطلب
للقادة والفصح الحرير .

وفي قصيدة طويلة كتبها إلى ابن عمه مرفه فيها بنروح الروم إلى الشام ،
(٩ - عمر الخامسة)

وحذره منهم ، ودعا إلى التصدي لهم ، وهي من القصائد الحاسية المتهمة ،
قال في بعض أبيانها :

إني أغارُ على مكانٍ أن أرى فيه رجالاً لا تُشُدُّ مكانى
أو أن تكون قيمة ، أو غارةً مالى بها أثرٌ مع الفتيان
هذى الجيوشُ تيمشُ نحو لادكم محفوفةً بالكفر والعُثيان
البنى أكثرُ ما يُقِلُّ خمولهم والبنى شرُّ مُصاحِبِ الإنسان
حقٌّ كان الوحيَ فيكم منزلٌ ولكم تُخصُّ فضائلُ القرآن

وهو يرى أن حروب قومه حروب ، ضد الكفر ، حتى ترتفع راية الإسلام ،
ولهذا يواصبهم بالاستعداد وأخذ الأهبة ليدفعوا عن بلادهم شر البنى والكفر
والمدون

ويضئ الأسر فيبكي ، ويملا الحب قلبه ، فيشتكي ويتوجع :

أبي غربُ هذا الدمعُ إلا تترعما
ومكنون هذا الحبُ إلا تضوعا^(١)

وأشار إلى فراس إلى سيف الدولة كلها إشادة بحماسة ، وانتصاراته على
الروم والعرب في المدارك الكثيرة التي خاضها ، وانغمس فيها ، أو استعطاف
أعدائه من الأسر ، أو فخر بة يلائه بنى حمدان .

٣ - شعره عن حماسة قومه

لم تنقطع صلة أبي فراس بنومه أثناء الأسر فكان يتابع أخبارهم ، ويتحدث

(١) غرب الدمع : سيلانه ، تضوعا : تحركا وانتشارا وفوسا .

إليهم بشعره حديثا متصلا ومتنوعا ، فيفتخر بهم ، ويشيد بمجاستهم ، وينبئهم إلى مكر الأعداء وخيبتهم ، ولا أدري كيف تمكن أبو فراس من مقابلة كل ما يجري في مملكة بني حنظلة بالشام ، وكيف استطاع معرفة مخططات الأعداء واستعدادهم للهجوم على قومه ، في وقت لم تكن فيه اتصالات سلكية أو لاسلكية ، اللهم إلا إذا كان لهذا الفارس أحباب كثيرون في أرض الروم يخبرونه بكل ما يجري في الدولة البيزنطية ، وزودونه أيضا بكل ما يصل إليهم من أخبار العرب .

ولكثرة الحروب بين الأمتين ازداد تداخلهم في بعض فئات العرب يعرفون ما يدور في فكر الروم وما يخططون له ، ولقد تزوج سيف الدولة منهم ، وربما يكون غيره قد فعل مثله ، وكثير من أسرى الروم يباعون في أسواق خاصة ، وينتسرون بعد الشراء كأرقاء في سائر البلاد الإسلامية ، ومنهم من حقق شهرة كبيرة في مجال الأدب والفتاوى في العصر العباسي الثاني^(١) كما انتقل كثير من المسلمين نتيجة للحروب أو التجارة أو غيرها إلى بلاد الروم ، ف عاشوا فيها ، وتفقوا بين أربابها وظلوا على إسلامهم ، وخدموا الدين بذلك ، فبنوا بعض المساجد في أماكن مختلفة من أرض الروم ، وقد وجدت آثار إسلامية وعربية كثيرة في هذه المواضع ، مما يؤكد الوجود النشط والمؤثر للمسلمين ببلاد الروم حتى ولو كانوا أسرى حرب .

وكان الروم ياملون أبا فراس معاملة خاصة ، فقد أبقوا عليه بعد أسرهِ سلاحه وملابسه ، وأبقوا على فرسه معه ، فانقل إليهم في صورة الأمير لا الأسير ، وكانوا يستدعونه للمعاهدة والمناظرة أو للايقاع بينه وبين سيف الدولة ، فهم

(١) مثل باقرت الخوى « الروى » صاحب معجم الأدباء ومعجم البلدان .

يسرقون ممتلكاته في قومه ، ومنزلته عند ابن عمه ، فضلا عن موهبته الشعرية المؤثرة ، وجراته التي لا تهاب في معمة القتال ، أو أنهم كانوا يعاملونه هذه المعاملة إكراما لأمه التي كانت في الأصل بيزنطية ، ألم يقل في شعره :

أقت بأرض الروم عامين لا أرى
من الناس يحزونا ولا مُتصنعا
إذا خفت من أخوال الروم خطاة
تخوفت من أعمام العرب أوتبا
وإن أوجعتني من أعادي شومة
أقيت من الأحباب أدنى وأوتبا

وهذا الشعر يعبر فيه أبو فراس عن حالة من اليأس قد ألت به في ظل ظروف خاصة لسكننا نجده في كثير من شعره بالروم يشيد بحماسة قومه ، ويسألتهم في قتال الأعداء ، وتفندهم في الحروب من خلال مناظرة بينة وبين الدمشقي قائد الروم الذي قال له : « إنما أنتم كتاب لا تعرفون الحرب » فرد عليه أبو فراس قائلا : « نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيف أم بالآقلام » (١) فقال :

أزحم ، يا ضخم الفنايد ، أنسا
ونحن أسود الحرب ، لا تعرف الحربا (٢)
فويلك من للعرب إن لم تكن لها ؟
ومن ذا الذي يُجترى ويُضحى لها تريبا

(١) الديوان ص ٤٢ .

(٢) الفنايد : المفرد لندود ، وهو لخم الحلقى ، وكان الروم ذا أعتاق ضخم .

ومن ذا يذنب الجيش من جنبااته ؟
 ومن ذا يقود الشَّم أو يصدم القلْب ؟
 وويلك من أردى أخاك بمرعش ؟
 وجلل ضرباً وَجَهَ والدك القَضْب ؟
 وويلك من خلى ابن أختك موثقاً ؟
 وخلاك باللقان تبتدر الشَّه ؟
 أنوعدنا بالحرب حق كأنه .
 وإلاك لم يُقتب بها قلْبنا معذب
 لقد بجمعتنا الحرب من قبل هذو
 فسكتنا بها أشد وكفت بها كلبا

ويجلى في هذه الأبيات نعر أبي فراس بقومه ، وإشادته بمجاستهم في القتال مع الروم ، فهم أسود وأحمر حروب ، وهم يطوقون الجيوش ، ويأسرون العظام ، ويصدمون قلب الجيش ، وهم الذين ضربوا أخ الدمستق بمرعش ، وغطت سيوفهم وجوه والده ، وقيدوا ابن أخته ، وجعلوا الدمستق نفسه يهرب في شعاب الجبال ، ثم سخر منــــــــــــــه لوعيده لهم بالقتال كأنهم لم يعرفوها مع أنهم تمرسوها ، والتفتوا مع الروم قبل الواقعة الأخيرة التي أسر فيها أبو فراس ، وكانوا أسودا شجعانا ، وكان للروم ضمافا جناء ، ويذكر أبو فراس في مقدرة هجيرة أسماء الأسرى والأبطال الهيزنطيين الذين أذاقهم بنو حدان مرارة الحرب تنكيلا ، وأسرا ، وقتلا بأرلوب لا يستطيع معه

(١) يلف : يطوق ، التسم : أعظم الرجال ، القلب : المراد قلب الجيش .

(٢) مرعش : اسم موضع بالروم ، القضب : السيف .

(٣) اللقان : جبل بالروم وراء خرشنة .

الشعر الملاحى

وقد رأيت أن حياة أبي فراس في شعره، وشعره كله في هذه القصيدة .
ونرجع إلى القصيدة فنجد أن مطلعها غير ملحوظ إذ أنه بدأها بالاعزل على
عادة الشعراء المتقدمين ، فهي تبدأ بقوله :

فَيُسْقَدُ مَهْجُورٌ ، وَيُسْقَدُ هَاجِرٌ !

فَقِيَسَا لِدِينِ اللَّهِ عِزًّا وَقَنَمَةً
وَفِيَسَا لِدِينِ اللَّهِ سَيْفٌ وَنَامِرٌ

ويذكر شجاعته مع سيف الدولة في قتال الروم فيقول :

وَجِبْنَ بِلَادِ الرُّومِ سَتِينَ لَيْلَةً
تَنَاورَ مَلَاكَ الرُّومِ ، فِيمَنْ تُكَاورُ
تَجِرُ أَمَّا تِلْكَ الْمَعَاوِلُ سَجْدًا
وَتَكْرِي لَنَا بِالْأَهْلِ تِلْكَ الطَّامِرُ
وَمَا زَالَ مَنَا جَارُ خُرْشَنَةِ اسْمُرُ
يَرَاوُحُهَا فِي غَارَةِ وَيُبَاكِرُ

ويقول عن قتال سيف الدولة لأقباط العربيه :

وَأَجَلِي إِلَى الْجَوْلَانِ كَلْبًا وَصَيْتًا
وَأَقْفَرٌ عَجِبٌ مِنْهُمْ وَأَشَاعِرُ^(١)
وَأَبْ وَرَأْسُ الْقُرْمَطِيِّ أَمَامَهُ
لَهُ جَسَدٌ مِنْ أَلْحَمِبِ الرَّمَحِ ضَامِرُ

ويشير إلى انتصارات سيف الدولة في أرض فارس ، ثم يعاود الافتخار بقومه ، ويذكرهم واحدا واحدا ، مشيرا إلى جهدهم وشجاعتهم في قتال الأعداء ، ثم ينتهي من ملحده أو من هذه الرائية الطويلة التي جمع فيها حماسه وحاسة ابن عمه سيف الدولة ، وحاسة آل حمدان جميعا ثم ينتهي فيها إلى قوله في آخرها :

(١) الجولان وحجب وأشاعر . أمكنة بالشام .

نطقتُ بِفَضْلِي ، وامتدحتُ عَشِيرَتِي
وما أَنَا مَدَّاحٌ ، ولا أَنَا شَاكِرٌ
وَهَلْ تُجَبِّدُ الشَّمْسُ لِلنَّهْرِ ضَوْءَهَا
وَيُسْتَبْرَأُ نُورُ الْبَدْرِ ، وَالْبَدْرُ زَاهِرٌ ؟

ومن يدرس هذه الرائية الحاسية العارولة نسوف يجد أبا فراس قد أجمل حروب قبيلته ، وجمعها من غير تفصيل ، واقتصر بقومه ، وأشاد بانتصاراتهم على الروم والعرب جميعا .

لأن الحاسة في شعر أبي فراس قبل أسره توجه إلى شخصه ، وإلى ابن عمه سيف الدولة ، وإلى أبناء محومته جميعا في قتالهم للروم ، وللقبائل العربية ، ثم يتحول المضمون الشعري بعد وأثناء فترة الأسر (أى في شعر الروميات) إلى مضامين جديدة ، فيشيد بحماسة ، ويذكر مقاومته للأعداء ، ويصف الأسر وما جرى فيه ، ويكثر من حديثه عنه ، ويدعو الحساد والشامتين إلى التمل والانتظار والترقب لما ستأتى به الأيام بحماسة قبل الأسر تتحول إلى وصف للأسر ذاته في الروميات والحديث عن حروب قومه يتحول كذلك إلى نغز بهم وإشادة بحماسةهم ، أما حديثه عن حماسة ابن عمه سيف الدولة فقد تحول إلى استعطاف له ، واعتذار عما يكون قد بدا منه حتى ينهى له مسألة الانتداء لأن الأسر مر للذاق كطعم الملقم خاصة إذا كان لفارس بطل تمود أن ينوض المارك ويحقق الانتصارات ، ويعدو في ساحة القتال ويرجع بالأمرى ويعفو عن النساء ويرضى لشفاعتهم ، ويسجل لقومه الانتصارات ، ولدينه المجد والازدهار .

وكم عز على شاعر بني حمدان أن يبكي ، وكان من حته أن يزأر ، وقد عاد

من أسره مهموماً ، ثم استقبل بالحزن والالوعة بمد القرح والشرور لأن ابن عمه
وسبب مجده وزوج أخته كان مريضاً ، ثم وجد بنى حذان قد انقسموا شيعاً .
وأحزاباً ، وما لبث أن مات سيف الدولة ، واختفى أكبر ضوء فيهم ،
وانقرط عقد دولتهم ، وأخذوا يتقاتلون فيما بينهم لتحقيق أطماع رخيصة
فضعفت قوتهم ، وزالت مع الأيام دولتهم وأسدل الستار في حلب على أعظم
شعاع كان ينير منه الأدب والمجد في القرن الرابع الهجري .

الفصل الخامس

شعر الحناسة بين المتنبي وأبي فراس

كان أبو الطيب وأبو فراس، يلتقيان في مجالس سيف الدولة بحلب، ويلتقيان أيضاً في ساحة القتال مع الروم أو مع العرب، ولم يكن الشاعران على وفاق تام في المدة التي التقيا فيها عند أمير بني حمدان، وكان أبو الطيب متعالماً على من معه من الشعراء، وقد كان يرى أنهم دونه بكثير، ثم أطلق عليهم ألقاباً تدل على تحقيره لهم، وإهانتهم لمطائيرهم التي، وكان أبو فراس كما يحدثنا التاريخ من جملة الحساد الذين تقموا على أبي الطيب لما وصل إليه من شرف ومجد عند سيف الدولة، بل كان ينتقد ابن عمه على شدة إعجابه وكثرة ترحابه بالمتنبي.

وقد اشترك كلا الشاعرين في معارك الروم والعرب، وذاقا بهما من حلاوة وسرارة، وكلاهما قد وصف هذه الحروب، وأشاد بمجاسة سيف الدولة، وتنقذ بانتصار العرب في شعر قوي مطبوع غير متكلف مما جعلهما يسدلان سقاراً من النسيان، على من عاصرهما من الشعراء، وكان غيرهما من شعراء سيف الدولة يقول الشعر له تنكساً وارتزاقاً، فكأن الحناسة عند هؤلاء الشعراء لم تكن طبعية أصيلة بل كانت متكلفة ومصطنعة، ولهذا استعوز أبو الطيب وأبو فراس على إعجاب متذوق الأدب في عصرهما وما تلاه من عصور على تفاوت بين الرجلين في القدرة والوهبة والتعبير والمطاء وفي أمور كثيرة سوف نعرض لها.

على أن شعرهما يمد مصدرهما مهماً في التاريخ السياسي والعسكري، وإن كفا

فتحفظ كثيرا في هذه الداحية ، ولا تريد أن نفرط في الثقة بالشعر من ناحية دوره في هذا الجانب لاعتماده على الخيال والماطلة ، وقد سميت الإشارة إلى هذه المسألة ، وأردنا معاودة التعنيد إليها حتى نتأكد هذه الحقيقة لكل قارئ .

وقد فرضت بطولة سيف الدولة على هذين الشاعرين وغيرها أن يعمقها بحذو البطولة ، ويشيدا بها من خلال القصائد الطويلة ، وللتطوعات القصيرة ، بالألفاظ البدوية الجولة أو بالألفاظ الرقيقة المناسبة كل ذلك من خلال الشعر الجاسي الذي اتخذ طابعا مميزا عند المتنبي وأبي فراس (الحارث بن سعيد) . ومن خلال الفنون الأخرى التي امتزجت بالفن الجاسي كالملاح والفخر وغيرها .

ولا سبيل إلى الموازنة بين هذين الشاعرين فإن المتنبي شاعر عظيم ، يتفوق على أبي فراس تفوقا كبيرا من حيث الماني والأسلوب ، ودباجة اللغة ، ولا يقاس أبو فراس بالمتنبي من حيث الشعر الجاسي الذي يمد فيه أبو الطيب رائدا وأميرا ، وقد ذكرت ذلك حتى لا نفهم الموازنة على أنها تؤدي معنى التقارب بينهما من حيث الشعر مالمقات ، فإذا كان أبو فراس فارسا حربيا ومقاتلا بارزا ، وشجاعا متفوقا على أبي الطيب في هذه الناحية ، فإن المتنبي يتفوق كثيرا جدا على أبي فراس في الشعر الجاسي فضلا عن اللوحة الشعرية ، وكان هو الآخر مقاتلا على قدر كبير من الذكاء الحربي ، مع أن فارس بن حمدان كان شاعرا متقدما على الكثيرين من الدولة ، وكان يقد شعره ، ويبين وجوه الضعف فيه ، ويكشف سرقاته وإغاراته على شعر السابقين ، وكان المتنبي أتماء وجوده في حلب شاعر سيف الدولة وكان أبو فراس مكملا ومتما لدور المتنبي ، والموازنة هنا بين الرجلين في شعر الجاسية شكلا ومضمونا ، ونسبت الموازنة بينهما من حيث المعزلة والمكانة والمستوى الفني فقد كان أبو الطيب بارزا ومتفوقا في كل ذلك .

والشعر الجاسي عند المتنبي يتجه في موضوعه (غالبا) إلى شخص واحد ،

وهو سيف الدولة الحدادي ، ولا يكاد يتهناه إلا قايلا ، فهو يمدحه ، وبشده
بمحاسنه ، ويصف حروبه ، ويتقنى بانتصاراته قال له :

ألقت إليك دماء الرُّوم طاعتها فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم

وقال :

بالجيش تمنع السادات كلهم والجيش يابن أبي الهيثم

وقد تحدث في ميمية له عن موقعة الحدث الجراء ، وهي مثال لشعر الحرفي
الخالص الذي لا يختلط بغيره ، وله أشعار حماسية كثيرة عن سيف الدولة .

أما شعر الحاسة عند أبي فراس فوزع على أطراف متعددة كأبي فراس
نفسه ، وسيف الدولة ، وقبيلة بني حمدان بكل أبطالها وشجعانها المناویر ،
وتعد الرائية الطويلة التي تبدأ بقوله :

لعل خيال السامرة زائر فيسعدهم جور ، ويسعد هاجر !

مثلة لمذهب أبي فراس في شعره الحاسي ذي الصبغة الماحمية .

ولكنه أجل الحديث فيها لأنها ترجمة لحجانه القبلية والحربية بيننا تسطه
في الرومية التي ناظر فيها الدمستق .

يمالح شعر القنبي حروب سيف الدولة موقعة بعد أخرى ، وقد يذكر
في الموقعة الواحدة أكثر من قصيدة ، وقد يتحدث في القصيدة الواحدة عن
عدة حروب ومعارك متوالية ، أما أبو فراس فنراه يتحدث عن شجاعته ،
ويقتخر بقبيلته ، ويشيد بحماسة سيف الدولة نفرا وإشادة من غير تفصيل
لماركه مع الأعداء والخصوم على نحو ما رأينا في شعره عن معارك خوشنة
والحدث ومرعش وغيرها . ومن قوله عن سيف الدولة :

قد ضج جيشك من طول القتال به
وقد شككتك إايضا الخيل والإبل
وقد فرى الروم مذ جاورت أرضهم
أن ليس يعضهم سهل ولا جبل
في كل يوم تزور الثغر ، لا ضجر
يثنيك عنه ، ولا شغل ولا مل
تومئتك كلاب غير قاصدها
وقد تكفك الأعداء والشغل
حتى راوك ، أمام الجيش ، تقدمه
وقد طلعت عليهم دون ما أملوا

ومعظم الشعر الحامى عند المفتي يذصرف إلى حروب سيف الدولة مع
الروم مع أن له عددا من الفصائد في حروب القبائل العربية إلا أن الرجل
كان كارها وبائضا للعجم مشفقا على العرب ، وكان حديثه عن قتال سيف الدولة
لهم فيه مودة وابن ترقى قال لأميره عن بني كلاب :

ترقى أيها الولي عليهم فإن الرفق بالجانى عتاب

بينما نجد معظم الشعر الحامى عند أبي فراس يتناول حروب سيف الدولة
مع القبائل العربية المجاورة ، والقليل من شعره الحامى عن حروب الروم هذا غير
الروميات فإن لها طابعا خلاصا ، وكان الكثير منها عبارة عن شكوى وأنين
وعتاب وحنين إلى قومه ، والباقي موزع بين جدال مع الروم ، وأمانيات بالتمتع
عليهم حتى يوفى أرضهم ، ويبدو أن المأساة الشعرية لم تكن قد استوت
ونضجت عنده في الزمن الذي كان فيه سيف الدولة يحقق الانتصارات العظيمة
على الروم ، أو أن معظم الحروب التي اشترك فيها مع ابن عمه ، أو التي انفرد

فيها بالقتال كانت مع العرب ، ولم يكن يقدر على إشادة بانتصارات لم يشهدها ،
أو وصف معارك لم يشارك فيها . وقد تقيمت شعره في الديوان قصيدة قصيدة
ومقطوعة . مقطوعة ، ووجدته يتحدث عن قتال بني حمدان للقبائل العربية
المتمددة كقيس ، وبني كعب ، وبني كلاب ، وقيس هيلان ، ربيعة ، وبني نير
وله في هذه القبائل عشرات ألقاب والمقطوعات .

ومن ذلك قوله :

ولما أن طلت سنهاء كعب فتبعنا بيننا للحرب يا ما
منعناها الحرايب غير أنا إذا جارت منعناها الحرايب (١)
ولما نار سيف الدولة ثُرنا كما هيئت أسادا غضايا
أسبغت إذا لاقى طمانا صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا

فقد افتخر بقومه ، وذكر إيقاف سيف الدولة ببني كلاب في قصيدة
حماسية رائعة .

بأنى الشعر الحماسي عند المفاصل فنا مستقلا قائما بذاته ، فيذكر القصيدة
من أولها إلى آخرها عند الحرب أو عن موقعة معينة ، أو يأتي هذا
الشعر من خلال المدح الذي أكثر فيه ، وأخلص له ، وقد أجاد في مدح
سيف الدولة بالحاسة والشجاعة والبطولة ، وربما جاء الشعر الحماسي عنده
ممزوجا بالفخر قليلا ، وبخاصة عندما يريد الفخر بشجاعته وبطولته فيقطع من
القصيدة أبيات قليلة يختص بها نفسه .

(١) الحرايب : الواحدة حربية ، وهي ما يتناش به من المال ، الحرايب : الفصال
الواحدة حربة .

وإذا كان أبو الطيب قد برز أبا فراس ، وتفوق عليه في الشعر بوجه عام فإنه قد تفوق عليه أيضا في القصائد الجاسية بصفة خاصة ، ولا حرج إذا قلنا إن المعنى قد فاق شعراء العربية أجمعين في هذه الفن لاعتبارات كثيرة .

فهو أمير لشعراء المدح العربي والجماسة والخيال وغيرها ، وقد اعترف بقدرته الشعرية المتقدمون والمتأخرون على السواء ، وتمكن بهذه القدرات ، وبهذا الشعر للتوهج من توجيه الأنظار والأسماء إلى بيئة حلب ، وإلى مجالس سيف الدولة ، وإلى تسطير هذه الحروب في كتب الأدب والتاريخ والحضارة ، غير أن هذا التفوق ، وهذه الميزات لا يمكن أن تكون سببا في حجب أبي فراس ، ودفعه في وادى النسيان ، فقد أهتم هو الآخر بالشعر الحربي ، وجاء الفن الجاسي عنده قائما وممتلا كما أحد الفنون الشعرية ، كما جاء من خلال فنون أخرى كالنثر والإخوانيات أي القصائد التي يث بها إلى إخوته ، وأبناء عمومته عندما كان أسيرا في أرض الروم أو عندما كان حرا طليقا في مملكة الجذانيين .

والإخوانيات في شعر أبي فراس كثيرة نتيجة لابتعاده عن أهله ، وبثائه في الأسر مدة طويلة ، وأما برز في رسائل الشعر الإخوانية التي كان يتحدث فيها عن نفسه ، فيقول مخاطبا ابن عمه :

يا ضارب الجيش بي في وسط مفرقه
لقد ضربت بهن الصادم القضب^(١)
حتى تقول لك الأعداء راغمة
أضحي ابن عمك فارس العرب

(١) المضرب : السيف القاطع .

ولقد كثر الشعر الحماسى عنده ، وانتثر معظمه بين الفنون المتعددة ، ولم هذا يصعب على التارىء أن يجمع شعره الحماسى عنده ، ويجمله مستقلاً قائماً بذاته فى ديوان خاص به بينما يمكن جمع الشعر الحماسى عند أبى الطيب ، وجمعه فى ديوان خاص به .

فالتنقى شاعر حرب ومعارك وحاسة ، وبسالة ، ومن يقرأ أشعاره فى ذلك يراه شاعراً فريداً مطبوعاً فى قول الشعر كأنه (محترف) أو ولد شاعراً .

وأبو فراس شاعر وجدانى يفتى للحرب ، ويطرب لقرع القنا لاقفاً ، ويفوص فى عمق الإحساسات الوجدانية ، وعندما ينتصر ينفو ولا يشمت ، ويحب فلا يحقد ويعبر عن مجده ، ومجد قبيلته . فهو ينشد أشعاره الحماسية كأنه (هار) وعاشق وليس متشغياً أو مفتخاً .

عاش المتنقى رافعاً رأسه ، متعالياً ، متعاطفاً ، شعباً ما غير هباب ، يبعث عن المجد ، ويماند الشعراء ، وبصاحب الملوك ، ويقود الثورات ، ويخرج من مدرسة أيدخل فى أخرى ، ومعاركه متنوعة ، وتنقلاته بحثاً عن الثروة والمجد والجاه كثيرة جداً ، وقد تنرب ، وأمن فى الاعترا ببعداً عن وطنه ومحل مولده (السكوة) ورأى أن الساحة العربية هى وطنه الأكبر .

أما أبو فراس فقد تربي يتيماً ، وشارك فى أعباء قبيلته صغيراً ، وعاش حزيناً ، وقضى أقوى سنوات حياته فى الأسر بينى الغربية ، ويشغلق لأمله ، ويحزن لهزيمتهم ، فسكان أبو الطيب كلاسيكياً جباراً ، وكان أبو فراس رومانسياً ملقهاً . وعاش حياته ضعيفاً أمام المرأة ، فقد أحبها ، وأهان أنهبها . أمامها عندما ينصرف فى موقعة من الموانع السكتيرة التى تفوق فيها ، ويجمع الأسلاب والفتائم ويوشك على الرحيل فتتقدم منه امرأة أى امرأة طالبة الشفاعة تقومها فتنازل بهذه الشفاعة عن كل ما جمعه الجيش حتى لو غضب جنوده بهذا التصرف

ولقد وجدته يذكر ذلك في أكثر القصائد الخماسية التي ذكر فيها قتاله المصوم من العرب، وربما يكون ضعفه أمام المرأة حبه لها، ولتعلقه بها إذ أنه أحب أمه وأسرف في تعلقه بها، فقد نشأ في أحضانها بعد مقتل والده، ولهذا كانت حبه الأوحده، ثم أحب زوجته وابنته؛ وتوهج حبهن جميعاً في وجدانه وقلبه عندما كان أسيراً في الروم، وله أشعار كثيرة يناجي فيها أمه مناجاة خاصة من أرض الأعداء، فهو يصيرها بعد أسره ويقول لها:

مصابي جليل، والعزاء جويل وظنى بأن الله سؤف يديل^(١)
وأسر أقالبيه، وأبل نجومه أرى كل شيء غيرهن يزول
تطول بي الساعات وهي قصيرة وفي كل دهر لا يشرك طولاً

ثم تماكك الحزن، وفاضت شجونه، وسالت دموعه عندما بلغه نبأ وفاتها وهو في الأسر فرثاها رثاء حاراً، هذا باكياً، فقال:

أيا أم الأسير، سفاك غيث بكرومك مذك ما لقي الأسير
إذا ابتلك سار في بر وبحر فن يدعو له، أو يستجير؟
وقد دقت الرزايا والنساي ولا ولد لديك ولا هشير
وغاب حبيب قلبك عن مكان ملائكة السماء به حضور
أيا أماء، كم سر مصون بقلبك، مات ليس له ظهور
إلى من أشتكى؟ ولمن أناجي إذا ضاقت بما فيها الصدور

أما أبو الطيب فلم يذكر بيدها واحداً في شعره عن أمه، ربما لأنها ماتت وهو صغير، وربما لأشياء أخرى نجم لها، وإن كان له قصيدة في رثاء جدته

(١) يديل هذه الحال: يغيرها.

(٢) ١- شعر الخماسية

عندما مات وهو شاب كبير ، وكان يدعوها بأمة فقال يرثيها :

ألا لا أرى الأحداث هكذا ولا ذما
فسا بطشها جهلا ، ولا كفتها حذرا
أناها كنتاجي من بعد يأس وترحة
فانت سُرورا بي فت بها غما^(١)
ثم ينقل وهو يرثيها إلى القبر الجاسي فيقول :
فأصبحت استقى الغمام لغيرها
وقد كنت استقى الوغى والقنا الصُما^(٢)

ويقول :

وأي لمن قوم كأت نفوسنا
بها أنف أن نكن اللحم والتظما^(٣)

وهكذا نرى كيف انحرف الرجل عن رثاء جدته إلى الحاسة والنشر .

فأبو فراس بإحساسه ووجدانه ، وطبيعة تكوينه وظروف حياته أقدر على تصوير الحزن ، ورثاء الأم ، ومناجاة الإخوان ، وشكوى الغربة
وكان مؤمنا تقياً يميل بقلبه ووجدانه إلى الشجعة ، ويرجم الحبيب في انتصاراته
وانكساراته إلى قضاء الله وقدره ، وليس هذا في موقعة واحدة فقط أو في
قصيدة أو مقطوعة واحدة فحسب بل في القصائد ذوات العدد لكان القنبي كان
مشغولاً بنفسه منصرفاً إلى أهله وطموحاته على حساب أشياء أخرى ، ومنها

(١) ترحة : حزن .

(٢) القنا : الرماح ، الصم : الصلاب .

(٣) أي من طيبينوم الحرب دائماً ليوتوا بها .

بالطبع الفكر والعقيدة ، مع أننا قرأنا له شعرا يمتدح فيه سيف الدولة ويحمله
يقاثل باسم الاسلام دعاة الشرك ، ويحارب ضد الروم من أجل التوحيد ورفع
راية الإسلام .

وقد تفوق أبو الطيب - كما ذكرت وأكدت - في الشعر بوجه عام وفي المدح
وشعر الحرب ووصف الخيل بوجه خاص ، وجاءت الألفاظ في شعر الحناسة
خاصة قوية جزلة ، وضخمة وذات جرس ، وقد أجاد في صناعاته اللفظية ، وقوة
سبك المعبارات ، وخلق الصور المعنوية باقتدار وابتداع ، وعاطفة صادقة
وعذبة وخياله رائع ، وصوره جميلة ، والمعاني عنده بعيدة النور ، بل لا نجد
الحقيقة إذا قلنا إن معانيه فريدة ، ولا يقدر شاعر على مجاراته في الأساليب
والتمايز البارعة ، والأخيلة الجذابة الوثابة ، والمعاني الرائعة ، والسبك القوي
فمكان بحق في سنيانته الحناسة شاعرا عظيم الشعر .

وفي هذا اللون الشعري نجد الحسكة والفلسفة ، والأمثال الرائعة التي كانت
نتيجة لما حصله أبو الطيب من علوم مترجمة عن الأمم الأخرى ، فقد كثرت
الحكمة عنده - ومزج معانيه بروح فلسفية ، واستعان بعقله وتفكيره المنطقي
في توليد المعاني الخاصة بالحرب ووصف الخيل ، ومدح سيف الدولة .

وقد امتاز بالبالغة في المعاني إلى درجة قد تنصل إلى الغلو المسرف أحيانا
فقد قال سيف الدولة :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي إلى قول قوم أنت بالنيب أعلم

وقال عنه :

تندو النساء فلا تنفك واقفة .. حتى يقول لها عودي نتقدم

وقال :

تظل ملوك الأرض خاشعة له تفارقه هللكي وتلفاه سجدا

وقال :

وشول إلى المستصعيات بخوله لو كان قرن الشمس ماء لأوردا

فن يقرأ هذا الشعر فلا يشك لحظة واحدة في أنه لديني أمير الشعر في عصره،
ورائد الحماسة في كل العصور (وحتى الآن) من غير إسراف أو مبالغة .
والألفاظ عند أبي فراس رقيقة ايقة مناسبة ، كأنه يتنى ويعزف على أوتار
حزينة وللماني مقنوعة ، وفي بعضها سطحية وسذاجة ، وهو شاعر وجداني
يستعين في نغمه وحاسه بالمخالطة الصادقة العميقة ، فلم يكن سمرزقا أو منكسبا
بقول الشعر بل كان أميرا محاربا ، وشاعرا فنانا ، وفارسا عظيم القتال خلصا
في روميائه سيف الدولة ولثومه جميعا ، وفي بعض أشعاره نفسك يكشف
عن ضيقه ، وألمه ، ومماناته في الغربة ، وحزنه على أمه وأسرته .

وربما كان ما في شعره من دقة الإحساس ورقة الشعور ، وصدق العاطفة
ملائما لتلك الحياة المتينة التي كان يحياها الحمدانيون في ساحات القتال ،
وملائما أيضا لمجالس اللهم والترف في قصور بني حمدان في حلب ومنيج
وغيرها .

وكان أبو فراس مقاتلا بارزا ومتفوه على أبي الطيب في الشجاعة والهامولة
لأنه حمداني قبل أن يكون شاعرا أو واحدا من شعراء سيف الدولة .

ومن مميزات أنه كان يصير على الشداوب ، ويؤمن لإيماننا قولا بأنه ويرضى
بقضائه ويلتزم بأدب الففس وآداب الحرب .

والسكندر من شعر الحماسة عند أبي اللؤب التتني جاء في صورة قصائد مقنوعة

بين الطول والقصر ما بين العشرين والثلاثين والخمسين ، وله قصائد أطول من ذلك ، وله أيضا بعض المقطوعات ، ولكنها قليلة بالنسبة لقصائده الخماسية .

والكثير من الشعر الحماسي عند أبي فراس جاء في صورة مقطوعات صغيرة ما بين ثلاثة أبيات إلى خمسة ، وفي شعره قصائد كثيرة تزيد على الثلاثين ، وقد تصل إلى المائة بيت ، وفيه قصيدة واحدة ذات شكل ملحي ، تزيد عن المائتين ، فجاء شعره مقنوعا ، والكثير منه كما ذكرت مقطوعات تلاثم حياة الأمير وشرود القهن ، وحديث النفس إلى النفس ، ولأن الشعر الحماسي عنده موزع منتشر في معظم أشعاره على عكس المتنبي الذي يمكن حصر الشعر الحماسي عنده في عدد محدود من القصائد والمقطوعات .

ولقد كانت شهرة أبي الطيب ، ومقدرة الشعرية سببا في حجب الأضواء عن أبي فراس ، كما كانت موهبة الشاعرين وعطاؤهما لفن الحماسة وانفرد به من الفنون ، ومكانتهما في مجالس الأمير ، واشتراكهما في الماوك ودقة وصفهما للوقائع سببا رئيسا ووجيها في علو صوتهما ، وحظوة شعرهما بما أضر بعدد كبير من الشعراء في بيئة حلب ، وأسفل عالمهم ستارا من النسيان مع أن إهمالهم قدرة وموهبة في قول الشعر (كالسرى الرفاء) الذي شاء له حفظه أن يكون حيث يوجد أبو الطيب المتنبي في الصف الأول ، ومن خلفه أبو فراس الحمداني .

الباب الثاني

شعر الحاسة في عصر الحروب الصليبية

الفصل الأول

الحروب الصليبية وأشهر حملاتها

على الشرق الإسلامي

تمثل الحملات الصليبية وما جرى فيها من حروب دموية مرحلة من مراحل الصراع الدائم والغلاف المستمر بين الشرق والغرب . وقد ذُكرت أسباب عديدة لهذه الحروب التي دارت رحاها في الشرق الإسلامي ، والتي استمرت لمدة قرنين من الزمان . وأشهر هذه الأسباب على الإطلاق هو السبب الديني الذي أشيع بعد هجمات السلاجقة (الأتراك) على أملاك الروم في آسيا الصغرى ، ثم أذاعت الكنيسة البابوية بروما في سائر أوروبا أن المسلمين في بيت المقدس قد أهانوا قبر المسيح ، واعتدوا على زائريه . وعلت الأصوات الأوروبية مطالبة بحماية هذه الأماكن المقدسة ، ودعا البابا (أربانوس الثاني) في كليرمونت جنوبي فرنسا بدء هذه الحملات في نوفمبر سنة ١٠٩٥ م (٤٨٨ هـ) . ودعا الأوروبيين إلى وقف حروبهم الداخلية ، والانجساف إلى محاربة المسلمين . واستجابت لهذه الدعوة الجموع الفقيرة التي عاشت حياتها حرباً و قتالاً كي تهرب مما أصاب أوروبا في هذا الوقت من جفاف وقحط ، وحق تحقق رغبات السكهار من ملوك الدول وزعماء الجيوش في تأسيس الممالك والإمارات في بلاد الشرق .

وقد تمس الصليبيون لخلاصهم بسبب الفسكك بين بلدان المسلمين ، فقد أضحت مصر والشام والعراق وإيران وغيرها متصارعة تقتتل فيما بينها أحر

تقال ، ولانطلق على قتال عدوها ، فضلا عن ضعف المسلمين وتقهقرهم بالاندلس في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري .

فالسبب الذي لهذه الحلات لم يكن إلا ستارا اختفت تحته أطماع الأوربيين في السيطرة على الشرق واستغلال خيراته .

وبعد الشحن المدفوي ، والتجهيز الذهني ، والاستعداد القتالي لهذه الحروب تجمعت الجيوش من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها ، والتقت في القسطنطينية ، ثم هيرت مضيق البوسفور ، ووصلت إلى آسيا الصغرى ، وتوغلت في بلاد المسلمين في سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) وبعد هذا التاريخ البداية الحقيقية والفعالية للحروب الصليبية ، قال ابن الأثير : « فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام »^(١) .

وسميت حملاتهم بالصليبية إشارة إلى الصليب الذي حملوه على صدورهم ، واستجابة لدعوة البابا حامل الصليب الأكبر .

وقد استمر تدفق الفرنجة على الشرق منذ بداية الحروب وحتى نهايتها بفتح مكة سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) في بداية حكم المماليك بمصر ، وبعد انتقال الخلافة المباسية إلى القاهرة .

واشتهر من هذا التدفق سبع حملات لما في قضايتها من زعامة ، ولما في أهدافها من ضغامة ، ولأنها وفدت في ظل ظروف سياسية وحربية خاصة . وقد استمر جهاد المسلمين في مقاومة هذه الجيوش طوال مدة تواجدها في أرض المسلمين .

(١) السكامل ج ١٠ ص ٢٧٢ أحداث سنة ٤٩١ هـ طبعة دار صادر ، بيروت .

الرحلة الأولى :

نزلت هذه الرحلة في آسيا الصغرى ، وحقت عدة انتصارات على سلاجقة الروم المسلمين في سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) في البلاد التي كانت خاضعة لنفوذهم . وكانت الرحلة مكونة من ثلاثة فيالق ، ونضم مائة وخمسين ألفاً . وقد استولوا على الرها وأنطاكية في شمالي سورية ، وكونوا بهما إمارتين صليبيتين في سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م) . ثم استولوا في السنة التالية على بيت المقدس وجعلوا منه أكبر مملكة صليبية في الشرق ، وكان تحت نفوذ الفاطميين ، ثم دعموا انتصارهم في بيت المقدس بعدة انتصارات أخرى على الجيش المعري في فلسطين (سورية الجنوبية) فأحكوا قبضتهم على الرملة وعكا وحيفا ولبنا وغيرها . ومجى الأسطول المعري من حابة المدن الساحلية ، وزادت شهينة الفرنجة للانتصار ففرضوا حصاراً حول طرابلس لمدة ثمانية أعوام حتى سقطت في أيديهم سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) . وجعلوا منها إمارة رابعة ، وأحكوا سيطرتهم على صيدا وعسقلان .

وفي الوقت الذي كانت فيه البلدان الإسلامية تقع في أيدي الفرنجة واحدة تلو الأخرى كان السلاجقة في صراع دائم حول السلطة ، ولهذا تركوا البلاد لأهلها يدافعون عنها ، كما كان الفاطميون في مصر يرون أنه ليس من واجبهم أن يدافعوا عن بلاد من واجب غيرهم أن يدافعوا عنها ، وهذه أناة حقا ، ونظرة ضيقة ، وخور لا يليق ، فلم يلبث الصليبيون أن استولوا على المستلكات الفاطمية في فلسطين بل هددوا مصر ، ودخلوها أكثر من مرة .

كان العرب في الشام يدافعون عن بلادهم بكل قوتهم ، ولم يكونوا أمة سائفة - على ضعف إمكاناتهم - للنازحين ، فلم تستلم أنطاكية إلا بعد حصار دام تسعة أشهر ، وعند الاستيلاء على بيت المقدس قتل الفرنجة من أهلها أكثر

من سبعين ألفاً من الأطفال والشيوخ والنساء . وقد قاومت طرابلس طوال مدة الحصار وهي ثمانى سنوات مما يؤكد شدة المقاومة وعدم الاستسلام بسهولة .

وقد حققت الحملة أهدافها ، وسقطت على مملكة بيت المقدس ، وفرضت نفوذها على سواحل الشام ، وذلك « لتفتت وحدة المسلمين ، واختلاف مذاهبهم الدينية التي فرقت بين قلوبهم »^(١) .

كيف استقبل المسلمون هذا الغزو ؟

كان الخليفة المماليك لا يستطيع حماية نفسه ، فقد فرضت عليه رقابة شديدة من عناصر تركية ليس لها ولاء للعروبة ، وربما كان ولاؤها للإسلام ولاء ظاهرياً .

والسلاجقة هم « مجموعة من التتار التي دفعتها الظروف الاقتصادية والسياسية إلى كثرة التنقل انتجاعاً لمواطن السكك » ، وبمقتضى أسباب العيش الرغيد^(٢) ، وقد امتد نفوذهم من فارس إلى العراق في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ثم اتسع ليشمل شمال الشام وآسيا الصغرى ، وكانوا قد استولوا (قبل الصليبيين بالطبع) على دمشق وحلب والرها والموصل .

واسقطوا أن ينزعوا فلسطين من يد الفاطميين ، ولكن الغزو الصليبي دمهم عندما كانوا « منقسمين على أنفسهم يتقاتلون فيما بينهم للظفر بمرش

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد أحمد بدوي ص ١٦
الطبعة الثانية دار نهضة مصر سنة ١٩٧٩ م .
(٢) دولة السلاجقة للدكتور عبد النعيم حسنين ص ٣ .

السلطنة فشلتهم أهواؤهم الشخصية عن التنبيه إلى الخطر الخارجى مما يسر للصليبيين النصر فى حروبهم الأولى»^(١).

وقد استغاث أهل طرابلس أثناء حصار الفرنجة لهم بالخليفة الموحى ، فأحالهم إلى السلطان الساجوقى ، فأرسل قوة منيرة لم تثبت أمام جيش الصليبيين .

ومكثا :أتت الشام إلى العراق فلم يسمعه ، فولى وجهه شطر مصر حيث الدولة الفاطمية التى كانت فى نزاع دائم مع السلاجقة حول نفوذ كل منهما فى أرض الشام .

وينسب الفاطميون إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد بدأت الدولة الفاطمية فى تونس بالمغرب العربى فى شمالى أفريقيا ، ثم امتدت نفوذها إلى مصر فى شعبان ٣٥٨ هـ (يوليو ٩٦٩ م) ، ونقلوا إليها مقر خلافتهم ، وبسطوا سلطانهم على أجزاء عديدة من الشام .

وتتابع الخلفاء الفاطميون فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وأخذ سلطانهم يتقلص شيئاً فشيئاً مع بداية حكم المستنصر بالله (٤٣٢ هـ) حيث بدأ عصر نفوذ الوزراء ، وظهر منهم « بدر الجالى » ، وتموضت الدولة الفاطمية فى الشام لهجمات القرامطة ، وتوسع السلاجقة . وبدأ الزحف الصليبي فى عهد الخليفة المستعلى ، ثم زاد خطره ، وعم ضرره فى عهد الخليفة الأمر ووزيره أحمد بن الأنضل بن بدر الجالى .

« وكان السلاجقة على مذهب أهل السنة بينما كان الفاطميون على مذهب الشيعة ، نسمى كل من الطرفين إلى الإيماة بالطرف الآخر ، فلم ينف الطرفان

(١) المرجع السابق ص ٨٧ .

مما صفا واحداً ضد الخطار الصليبي الداهم الذي أخذ يهدد نفوذ كل منهم في بلاد الشام تهديداً مباشراً حينذاك^(١)

وهكذا كان الشام أثناء الغزو الصليبي منطقة نزاع بين الفاطميين والسلاجقة، فالجزء الشمالي منه تحت سيطرة السلاجقة، والجنوبي تحت سيطرة الفاطميين، والأجزاء الداخلية مجزأة إلى إمارات ممتدة عليها زعماء من العرب، وقد دخل الصليبيون أثناء هذا التفكك، وسحبوا الأرض من تحت أقدام السلاجقة والفاطميين والأمراء العرب.

مقاومة الصليبيين

لقد شعر المسلمون بالحسرة لما أصابهم وحلّ بأوطانهم، وعندما تنبهوا لهدمهم، واستيقظوا من غفوتهم هبوا لغمرة دينهم، وللدفاع عن مقدساتهم، ولم يدعوا الفرنجة يتمتعون بالأمن زمناً طويلاً، وعن شارك في هذه المصحوة حماد الدين زنكي زعيم الدولة الأتابكية بالموصل، وقد عاونه في مقاومة الصليبيين نجم الدين أيوب الذي كان حاكماً لشكريت وأقصى عنها هو وأخوه أسد الدين شيركوه، وقد أحسن حماد الدين استقبالهما في الموصل، وأخاه عليهما من سابق كرمه مما جعلهما يخلصان له، ويتفانيان في خدمته، وساعداه حتى حارب الصليبيين، وانقصر عليهم في مواقع كثيرة، وتوج مقاومة لهم باسترجاع إمارة الرها سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م). وتوالت الانتصارات في عهده حتى قتل، فاستقل ابنه نور الدين محمود بالجزء الشمالي الغربي من الشام، وجعل (حلب) مركزاً لنشاطه، ومتراً لحسكه، بينما استقل أخوه (سيف الدين غازي) بالموصل ومناطق أخرى في العراق.

(١) المرجع السابق ص ٩٠.

وقد قام نور الدين بدور أبيه في مقاومة الصليبيين نقاض ضدّهم عدّة معارك ناجحة واستخلص منهم أجزاء كثيرة من الشام ، وبسط نفوذه عليها .

الحلة الثانية — ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) :

كانت هذه الحلة موجهة أساساً إلى نور الدين محمود لتأديبه والفتضاء عليه حتى يتحول الصليبيون إلى الدّ بعد الجزر الذي عانوا منه ، ولم تحقق هذه الحلة أهدافها ، فغذى المسلمون على معظمها في آسيا الصغرى ، وانضم ما بقي منها إلى قوات الصليبيين بالشام ، وتجمع منهم عدد كبير حاصر دمشق ، وعبث بأرض الشام ، وتصدى لهم نور الدين ، وحاصرهم من الشمال والشرق واستولى على دمشق ، وعلى عدّة مدن من إمارة أنطاكية ، وقبض على أميرها ، وأمير طرابلس ، وأطلق سراحهم بدية كبيرة ، ثم تحولت الأنظار من الشام إلى مصر .

ستوط الدولة الفاطمية ، وتقيام الدولة الأيوبية :

كان نور الدين قد قرّب إليه رجال أبيه نجم الدين ، وأسد الدين ، وصالح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب في الوقت الذي كان فيه الماضد آخر الخلفاء الفاطميين في دعر شديد من عبث الوزراء شاور السعدي وضرغام بن عامر ، وكان من أصل مغربي ، فقد عاثا في أرض مصر فساداً ، وكانا يمثلان آخر الخلفاء في فوضى الوزارة الفاطمية .

واستغاث شاور بنور الدين ، واستنجد ضرغام بالصليبيين ، وبهذا أصبحت مصر هدفاً للغزو الخارجي ، واستجاب نور الدين لاستغاثة شاور لفرض أساسى وهو حماية مصر من الصليبيين ، وحتى لا يتسع نفوذهم ، ويصعب

استنصالحهم ، فأرسل إلى مصر ثلاث حملات مواكبة لرحلات مائة من الصليبيين . فقد كانت جيوش نور الدين وجيوش الصليبيين تأتي من الشام لتتقاتل في مصر .

وفي الحملة الثالثة ، وكانت في سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) تمكن أسد الدين وابن أخيه من حيازة مصر من الغزو الصليبي .

وتولى أسد الدين الوزارة لمدة شهرين ثم توفي ، وتولاه من بعده صلاح الدين الذي استمر في الحكم وتسيير الأمور إلى أن مرض الخليفة الفاطمي المعاضد ، وأشرف على الموت فمزله ، وأسقط اسمه من خطبة الجمعة في سنة ٥٦٧ هـ .

وقد أحل صلاح الدين المذهب السني محل المذهب الشيعي ، وأخذ يحكم باسم نور الدين ، فسكان يدعو له وللخليفة العباسي إلى أن توفي نور الدين زنكي سنة ٥٦٩ هـ ، فاستقل صلاح الدين عن آل زنكي ، واكمل قيام الدولة الأيوبية ، ثم بدأ في توسيع نفوذه لتطويق الصليبيين في إماراتهم بالشام ، واستولى على الغزوة والسودان واليمن ، وبلاد الحجاز والشمال الأفريقي وعلى أجزاء كثيرة من الشام .

وبعد أن اتسمت مملكة الأيوبيين أخذ الناصر يجهز نفسه للحرب الحقيقية ضد الصليبيين في إماراتهم على السواحل المروبية بالشام ، وقد صبر على عدوانهم ، ولم يواجههم إلا بعد أن جمع حركه معظم القوى العربية والإسلامية لمعاضده وتنطلق منه إلى محاربة عدوهم جميعاً الذي هلك الحرث والنسل ، وعبث بالمقدسات ، وطغى على الحرمات ، واحتل الأرض ، وأهدر القيم .

وقد تحقق لناصر معظم ما أراد فانهصر عليهم في مواقع كثيرة منها موقعة

حطين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ثم فتح بيت المقدس ، واسترجع عكا وماحولها ،
وتخلص وجود الفرنج على سواحل الشام .

الرحلة الثالثة سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) :

تولى قيادة هذه الحملة « ملوك أوروبا السكبار مثل فردريك بربروسا
أمبراطور ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أغسطس ملك
فرنسا »^(١) . وقد جاءت هذه الحملة إلى الشام بعد استرجاع صلاح الدين لبيت
المقدس ، واستيلائه على عكا ، وبعد الدوى الهائل الذي هز الشرق والغرب
الانتصار العظيم في حطين ، وقد تجمع من وصل منهم إلى من كان قد بقي
في صور ، تجمعوا في حصار عكا حتى استسلمت لهم ، وسقطت في أيديهم
سنة ٥٨٧ هـ ، ولم يتمكفوا من استرجاع بيت المقدس ، فقد استقبل المسلمون
في الدفاع عنه ، ولهذا أخفقت الحملة في أجل مهمة نيّطت بها . وجرت عدة
معارك بين صلاح الدين وملك الإنجليز (قلب الأسد) وكانت الحرب سجالا
بينهم حتى وقع الطرفان صالح الرملة سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) ، ثم مرض
صلاح الدين مرضاً قصيراً حتى توفي سنة ٥٨٩ هـ بعد حياة حافلة بالكفاح
والفجاء دامت سبعة وخمسين عاماً .

وقد تمرضت دولة الأيوبيين بعد رحيل مؤسسها لمزة عنيفة ، لكن خلفائه
من بعده استطاعوا أن يتخطوا تلك العقبة ، وواصلوا المسيرة على الطريق
الذي اختطه لهم فامتدّت دولتهم أكثر من ثمانين عاماً حتى حلّ بها المماليك
بعد أحداث موقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٥ ص ٦٢٠ .

الحملات الصليبية الأخيرة :

وأصل الصليبيون تدفقهم في حملات متعددة إبان القرن السادس الهجري ، فكانت الحملة الرابعة موجهة إلى القسطنطينية لإسقاط كنيسةها والسيطرة عليها . ثم كانت الحملة الخامسة في عهد الملك العادل ، وهي التي تقدمت إلى دمياط ، واستولت عليها سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) وقد حاصرهم الملك الكامل محمد بمد وفاقه أبيه ، وأجلاهم عنها .

وكانت الحملة السادسة بقيادة فردريك الثاني مكنة ومعاونة لسايقها ، وأخيراً جاء لويس التاسع ملك فرنسا على رأس الحملة السابعة والأخيرة ، وكان هدفه بيت المقدس ، ونزل مصر عن طريق دمياط سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، وقد تطورت الأحداث ، ووصل الصليبيون إلى مقر الجيش المصري بالمنصورة ، وهزم الفرنجة شر هزيمة ، وأسر لويس التاسع ، وحبس في دار ابن لقمان^(١) ، وضاعت الأحلام بين النفل والأسر والتشريد .

جهود المماليك في مقاومة الصليبيين والتفار :

باشير للمالوك حكم مصر بمد مقفل توران شاه وهم « أشنات من شبه جزيرة النرم ، وبلاد القوقاز والقفجاق ، وآسيا الصغرى ، وفارس وتركستان ، وبلاد ما وراء النهر فقيهم عنصر الأتراك ، وفيهم الأشراكسة ، والروم ، والأكراد ، وبعضهم من البلاد الأوروبية أيضاً »^(٢) .

(١) دار بالمنصورة كان ينزل بها شر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء في هذا الوقت .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٥ ص ١٩٧ .

وبينا كان المماليك يوطدون دعائم ملكهم في مصر ، أقبل التتار على البلاد العربية ، فأسطوا الخلافة المملوكية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وواصلوا زحفهم إلى الشام ، واستسلمت لهم البلاد واحدة بعد الأخرى ، وأرسل هولاكو حفيد (جنكيز خان) إلى سلطان مصر (قطز) عندما اقتربوا من الحدود المصرية رسالة تهديد ووعيد ، واتفق المماليك والقادة على قتل سفراء التتار ليكون ذلك إيذاناً ببدء الحرب . وكانت معركة عين جالوت في ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، فانتصر المسلمون انتصاراً حاسماً ، وردوا عن البلاد هذا الخطر الهادم ، والشر الويل . ثم استولى المماليك - بعد هذا الانتصار - على أجزاء كثيرة من الشام ، ونقلوا الخلافة المملوكية إلى مصر سنة ٦٥٩ هـ ، واستمرت قائمة بها (بالاسم فقط) حتى بداية الحكم العثماني .

وكان النصر في عين جالوت فاتحة لانتصارات أخرى للمماليك على التتار الذين تكررت محاولتهم للإستيلاء على مصر ، ثم نجحت مصر والشام لإعادة الحصار حول ما تبقى للصليبيين على سواحل الشام ، وواصل للمماليك إحكام سيطرتهم في فرض الحصار حتى أزاحوهم عن إمارتي أنطاكية وطرابلس ، والجزء الذي كان باقياً من بيت المقدس ، وأكلوا ما كان صلاح الدين قد بدأه .

وفي عهد الحاكم المملوكي (الأشرف خليل) سقطت عكا ، ودمرت آخر الحصون الصليبية ، واستسلمت كل البلاد التي كانت باقية لهم ، وانتهى عهد الصليبيين في الشرق^(١) ، وذلك في سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) بعد أن استمر احتلالهم لأجزاء عزيزة من فلسطين ما يقرب من مائتي سنة ، وأسدل الستار على فصول هذا الصراع الطويل .

(١) المرجع السابق ج ٥ ص ٢٢٢ .

وهكذا فشلت الحملات الصليبية على مصر والشام لحاسة المسلمين في الدفاع عن أوطانهم ومقدساتهم ، ولوجود رجال أبطال ، وقواد أذداد وحبوا أنفسهم للجهاد العظيم ، ولعمادون سكان البلاد معهم ، فالأرض تنطق بلسان أصعاجها ، ولملك - عزى الفارى - لاحظت انتشار القرصية عند انقسام العرب وتفككهم ، ولما انحدرت كلهم وتجمعت قوتهم الحقوا المزامم بالصليبيين سواء في عهد صلاح الدين أم في عهد المالك .

ومن أسباب الفشل في هذه الحملات أيضا أن القواد الذين وفدوا من النوب لم يكونوا يعملون من أجل أهداف مشتركة ، بل من أجل أغراضهم وأهدافهم الخاصة .

وقد توقفت الحملات الصليبية في الوقت الذى كان التتار يقومون فيه بمهاجمة الشرق الإسلامى ، فقد نهضوا بما كان مدعوما بالصليبيين ، فانصرف المالك إلى مواجهة التتار حتى انتصروا عليه ، ولهذا ربما كان انصراف أوربه عن الشرق ، وعدم تفضيحه بمحملات جديدة سببا من أسباب فشلهم في البقاء بفلسطين .

وقد تشجع المالك - بعد انتصارهم على التتار - على مقاومة الصليبيين ، وتطهير الشام منهم بعد قرنين من الاحتلال البغيض . وفي النهاية لم تسفر هذه الحملات وما جرى فيها من حروب إلا عن مزيد من العداء والكراهية بين الشرق والغرب .

الفصل الثاني

الشعر الحماسي في ألوانه المتعددة

تابع الشعراء في عهده الحروب الصليبية أسلافهم القدامى في الحث على الجهاد والتحرير على قتال، والدعوة إلى المصارمة والكفاح، وافتدوا بهم في وصف المارك، والإشادة بالإنجازات، وتحميد البطولة، وثناء الأبطال الذين يستشهدون في الحروب، أو يموتون خارجها وهم يستعدون لها، إذ أن العرب في جاهليتهم وإسلامهم كانوا يتقاتلون ويتحاربون مع بعضهم، أو مع جيرانهم، وقد حفلت دواوين شعرائهم بالعديد من القصائد والمنطوعات الحماسية، ولما اشتعلت الحروب الصليبية، وعلا لهيبها انشغل الشعراء بها، واستجابوا لأحداثها، فالشعراء مرآة لمصورهم ومجتمعاتهم، ولهذا انصرف الكثير منهم عن فنون الشعر المختلفة، وتفرغوا لهذه الحروب يحرصون الفاس عليها، ويحثون الأبطال على مقاتلة الفرنج المحتلين، ويوقدون الحماسة في صدور المقاتلين، ويسجلون ما دار في أرضها، وأنطاكية، وحلب، وعكا، وبيت المقدس، ودمياط وغيرها، ويشيدون بالقادة المسلمين، ويأسفون ويتحسرون لكل تقدم يحرزه حملة الصليب، ويفرحون لكل نصر يحققه المسلمون. واستمر الشعراء عبر أجيالهم المتعاقبة لمدة قرنين من الزمان يتابعون المارك، ويتصلون بالزعماء، ويعايشون الأحداث، ويفخرون بالأبطال، وقد كانوا يتناولون هذه الحروب من زاوية الدين فجاء شعرهم نابهاً بالروح الدينية، مقدفاً بالحماسة في كل أرجائه، غزيراً متنوعاً، مواكباً لاتجاهات العصر.

وكان شعراء الشام أول من تجاوب مع هذه الحروب، فأشادوا بجهاد

للسلمين ، وعبروا عن حاستهم في عهد الزعيم العظيم عماد الدين ، وفي عهد ابنة نور الدين ، وهم من مصر عدد من الشعراء ، على رأسهم وفي مقدمتهم الوزير المصري طلائع بن رزبك « الذي لو طال به العمر ، وواتته الظروف السياسية في مصر لأظهر من الهمة في محاربة الصليبيين ما كان خليقاً أن يسطر له في كتاب الحروب الصليبية أروع الصفحات »^(١).

وفي عهد صلاح الدين اشتركت مصر مع الشام بقدر متساو في الشعر الحماسي إلى أن انتهت هذه الحروب . أما شعراء العراق فكانوا منصرفين إلى انخفاء المياسين ، وإلى حيواتهم الخاصة باستثناء عدد منهم لم يذغل عن هذه الحروب ولعل منهم ابن التعاويذي .

ولقد طالت الحروب الصليبية ، وكثر شعراؤها ، فهم يمدون بالثبات وليس بالمشقات ، وكثر الشعر في هذه الفترة كثرة كبيرة ، ومعظمه يمكن أن يكون شعراً حماسياً نابضاً متوهجاً ، لسكنا سقصر حديثاً عما كان حماسياً صرفاً خالفاً . وسوف نعرض فيما يأتي من صفحات لأهم الألوان الحماسية في شعر الحروب الصليبية .

أولاً — التحريض على القتال والدعوة إلى الجهاد والمقاومة

انقاسقتر الفرنجة في أرض المسلمين ، وأقاموا إماراتهم بالشام وأطراف العراق ، وواصلوا هجومهم على مصر ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك لحاولوا

(١) أدب الحروب الصليبية للدكتور عبداللطيف حزمة ص ١٤٠ ، الطبعة الأولى ١٩٤٩ م . دار الفكر العربي .

الاعتداء على المقدسات الإسلامية في الحجاز ، وعندما استيقظ المسلمون من غفوتهم ، وأفاقوا من رقدهم ، وتذهبوا للشطر الذي أحرق بهم أشعلوا نار المقاومة ، وهبوا للدفاع عن دينهم وأرضهم ، واستجاب الشعراء انداء دينهم ووحى ضمائرهم ، بل كان الأمر يبلغ بهم أحياناً « مبلغ البكاء والنعيب عندما يرون هدف الصائبين ، وتخريب البلاد ، وقتل أهلها ، وتشريدهم ... والبكاء ليس من قبيل السلبية أو اليأس في المقاومة كما يقبدر إلى بعض الأذعان » وإنما هو على عكس ذلك مثير للحمية ، فهو يقترن عادة بمرض الفاجعة ووصف النكبة وتصوير المحنة ، يؤثر في النفوس ويثير المزاج ، وقد يكون في تأثيره أشد وأبلغ ، ما يقفحه إلى التفاؤل الصريح ^(١).

وقد حاول الشعراء أن يدفعوا الناس إلى القتال ، ويحثوا الحمم في النفوس فأنجموا بشعرهم الحلقى إلى الملوك والأمراء ليحرضوهم على قتل الأعداء ، ومن استجاب لهذه اللفتة ، وشارك في هذا التحريض من الشعراء ابن الخطيب الحموشي ^(٢) الذي خاطب واحداً من أمراء الشام الممورين فقال له :

وإني لم-نر إلـيـك القـريـة من يعلو على الفصح والنصح بهدي
إلى كم ، وقد زخرَ المشركون بسيل يهال له السيل مددا
بتوا الشرك لا يذكرون الفساد ولا يعرفون مع الجور قصدا
ولا يردعون عن القتل نفسا ولا يتركون من الفتك جهدا
فكم من فتاة بهم أصبحت قدق من الخوف محزنا وخدا
فخاموا عن دينكم والحريم محاماة من لا يرى الموت فقدا

(١) أدب المقاومة لمياس خضر ص ١٥ دار الكتاب العربي .

(٢) توفي سنة ٥١٧ هـ ، وهو أبو عبد الله ، أحمد بن محمد التنلي ، الدروفي بابن الخطيب .

وَسَدُّوا الثُّغُورَ بِطَمَنِ النُّجُورِ فَنُ حَقٌّ ثَمَرُ بَكْمٍ أَنْ يُسَدَّ
فَقَدْ أَيْتَمَتْ أَرْؤُسُ الْمُتْرَكِينَ فَلَا تَنْفِلُوهَا قَطَافًا وَحَصَدًا
فَلَا بَدَّ مِنْ حُدُومِ أَنْ يُقَلَّ ، وَلَا بُتَّ مِنْ دَكْنِيْمٍ أَنْ يُهْدَا

فالشاعر في هذه الأبيات يحرض أميراً صليوياً على قتال الأعداء ، وقد ذكر بعض جرائعهم مما يستوجب محاربتهم ، وكان ابن الخياط واقعياً صادقاً في حثه وتحريضه ، ويكفيه نفراً أنه كان من أوائل الداعين إلى مقاومة الصليبيين .

وكان البطل عماد الدين زنكي من أوائل الأبطال الأعظم الذين قادوا المقاومة ، وتحركوا بقوة للدفاع عن بلاد الإسلام ، والتف الشعراء حوله ، وأخذوا يستنجدون به ويأمرهم العرب ، ويهيبون بهم أن يتحركوا لرحضة الأعداء . « وإن من يتنعم دواوين شعراء هذا العصر يجدها زاخرة بالتجريض على القتال ، والتمنيئة بالفصر ، والجد على حسن البلاء ، فتري الشعر في هذه الدواوين وقد لبس ثوب الحقيقة واتصل بالواقع أتم اتصال فصارت له روعة ودبت فيه حياة »^(١) .

وكان الوزير المصري الفاطمي بالله الصالح (طلائع بن زُرَيْك) من أوائل شعراء مصر الداعين لحرب الصليبيين ، ويرى أن ذلك ان يحقق إلا بتعاون مصر والشام .

وعندما تولى الوزارة في مصر في أعقاب قتل الخليفة (الظاهر) سنة تسع وأربعين وخمسة عمل على إعادة الأمن ، وتوطيد النظام ليقيم له التحالف والتعاون مع نور الدين محمود في محاربة الصليبيين والقضاء عليهم . ولم يوفق

(١) الأدب العربي في مصر لمحمد مصطفى ص ٢٧٧ دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م .

ابن رزبك في آماله الدينية والسياسية ، ولم يتفق مع نور الدين على الهدف المشترك وهو مقاومة الفرنج المغيرين لأن نور الدين (حاكم الشام) كان حذراً من خلفاء مصر ، ولم يثق فيهم الثقة التي تدعوه وتشجعه على التعاون معهم ، أما ابن رزبك فلم ييأس ، واستمر في إرسال الأسماعيل والهدايا إلى حاكم دمشق لتحقيق هذا التحالف ، « ولو أن مصر كانت قوية في ذلك الحين ، أو كانت تقادها كمقائد دمشق ، اسكان لإتحاد مصر والشام جديراً بأن يقذف الصليبيين إلى البحر »^(١) .

ومن شدة لفتة ابن رزبك على التعاون مع نور الدين أنه كان حريصاً على الصلح بينه وبين قايح أرسلان بن مسعود صاحب الروم ، فكتب إلى هذا الأخير ينهيه عن ذلك ويحثهما معا على التعاون والتآلف في قتال الفرنج ، وهم العدو المشترك لهما ولغيرهما من المسلمين قال :

نقول ، ولكن أين من يتفقهم
ويعلم وجه الرأي ، والرأي منهم
وما كل من فاس الأمور وساسها
يوفق للأمر الذي هو أحزم
وما أحد في الملك يبتغي مخرجا
وما أحد مما قفى الله يسلم
أين بعد ما ذاق العدا طعم حوبكم
يفهم ، وكانت هي صاب وعلقم

(١) مقدمة ديوان ابن رزبك ص ٧ طبعة دارنضة مصر تحقيق الأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي .

رَجَعْتُمْ إِلَى حَكَمِ النَّفْسِ بَيْنَكُمْ
وَفِيكُمْ مِنَ الشُّعْنَاءِ نَارٌ تَغْرِمُ
مَا عِنْدَكُمْ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ وَحْدَهُ
أَمَّا فِي رَعَايَاكُمْ مِنَ النَّاسِ مُسْلِمٌ
تَعَالَوْا ، لَعَلَّ اللَّهَ يَنْصَحُ دِينَهُ
إِذَا مَا كَفَرْنَا الدِّينَ نَحْنُ وَأَنْتُمْ
وَنَهَضُ نَحْوَ الْكَافِرِينَ بِمَرْقَةٍ
بِأَمْنَاهَا نَحْوَى الْبِلَادُ وَتَقَسَّمُ

وهذه الأبيات وهي من أفضل ما قاله طلائع تكشف عن جوهره ، وحقيقة
مشاعره ، فهو يدعو الأبرار إلى تجاهل المناصب وتناسي الخلافات ، وبعد أن
قال لما : « تعالوا » جاء في البيت الأخير ، وقال : « ونهض » تأكيداً على
صدق نواياه في التعاون لمحاربة الصلابيين .

وكان طلائع يرسل بأشعاره من مصر إلى صديقه الأمير الشاعر أسامة بن
مفقد بالشام يرجوه فيسأ أن يمث نور الدين على جهاد الفرنج المحتلين .
وبينهم ابن رزيق الأميرين إلى التعاون وتوحيد الجهود في هذا السبيل ،
قال في قصيدة طويلة :

بَأَبَى شَخْصُكَ الَّذِي لَا يَنْزِيهُ
عَنْ عِيَايَ ، وَهُوَ الْهَمِيدُ الْغَرِيبُ
وبعد المقدمة ، وما فيها من عتاب لصديقه أسامة ، قال :
كره الشام أهله فهو تحفو قى بالألا يُقيم فيه لبيب

إِنَّ تَجَلَّتْ عَنْهُ الْحُرُوبُ قَلِيلًا خَلَفَتْهَا زَلَزَلٌ وَخَطُوبٌ^(١)
 لَوْ رَأَى الْمَسِيحُ لَمْ يَرْضَ يَفْتَلًا زَعَمُوا أَنَّهُ لَهُ مَنْسُوبٌ
 وَجِهَادُ الْعَدُوِّ بِالْفِعْلِ وَالْقَوْلِ لِي عَلَى كُلِّ مَسْلَمٍ مَسْكُوتٌ
 فَاتَهَضَ الْآنَ مُسْرِعًا فَبَأَمْنَا لَكُمَا مَا زَالَ يُدْرِكُ الْطَلُوبُ
 وَأَلْقَى عَنَّا رِسَالَةً عِنْدَ نَوْرِ الدُّ بَيْنَ مَا فِي لِقَائِهَا مَا يَرِيبُ
 قُلْ لَهُ دَامَ مُلْكُهُ وَعَلَيْهِ مِنْ أِبَاسِ الْإِقْبَالِ بُرْدٌ قَشِيبُ
 أَيُّهَا الْعَادِلُ الْهَيَّ هُوَ لِلدِّ بَيْنَ شَبَابٍ، وَلِلْحُرُوبِ شَيْبُ^(٢)
 قَدْ كَتَبْنَا إِلَيْكَ، فَأَوْضِحْ لَنَا الْآ نَ بِمَاذَا مِنَ السَّكَنَابِ نُجِيبُ
 أَصْدُنَا أَنْ يَكُونَ مَنَا وَمَعَكُمْ أَجَلٌ فِي مَسِيرِنَا مَضْرُوبُ
 فَلَدَيْنَا مِنَ الْعَاكِرِ مَا ضَا قَ بِأَدْنَاهُمْ الْقَضَاءُ الرَّحِيبُ
 وَعَالِمُنَا أَنْ يَسْتَمِلَ عَلَى الشَّا مَ، مَكَانَ الْعَيُوثِ، مَالُ مَدِيبِ^(٣)
 أَوْ تَرَاهَا مِثْلَ الْعَرُوسِ : تَرَاهَا كَلَّةً مِنْ دَمِ الْعِدَا مَحْضُوبُ
 وَبِجَوْلِ الْإِلَهِ ذَلِكَ وَمَنْ غَا لَبَ رَقِي فَإِنَّهُ مَقْلُوبُ

فالشاعر الناطقي يود أن يتفق معه نور الدين على قتال الإفرنج مع
 الاستعداد لهم بالجيش الضخم ، والسال الكثير ، لمحاصرتهم من الشمال

(١) كانت الزلازل قد آلت بالشام وعلى أرض (شيزر) التي يقيم فيها أسامة بن
 منقذ مع أهله ، و (شيزر) قلعة حصينة بالقرب من حماة .

(٢) ذكر محقق ديوان طلائع أن المصدر بشبيب هو شبيب بن يزيد الشيباني
 أحد كبار الثائرين على بغرامية ، وكان بطلا في الحروب وتوفي سنة ٧٧٧ هـ ، وقد أشاد
 الجاحظ به ، وامتدح حماسته .

(٣) استعمل للطر : اعتد انصبا به .

والجنوب حتى ندى أرض الشام بدمائهم ما داموا قد استعملوا حرمانها ،
واعتدوا على مقدساتها .

وقد أثرت همة طلائع وحاسه في انتصار المسلمين على الفرنج في عسقلان
في الوقت الذي ضعفت فيه عزيمه نور الدين لمرضه إلى أن انتقلت راية الجهاد
والقاومة إلى القاهر صلاح الدين .

وفي عهد القاصر « كان بيت المقدس المحور الذي يدور حوله التحريض ،
فإذا اقترب الخطر منه اشتد التحريض على جهاد الصابئين ، وكثر الإلحاح
في حيازة الأماكن المقدسة من امتداد الإنزنج ، وإذا بعد الخطر خفت وطأة
التحريض إلى حد ما » (١) .

وللإمام الأصبهاني (٢) قصائد كثيرة يهيب فيها بصلاح الدين أن يستكمل
تحرير أرض المسلمين بالشام ، ويحثه على تحرير القدس ، منها قوله :

ويوسف مصر بغير التقى وبذل الضائع لم يوصف
فسر ، وافتح القدس ، واسفك به دماء متى تجرها يظلف
وخلص من الكفر تلك البلاء د بخاضك الله في الموقف

وأحاط الشعراء بصلاح الدين ، وأخذوا يحرضونه على القتال ، حتى
بعد أن انتصر في حطين وفتح بيت المقدس ، وليكنه قنع بما حققه ، وتوفى ،

(١) الحرب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام ، محمد سيد كيلاني
ص ٢٣٥ ، دار الكتب العربي .

(٢) تراجع ترجمته في المطبوع من الوافي بالوفيات للصندي ، وفي معجم الأدباء
لياقوت الحموي، ج ١٩ ص ١١ وفي غيرها ، وتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

ولا زال الفرنجة رايعين في سواحل الشام ، وقد خاض خلفاؤه من بعدهم معارك كثيرة ، ولم يستسلموا بل كانوا يدافعون بكل قواهم عن أرض المسلمين في مصر والشام .

وفي « عهد الملك الأشرف استرد الإفرنج بعض الماقل والحصون ، فعلا صوت الشعراء بالخص على القتال والآنزال ، والحث على الدود عن الحرمات والديار ، ومثال ذلك قول ابن النبي يخاطب الأشرف »^(١) :

يا حارس الدين لما نام حارسه
وناظما شمله من بعد تهديده
جهز جيوشك إن الثغر قد عيثت
بئر الفرنج فأضحى غير مدود
أبذر كون به أوتار قديسهم
منكم ، وذلك ولك غير مردود
يا للرجال أنا ديسكم إننا نزل
تسفل الماء من صم الجلاميد
أين الحية هبوا من منامكم
لأننا لساجل دنيا أو لعبود

وابن النبي شاعر معمر مشهور ، وله ديوان مطبوع .

وهكذا توالى صهجات الشعراء لحث الناس على الجهاد ، وتحريض المؤمنين على القتال ، وتحسيس الأبطال لتحرير البلاد ، ولهذا لم ينس الفاس ما اغتصبه

(١) الحروب الصليبية وانرها في الأدب العربي ص ٢٣٦ .

المدون منهم ، وقد أثر هذا الشعر في الناس تأثيراً كبيراً ، وعاشوا يترقبون الوقت الذي تتحرر فيه بلادهم من حلة الصليب المغيرين .

ثانياً — وصف المعارك وتسجيل أحداثها

كان الشعر في زمن الحروب الصليبية متجاوباً مع الأحداث ، معبراً عن الغضب الديني والقوى لدى جموع المسلمين . وقد كثرت الأشعار الحاسية في عهود عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين لكثرة الانتصارات في عصورهم بصر والشام ، بينما كان الشعر الحاسي قليلاً جداً في المراحل الأولى من هذه الحروب ، والتي اهتز فيها الوجدان الديني وتزعزعت الثقة بين رجالات المسلمين ، وخفت أصوات الشمراء فليس أمامهم ما يدعوهم إلى الحاسة والغضب ، ومع هذا لم تنعدم تلك الأصوات تماماً ، فكان منها ما يدعو إلى الجهاد ، ويحث على القتال إلا أن الكثيرين من الملوك والسلاطين في هذه المراحل المتقدمة كانوا منصرفين إلى أنفسهم ، منشغلين بهمومهم ، ومماركهم حول كراسي السلطنة تاركين الترنجة ينتقلون من بلد إلى آخر ، ويكونون للمالك والإمارات ، وجارى كثير من الشمراء ملوكهم وأمرأهم ، فأنصرفوا عن الأحداث ، وانزلوا إلى ركن يمد ، وتغنوا بالطبيمة ، وتغزلوا بحمال النساء .

وقد استيقظ الشمراء مع الصحوة الإسلامية التي قادها أنابكة الموصل ، ومعنى الشعر بسجل المعارك الحربية ، وينقل ما دار فيها ، ويصف انتصام الجيوش ، ويتابع أخبار قادتها وأبطالها ، ويصور الانتصارات وما فيها من السبيل والغنائم ، ولم يقف الأدب عند حد تسجيل المعارك الكبرى ... بل وأبناء

يرصد أحداثها إلى درجة أنه أصبح سجلاً ، يرصد خطوات هذه الحروب ، وصار من المستطاع اتخاذ مفسراً لأحداث التاريخ ، فقد اتخذ حقائقه ميداناً جال فيه فسجلها ، وسجل شعور الناس بها ^(١) .

ثم خفت صوت الحاسية مرة ثانية في أعقاب معارك دمياط والمنصورة سنة (٦٤٨ هـ) لما أصاب الأمة من نفيت أنوارها ، وانتهيار الممالك في نواح عديدة ، فقد هبّ القطار من المشرق ، وأنوا على الأخضر واليابس ، واقتلموا جذور الخلافة الإسلامية في بغداد ، وقضوا على ما كان قد تبقى للعباسيين من تراث حضارى .

وأحدث الخطر بالأمة الإسلامية من كل جانب ، وضعت الصوت الحاسى الذى طالسا أشاد وتنفى ، إلى أن تحول الحكم في مصر إلى المماليك ، وبدأوا يراجعون أنفسهم ، ويفسكرون فيما يفعلون . وتحقق النصر الاسلام على أيديهم وفي عهدهم ، فأزاحوا من بلادهم تتر الشرق ، وصلبي الغرب ، ونملوا ما همز صلاح المدين نفسه عن إتمامه ، فاسقيظ الشعر الحامى ، وأعلن البشرى بنهاية عهد الاحتلال في معركة عكا (الأخيرة) ، وما أن انتهت الحروب القترية والصلبية حتى فترت الأشعار الحاسية لعدة قرون إبان حكم المماليك والأتراك العثمانيين .

وبعد ذلك نؤكد أن الأشعار الحاسية لم تختف أبداً في عهد الحروب الصليبية ، ولسكى قصدت إلى بيان مراحل الضعف والازدهار قبل الحديث عن تلك المعارك التى سجلتها الأشعار الحاسية في العصر الصليبي .

(١) الحياة الأدبية في مصر الحروب الصليبية ص ٤٧٤ .

١ - معركة الرها^(١)

كانت الرها إحدى الإمارات التي استولى عليها الصليبيون في حملتهم الأولى ، واستمروا فيها ما يقرب من خمسين عامًا ، كان المسلمون فيها - بالطبع - تواقين لاسترجاعها ، ولكنهم لم يسلوا إليها ، أو يتحاربوا فيها لثقل إمكاناتهم ، وهجرتهم ، وتواضع أمانيتهم ، ولأن الإمارة وما حولها من البلاد التي تتبعها قد تقوّت وتحصّنت بالجيوش والمعدات ، ولهذا لم يعد الاقتراب منها لفتحها واسترجاعها مجرد أمل ، حتى نهض لها عماد الدين زنكي (أتابك الموصل) ، وأغار عليها ، وأسقط الإمارة كلها في سنة ٥٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، بعد قتال دام ثمانية وعشرين يوما ، لتكون بذلك أول ما سقط في أيدي المسلمين من الإمارات الصليبية .

وقد أحيا هذا النصر آمالا رحبة في نفوس المسلمين حول استرجاع ما اغتصبه الفرنج ، وكان مقدمة لانتصارات أخرى عظيمة ، وأحدث هزة عنيفة في دوحه الشعور ، وعلت الأصوات الحفاسية مشهدة بهذا المنهج ، مسجلة كفلاح المسلمين وعلى رأسهم عماد الدين ذلك الرجل الذي شرف آل زنكي ، وأبعد العرب في هذا العصر الجريح . لنقرأ بعض ما قاله ابن القيسراني^(٢) .

مَدِينَةُ لِنَكٍ مَدْنٌ خَدَنَ حَبِيَّةَ
يَقُولُ حَدِيدَةُ الْهَنْدِ عَنْهَا حَرَّادُهُ^(٣)

- (١) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام (معجم البلدان ج ٣ ص ١٠٦) .
(٢) هو محمد بن نصر القيسراني ، الذي توفي سنة ٥٤٨ هـ ، وكان واحدا من شعراء الحفاسة في العصر العباسي الثاني .
(٣) يقول : يكسر ، ويبيوف جداد : حادة .

وجاحصة عرّ السلوك قيسادها
إلى أن ثنّاهما من يميز قيادته
فأغترمتها نارين : حرباً وخدعة
فما زاح إلا سورها وانهدأته^(١)
فما ظفراً عم البلاد صلاحه
بمن كان قد عم البلاد قتاده
فلا مطلق إلا وثد وثاقه
ولا موقن إلا وحل صفاذه^(٢)
ولا منبر إلا ترنج هوده
ولا مصحف إلا أنار مداده

فقد وصف مدينة الرها وذكر أنها بقيت خمسين سنة مرتعاً للنعصية ،
ومدينة للإفك ، واستعصت على الملوك السابئين حتى حررها عماد الدين ،
وأوقمها بين نارين الحرب والخدعة ، واستولى عليها ، ونشر فيها الفساد
بدل الفساد ، وقتل جيوش الأعداء ، وفك أسرى المسلمين ، وأقام فيها الفرائض
والعبادات .

وقد اكتست الحماسة في الأبيات ثوباً دينياً ، وسوف يبدو هذا واضحاً
جلياً في معظم ما نستعين به من أمثلة ونماذج .

وفي حديث الدكتور أحمد بدوي عن هذه الأبيات في كتابه « الحياة
الأدبية في عصر الحروب الصليبية » ، قال : « والشعر يسجل أن زنكي

(١) راعة الشيء : أعجبه .

(٢) الصفا : ما يوثق به الأ-ير .

(١٢) - شعر الحماسة

استعمل مع الحرب الحيلة والخداع ، وإنما لم يحدثنا القاريخ من ألوان هذا الخداع ... »^(١).

ومع احترامى الشديد للأستاذ الدكتور أحمد بدوى ، ولكتاباته الأدبية والفنية إلا أننى أرى - مع تواضع جهدى - أنه قد ظلم القاريخ ، وقسا عليه ، واتهمه بالصمت عما ذكره ابن القيسرائى فى حق عماد الدين مما يسهم فى إضرام نار العداوة بين الشمر والقاريخ ، وإسهاماً فى تجملة الحقيقة . وإنصافاً لما نذكر أن القاريخ قد تحدث عن هذا الخداع ، وفى أكثر من موضع مما يحمل كلام الدكتور أحمد بدوى عارياً تماماً من الحقيقة ، وإليك ما جاء فى بعض كتب القاريخ المشهود لها ، والمعترف بها .

قال ابن الأثير فى كتابه (السكامل) : « وكان أتابك^(٢) يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنهما ، فيتمدح عليه ملكها لما هى عليه من الحصانة ، فاشتغل بديار بكر^(٣) ليوهم الفرنج أنه غير مقرب لقصدهم ، فلما رأوا أنه غير قادر على ترك الملوك الأرتقية^(٤) وغيرهم من ملوك ديار بكر حيث أنه محارب لهم ، اطمأنوا ، وفارق جوسلين^(٥) الزها ، وعبر القرات إلى بلاد الغربية ، فجاءت عيون أتابك إليه فأخبرته ، فقادى فى المسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الزها أحد من غديومه »^(٦).

(١) الحياة الأدبية ص ٤٥٥ .

(٢) أتابك : هو عماد الدين زنكى .

(٣) فى الجزيرة بشمال العراق ، وكان قد ملكها .

(٤) نسبة إلى والد عماد الدين وهو « آق سنقر » أصل البيت الأتابكى .

(٥) هو جوسلين الثانى (Joselin II) أمير الزها الصليبي .

(٦) السكامل فى القاريخ ج ١١ ص ٩٨ .

وقال المذكور حماد الدين خليل في كتابه (حماد الدين زنكي) : « وسمى إلى تدبير خدعة تنجح له بتحقيق هدفه من أقصر طريق . . »^(١)، ثم ذكر ما قاله ابن الأثير .

وذكر التاريخ أيضاً أن حماد الدين زنكي قد استخدم الحيلة مع اللوك والأسراء الذين كانوا يجاورونه من كل الاتجاهات ، ولما أحاط بالرها استخدم الخدعة أيضاً في الدخول إليها ، وفتعها ، فقد نقب رجاله من أهل خراسان وحلب نقبا في بطن الأرض من تحت سور المدينة ، ولما فرغوا منه استأذنوا حماد الدين في إطلاق النار عليها^(٢) .

وقد سجل شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي المعروف «بأبي شامة» في كتابه (الروشتين في أخبار الدولة الزورية والصلاحية) كثيراً من المعارك الصليبية مع تديبجها بالشعر الحسني الذي يتلأأ ضياء بجهود حماد الدين وخلفائه الأبطال .

ومن شعراء بالشام الذين سجلوا أحداث الرها الشاعر أبو الحسن أحمد المعروف بابن مثير الطرابلسي الذي قال :

صفات مجديك أفظّ جلّ معناه
فلا استردّ الذي أعطاكه الله
أشجعت دون ملوك الأرض مفرداً
بلا شبيهه ، إذ الأملاك أشباه

(١) حماد الدين زنكي ص ١٥١ طبعة مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨٢ م .
طبعة الثانية .

(٢) راجع كتاب « ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي » ص ٢٧١ و ٢٨٠ .

ملك تنام عن الفخام ممتعة
تقى ، وتسهر المعروف عينا
فتح أعاد على الإسلام بهجته
فأقر مبسطة ، وأهتر علقاه
إن الرثما غير حموية ، وكذا
من راسها ، ليس مفرها ، كنزها
حتى دلفت لها بالمر يشعده
رأى بيت فوق النجم مفرها

والواقع أن ابن منير لم يمن في هذه الأبيات (وغيرها كثير) بتسجيل أحداث الرثما قدر عنايته بالإشادة بمعاد الدين ، وتسجيل فتحه لهذه المدينة الذي أعاد على المسلمين البهجة والسرور .

وإذا كان في الأبيات بعض التكاف في الصناعة التلقية مما يبعدها كثيرا عما استشهدنا به من ضروب الحاسة في المصور السابقة فإن فيها مضمونا حيا ، وعاطفة صادقة ، وحرارة نابضة ، إلى جانب الروح الدينية التوعجية ، ولهذا جاءت المعاني مقبولة .

٢ - معركة حطين^(١) وفتح بيت المقدس

تمت معركة حطين أعظم المارك التي وقعت بين المسلمين والصليبيين في ذلك العصر ، وكان انتصار المسلمين في هذه المعركة السبب الأول لقدم حملات صليبية جديدة بقيادة رؤساء دول ألمانيا وفرنسا وإنجلترا .

(١) حطين سهل جبل بالقرب من بحيرة طبرية المجاورة لبيت المقدس (موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٥ ص ٦١١) .

وقد قام الصليبيون في الشام ببعض الأفعال المتهورة ، إذ نقض (أرناط) أمير الكرك والشوبك المعاهدة التي كانت بينه وبين صلاح الدين ، و قد جرد أسطولا بميث بشواطئ الحجاز ، وبهاجم المسلمين ، كما دأب على مهاجمة القوافل ، وسلب مقامها وأسر أفرادها ، وحدث في إحدى القوافل أن أسر هذا الأمير أخت صلاح الدين ، وكانت مسافرة في إحدى القوافل ، وكان ذلك بمثابة الشرارة التي أضرمت النار ، وأدت إلى موقعة حطين الشهيرة (١) .

واستغفر صلاح الدين الناس للجهاد ، وحاصر عكا ، وأغار عليها وعلى الكرك ، ثم جمعت جيوشه للمعركة الفاصلة في حطين ، واستعدت للاقتاة بالأعداء الذين كانوا في عدد ضخم قدر بثلاث وسعين ألفاً (٢) بينما كان جيش المسلمين يبلغ اثني عشر ألف مقاتل ، واحتدم القتال في شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً ، ولم يبق من الفرنجة إلا عدد قليل قدر بألف ، وانهزم الباقون بين الأسر والقتل ، وعين وقع في قبضة المسلمين ملك بيت المقدس ، وأمير الكرك ، وأرسل الناصر الأسرى إلى دمشق ، وشمل الكثيرين منهم بصفوة ، وفي مقدمتهم ملك بيت المقدس ، ولم يكن صارماً إلا مع أرناط (أمير الكرك) الذي كان متهوراً طائفاً عندما سخر من الإسلام ، وأساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، واعتدى على الحجاج ، وفعل ما استوجب قتله بيد صلاح الدين برأى بقسمه ، وتحققاً لعذره .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٥ ص ٦٩٠ .

(٢) في أحد الأقوال .

ولم ينتظر الناصر حتى يفتق الصليبيون من هذه الهزيمة البشعة ، فواصل سيره حتى استسلم له حصن طبرية ، واحتل عكا ، والناصرية وقيسارية ، وحيفا وصيدا ، ويهروت .

ثم اتجه إلى بيت المقدس ، وحاول أن يدخلها صلحا لمسكناتها في نفوس المسلمين ، غير أن الأعداء تحصنوا بها ، وتجهزوا للقتال ، واشتبكوا مع جيش صلاح الدين ، ولمائيس الفرنجة من الناصر مالوا إلى الصلح ، واتفق الطرفان عليه ، وخرج الصليبيون من هذه المدينة المقدسة في شهر رجب من السنة المذكورة .

وقد جند الشمر الحامي معركة حطين ، ونقل أحداثها ، وسجل ما وقع فيها ، وصور انهزام الأعداء وتقهقرهم أمام جيش المسلمين .

ومن الشمراء الذين لازموا صلاح الدين ، ومدحوه ، وأشادوا به ، وسجلوا انتصاراته بالماد الأصهب^(١) الذي قال بعد انتصار حطين العظيم :

حطمت على حطين قذّر ملوكهم
ولم يبق من أجناس كفرهم جنسا
غداة أسود الحرب معقلو القنا
أساود تبني من نور الودا نسا^(٢)

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج محمد بن حامد المروفي بالماد الأصهب وهو كاتب وشاعر ، وقد توفي بدمشق سنة ٥٩٧ هـ ، وترك مؤلفات كثيرة ، منها : « خريدة القصر وجريدة العصر » ، راجع معجم الأدباء ج ١٩ ص ١١ .
(٢) نسا : مصدر نسي أي نبش أن تنهشه بتقديم أسنانها .

أَتَوْا سُكُوسَ الْأَخْلَاقِ خُشْفًا فَانْبَثَتْ
 حدودُ الرِّقَاقِ انْطَشَنَ أَخْلَاقُهَا السُّكُوسُ
 فَكَيْفَ مَكَّنَتْ الشَّرَكِينَ رَدَّوهُمْ
 وَرَأَيْتُكَ فِي الْإِحْسَانِ أَنْ تَطْلُقَ السُّكُوسَ^(١)
 كَثَرَتْهُمْ إِذْ صَحَّ عَزْمُكَ فِيهِمْ
 وَتَكَلَّفَتْهُمْ مِنْ بَعْدِ أَعْلَامِهِمْ تَكَلُّفًا
 بِوَاقِعَةٍ رُجَّتْ بِهَا أَرْضُ جِيْشِهِمْ
 وَمَارَتْ كَمَا بَسَتْ جِبَالُهُمْ بَسًا
 بَطْلُونُ ذُنَابِ اللَّيْلِ صَارَتْ قَبُورُهُمْ
 وَلَمْ تَرْمِضْ أَرْضٌ أَنْ تَكُونَ لِمَنْ رَقَسَا^(٢)
 وَحَامَتْ عَلَى نَارِ الْمَوَاضِي فَرَّاشَتُهُمْ
 لِقَاطِفًا فَزَادَتْ مِنْ مُقَوِّدِهِمْ قَبَسَا^(٣)

وقد خاطب العباد في هذه الأبيات - وهي من قصيدة طويلة - صلاح الدين ، وأشاد بانه صاره على ملوك الصليبيين في حطين حيث قضى عليهم ، وأعاد أجاسهم الكافرة بجنوده البواسل الذين التهموا الأعداء ، ونهشوا لحومهم .

وذكر العباد أن جنود الناصر صلاح الدين يوسف قد حاربوا قومًا خُشْفًا أخلاقهم ، وانتصروا عليهم ، وتمكنوا من تليينهم والفوز عليهم بمحدود سيوفهم انثشة ، وقازوا برءوس الأعداء التي أطاحوا بها ، كما تكست أعلامهم

(١) السكس : ما يأخذه أعوان السلطان .

(٢) رمسا : قبرا .

(٣) نار المراضى : لمان السيوف ، الفراض : طائر يحوم حواء النار .

في أرض حطين التي ذابت من تحت أرجلهم ، فتحولوا إلى طمام للذئاب ،
وكان يطون الأرض قد أبت أن تكون قبوراً لهم خشية أن يدنسوها
بحسومهم .

وذكر الشاعر أنهم في أثناء المعركة كانوا يتطايرون خلفه حلوسهم
- كالفراس - على نار سيوف المسلمين فيقومون فيها ، وتزداد اشتعالاً بهم ،
ثم قال :

وَقَدْ خَشَعَتْ أَصْوَاتُ أَبْطَالِهَا فَمَا
بَيَّحَ السَّعْجَ إِلَّا مِنْ حَلِيلِ الطَّيِّ كَهَشَاً (١)
بِقَادِ بَدَأْمَاءِ الدَّمَاءِ مَلُوكُهُمْ
أَسَارَى كَشَفَنِ الْيَمِّ نِيْطَتْ بِهَا الْقَنَاسُ (٢)
سَهَاباً ، بِلَادُ الْفَرِّ مَمْلُوءَةٌ بِهَا
وَقَدْ عُرِضَتْ نَحْشاً ، وَقَدْ تُرِبَتْ نَحْشاً
بُطَافُ بِهَا الْأَسْوَاقُ لَا رَاغِبَ لَهَا
لِكَثْرَتِهَا ، كَمْ كَثُرَتْ تَوَجُّبُ الْوَسْكَاسُ (٣)
شَكَا بَيْتَا رَأْسُ الْبُرْنَسِ الَّذِي بِهِ
فَنَدَى حَامٍ حَاسِمٍ ذَلِكَ الْيُنَيْسُ
حَسَا دَمَهُ مَاضِي الْفِرَارِ لَعْدُوهُ
وَمَا كَانَ لَوْلَا غَدْرُهُ دَمُهُ يُحْمَى (٤)

(١) الطي : السيوف .

(٢) الدماء : البحر ، القنص - بفتح القاف : الحبل الضخم من حبال السفن .

(٣) الوكس : النقص واليخس في الفن .

(٤) حسا : شرب ، الفرار : حد السيف .

أبرز العباد في هذه الأبيات كتابتها بعض ما دار على حطين ، حيث علا
حليل السيوف على أصوات الرجال ، وما أن انتهى القتال حتى اقتيد للوك
في بحر من الدماء كأنهم من نبطت بها الأحبال الغليظة ، وأخذوا أسرى .
ولكنهم ضاقت بهم الأرض ، ونودى عليهم للبيع في الأسواق ، ورغب
الناس عنهم ، فانخفضت أسعارهم حتى قيل إن الواحد منهم كان يباع بثلاثة
دينارين ، وقيل : إن من شاهد الأسرى كان يظن أن الصليبيين جميعا قد أسروا ،
ومن شاهد القتلى كان يظن أن الصليبيين جميعا قد قتلوا ، وذكر أن السيف
الصارم قد حسم أسر قائد الصليبيين ، فأسال الدم حتى ارتوى به جزاء
لنذره وخيانتة .

واملك لاحظت مدى كلف الأشاعر بالبديع ، وحرصه على توشية أسلوبه
بالحسنات المختلفة ، وقد كان العباد كاتباً متأزراً في أسلوبه النثرى بالقاضى
الفاضل^(١) ، فنرى هذا التأثر إلى الشعر على نحو ما رأيت .

وعندما خرج الصليبيون ليلة الإسراء والمعراج في سنة ٥٨٣ هـ من بيت
القدس وعادت المدينة إلى حوزة المسلمين ، وتحققت آمالهم التي طال الشوق
إليها ، وأصبحت أحلامهم حقيقة واقعة ، عند ذلك استجاب الشمره لهذا
الحدث العظيم ، وسرت البهجة في كل أوصالهم حتى غمرتهم النشوة ، وارتفعت
ألسنتهم بالمديح والثناء ، وجلجلت أصواتهم الحاسية ، وأخذوا يسجلون
في قريبتهم انتصارات صلاح الدين المتعاقبة .

قال أبو الحسن بن على الجوينى من قصيدة حماسية طويلة :

جندُ السماء لهذا لَلْفُكْ أعوانُ

مَنْ شكَّ فيهم فهذا الفُتُحُ بُرْهانُ

(١) هو عبد الرحيم البيهقى ، الكاتب المشهور في عهد صلاح الدين .

هذي الفتوحُ فتوحُ الأنبياءِ وما
لها سيوى الشكر بالأفعال أنغانُ
أضحت ملوكُ الفرنج الصيدُ في يدهِ
صَيْدًا ، وما ضَعُفُوا يوماً وما هَانُوا
تسمون عاماً بلادُ اللهِ تصرُّخُ والإثـ
لامُ أنصارُهُ صُـمٌّ وَعُمَيَّانُ
قالن إني صلاحُ الدين دعوتهمُ
بأمر من هو الميمونانِ ميمونانُ
إذا ملوى اللهُ ديوانَ العبادِ فما
يطوى لأجرِ صلاحِ الدين ديوانُ

وتهدو في الأبيات عاطفة الجويني ، الملتمة بانتصارات صلاح الدين التي تشبه
فتوح الأنبياء في تحرير العقائد ، وبسط الإيمان .

ويذكر الشاعر كيف كانت بلاد الإسلام تفرخ وتصرخ حتى استجاب لها
صلاح الدين وإني دعوتها بأمر الله ، الذي سوف يجزيه بمظلم الأجر
والثواب .

ولقد كثر الشعر الذي قيل عن فتح بيت المقدس ، وعرف باسم «النداهات»
نتيجة لتوافد الشمراء على السلطان من كل مكان ، ومن لم يقدر منهم على السفر
إليه ، أرسل شعره حيث يوجد في مصر أو في العراق أو في غيرها .

فقال الجواني^(١) ، وهو نقيب الأشراف في مصر :

(١) هو محمد بن أسعد بن علي بن محمد الحامي .

أُتْرَى صَنَامًا مَا بَعِثَ أَبْصَرُ الْقُدْسُ يُفْتَحُ وَالْقَرْيَةُ تُسَكَّرُ
وَمَلِيكَهُمْ فِي الْقَيْدِ مَعْفُودٌ ، وَلَمْ يُرْ قَبْلَ ذَلِكَ لِمَ مَلِيكَ يُوسُرُ

وقال ابن الساعاتي :

فأيتَ فتي الخطابِ شأدهَ فتَحَمَّها
فيشهدُ أنَّ السَّهمَ من يوسُفَ أحمى

وانتهز ابن جبير^(١) فرصة انتصار صلاح الدين على الصليبيين فوجه إليه هذه القصيدة التي أعرض لك جزءاً منها حيث سجل فيه بعض ما دار في حطين وبيت المقدس قال :

أَطَلَّتْ عَلَى أَفْنِكَ الزَّاهِرُ سَمُودٌ مِنَ الْفَلَكِ الدَّاهِرُ
فَأَبْشِرْ فَإِنَّ رِقَابَ الْعِدَا تَمَدَّ إِلَى سَيْفِكَ الْبَسَّاتِرُ
كَثُرَتْ صَلَاحِيهِمْ عِنْدَهُ فَهَلْ دَرَكَ مِنْ كَأْسِرِ
وَقَفَّزَتْ آفَارُهُمْ كُلُّهَا فَلَيْسَ لَهَا الدَّهْرُ مِنْ جَابِرِ
وَقَتَّ بِنَصْرِ إِلَهِ الْوَرَى فَسَمَّاكَ بِالْمَلِكِ النَّاصِرِ
وَتَسْمِعُ لِهَؤُلَاءِ فِي حَقٍّ مِنْ سِرِّ ضَيْكِ فِي جَفْنِكَ السَّاهِرِ
وَجِئْتَ إِلَى قُدَيْهِ الْأَرْتَعَى فَخَلَصْتَهُ مِنْ يَدِ الْكَافِرِ
وَأَعْلَيْتَ فِيهِ مَنَارَ الْهَدَى وَأُحْيَيْتَ مِنْ رُسْمِهِ الدَّاهِرِ^(٢)

وإمل أم ما يميز هذا الشعر ما فيه من عاطفة دينية ، وابتهاج قوى جهنم.

(١) خراساني الأصل ، عاش حياته بين مصر والشام ؛ وتوفي سنة ٦٠٤ هـ .

(٢) هو الرحالة للمروفي بابن جبير الأندلسي الذي كان من أشد المصبيين

بصلاح الدين .

(٣) راجع هذا الشعر وغيره في كتاب الروضتين لأبي عامر .

الانتصارات . » وقد كان انتصار المسلمين بقيادة صلاح الدين على الصليبيين في وقعة حطين ، ثم دخولهم القدس من الحوادث التي أنطلقت اليها وانعكس . واعتز لها المسلمون في طول البلاد وعرضها طرباً ، وسكروا بحموة الفرح والسرور ، وظهر ذلك بين الشعراء ، فطفقوا ينظمون قصائد الطوال في الثغنى بهذا النصر العظيم ^(١) .

وأرى أن الشعر الذي تابع هذه المارك ، واهتم بها ، وسجل أحداثها قد اتسم بالحماسة القوية . والماطفة الدينية ، ولكنه مع ذلك لم يرتفع بالأداء الفني إلى مستوى هذه الانتصارات ، فأين هذا الشعر - على كثرته - من روائع أبي الطيب في حروب سيف الدولة مع الروم ، وروائع أبي فراس في حروب سيف الدولة مع العرب .

٣ - معركة دمياط سنة ٦١٨ هـ

اتخذ الصليبيون من دمياط ممبراً لدخول مصر ، وقد هوجت في عهد صلاح الدين ، وباء هجومهم بالفشل ، ثم أتوا إليها في شهر صفر سنة ٦١٥ هـ من فلسطين عن طريق البحر ، وحاصروها قرابة عام ونصف . وفي أثناء الحصار مات سلطان مصر الملك العادل أخو صلاح الدين ، فتفرقت الكلمة ، وترك جيوش الأيوبيين مواقعها في مواجهة الفرنجة عند دمياط ، فغسر للأعداء العبور إليها في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة ، وبقي الناس يدافعون عن بلدن حتى مجزوا عن الحركة ، واستسلموا في شعبان سنة ٦١٦ هـ بعد مقتل الكثير منهم .

(١) الحروب الصليبية لمحمد سيد كيلاني ص ٧١٢ .

قال ابن الأثير^(١) : « ولما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها ، وبنوا سراياهم في كل ما جاورهم من البلاد يهبون ويقتلون ، فجلا أهلها عنها ، وشرعوا في حاربتها وتحصينها ، وبالنوا في ذلك حتى إنها بقيت لا ترام »^(٢) .

وقد حزن المسلمون لسقوط دمياط ، وأعلن الملك الكامل محمد بن الملك المعادل الجهاد العام في مصر ، وأرسل إلى أقاربه في سائر الدولة الأيوبية ، وجاء إليه وتعاون معه أخواه المعظم عيسى صاحب دمشق ، والأشرف موسى صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرهما ، واتحدت الأسرة الأيوبية كاتحادها في عهد صلاح الدين ، وكان الكامل قد عسكر بجيشه في موضع^(٣) بالقرب من المنصورة^(٤) ، وعرض على الصليبيين أن يرد لهم بيت المقدس وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ، فلم يرضوا بذلك ، ولم يجد المسلمون بدا من القتال ، فانتقلت فرقتهم خلف الأعداء الذين كانوا قد تركوا دمياط ، وانجموا صوب المنصورة ، وقد دارت معركة شديدة تمكن المصريون فيها من تحقيق النصر بعد أن قطعوا سد النيل فحاصرت مياهه عساكر الصليبيين الذين لم يبق لهم إلا طريق واحد ضيق إلى دمياط استطاع المصريون أن يمتلكوه ، فقتل الأعداء في الدودة إلى دمياط . « هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم

(١) هو العلامة عز الدين علي بن محمد الشيباني المدون بابن الأثير صاحب كتاب « الكامل في التاريخ » وغيره من أمهات الكتب .
(٢) الكامل في التاريخ ٢ ص ٣٢٦ .
(٣) كان يقال له « أتموم طناح » واسمه الآن « أتموم الزمان » .
(٤) أنشأها الملك الكامل محمد سنة ٦١٦ هـ بعد سقوط دمياط في أيدي الفرنجة . وقد أقامها مدينة لجنوده وسماها بالمنصورة تماثلا لها بالنصر والدوام . راجع كتاب « مدن مصر وفراها عند فلول الجوى » للدكتور عبد المال الشامي ص ١٩ الطبعة الأولى سنة ١٩٨١ .

بالنشاب ، ويحملون على أطرافهم ، فلما اشتد الأمر على الفرنج أحرقوا خيامهم
وعجائيتهم وأتقاهم ، وأرادوا الزحف إلى المسلمين ، ومقاتلتهم لهمم يقدر
على الود إلى دمياط . فرأوا ما أمّله بعيداً ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون
لكثرة الوحل والمياه حولهم ، والوجه الذي يقدر على سلوكه قد ملكه
المسلمون^(١) .

وعندما تأكدوا من فشلهم ، وأحسوا أن الغاية قد كثرت عن أنيائها ،
أرسلوا إلى الملك الكامل يسألونه الأمان لأنفسهم على أن يسلموا دمياط بغير
عوض ، وتمموا الصلح في شهر رجب سنة ٦١٨ هـ (أغسطس ١٢٢١ م) .

وعادت دمياط إلى مصر بعد كفاح مرير مع الصليبيين فعدت البهجة لقلب
المسلمين ، وأشاد الشعراء بهذا الفوز ، وسجلوا جهاد الأيوبيين لاسترجاع هذا
الثغر بعد حروب دامت أكثر من ثلاث سنوات .

وللبهاء زهير^(٢) قصيدة في حسين بيتاً سجل فيها انتصار المسلمين على
الفرنجية في هذه الموقعة التي يقول فيها موجها حديثه إلى سلطان مصر
الملك الكامل محمد^(٣) :

بك اهتز عطف الدين في حلل القصر
وردت على أعقابها ملة الكفر
وما فرحت مصر بهذا الفتح وخدّها
لقد فرحت بنداؤ أكثر من مصر

(١) الكامل ج ١٢ ص ٦٠٦ .

(٢) ولد بسكة ، وعاش بمصر ، وتوفي سنة ٦٥٦ هـ .

(٣) راجع القصيدة في الديوان ص ٩٩ طبعة دار المازن بمصر سنة ١٩٨٢ .

فمن مبلغ هذا المنساء لمكة
وبئرب تنهيه إلى صاحب القبر
قل رسول الله إن سميت
حتى بهضة الإسلام من نوب الدهر
به ارنجيت دمياط قهرًا من الميدا
وطهرها بالسيف والنفق الطهر

والآيات السابقة تؤكد لك ما لم يؤكد غيرها من حيث التعبير عن
الوحدة العربية والتأكيد على توافق الشاعر الوجدانية عندما عمّ الفرح قلوب
المسلمين أينما وجدوا في مدن العراق والشام ، أوفى المجاز حيث توجد مكة
والمدينة التي بها قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تؤكد الآيات أن
الفاخر كان للإسلام على الكفر ، وأصبح ذلك منهجًا لسائر شعراء الحنابلة
في هذا العصر ، ولعل فيما يأتي من أبيات ما يحمل تلك الحقيقة ويزيدها تأكيدًا ،
ثم يصف المعركة فيقول :

وليلة تغرر للمعدو كأنها
بكترة من أردية ليلة النحر
ولا ليلة قد شرف الله قدرها
ولا غرو إن سميتها ليلة القدر
سدّت سبيل البر والبحر عنهم
بساحة دهم ، وبساحة غر

(١) الجياد السابحة : المريمية المدو .

أَسَاطِيلُ لَيْسَتْ فِي أَسَاطِيرِ مَنْ مَقَى
بِكُلِّ غُرَابٍ رَاحَ أَفْكَكَ مِنْ مَقْفَرٍ^(١)
وَجَيْشٌ كَثَلَ اللَّيْلَ - هَوَلًا وَهَيْبَةً
وَأَنَّ زَانَهُ مَا فِيكَ مِنْ انْجَمٍ زُهِرَ
وَبَاقَتْ جُنُودُ اللَّهِ فَوْقَ ضَوَائِرِ
بِأَوْضَاحِهَا تَقَى السَّرَاةَ عَنِ الْقَجْرِ^(٢)
فَرَوَيْتَ مِنْهُمْ ظُلُمِيَّ الْبَيْضِ وَالْقَفَا
وَأَشْبَهْتَ مِنْهُمْ طَاوِيَّ الدُّبِّ وَالنَّشْرِ^(٣)

وقد جعل البهاء لیسلة المعركة كلمة النحر اكثرة القتل من الأعداء ، وإن كان قد شبهها بلیلة القدر لجلال ما جرى فيها من نصر المسلمين . وتحدث عن جيوش السلطان في البر والبحر ، فأشاد بقوتها وفكها ، وقد كانت يقفلة فوق الخيول الضامرة التي أضاعت بحليها طرق السير في الليل الهيم . ولم تنفخ للمعركة ولا يارتواء سيوف السكامل ورماحه ، وإشباع الوحوش الطاوية من لحوم الفريسة النزاة .

والآيات تبرز ما كان المسلمون يشعرون به من خوف على الإسلام ، وتكشف عن شخصية البهاء ، ومع أنه من شعراء العليقة الثانية في هذا العصر إلا أن نعره من أفضل ما قيل في هذه المناسبة .

- (١) الغراب : نوع من السفن في ذلك الوقت .
(٢) الضواير : الجياد ، الأوضاح : الحصى التي تترين بها الخيول ، السراء : السائرون ليلاً .
(٣) الطاوى : الجامع

وعن سجلوا الانتصار في هذه الوقائع الشاعر المشهور ابن عتير^(١)
الذي قال :

سَلُوا صِهْرَاتِ الظُّهْلِ يَوْمَ الْوَعَى عُنَّا
— إِذَا جُهِلَتْ آيَاتُنَا — وَالتَّقَا الْإِثْمَانَا^(٢)
غَدَاةَ لَيْتِنَا دُونَ وَمِيَاطٍ جَعْفَلَا
مِنَ الرُّؤْمِ لَا يُحْصَى يَقِينًا وَلَا ظَنًّا
قَدْ اتَّفَقُوا رَأْيًا وَعَزَمُوا وَهْمًا
وَدِينًا ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا لُشْنَا^(٣)
عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَاضِي كُلِّ مُفَاضَةٍ
وَلَا صِلَ كَقَرْنِ الشَّمْسِ قَدْ أَخْكَمَتْ وَضْنَا^(٤)
وَأَطْلَعَهُمْ فِينَا غُرُورٌ فَأَرْقُلُوا
إِلَيْنَا سِرَاعًا بِالْجِيَادِ ، وَأَرْقُلْنَا^(٥)

وصف الشاعر في هذه الأبيات جيش الأعداء — كما كان يفعل المتنبي —
فكانوا كثرة لا تحصى ، وقد اختلفت انسابهم لكنهم اتفقوا في الرأي

- (١) هو محمد بن نصر الله بن الحسين ، أصله من الكوفة ، وولد بدمشق ،
وطاف بالبلاد الإسلامية حتى استقر في دمشق وتوفي بها سنة ٦٣٣ هـ
(٢) اللدن : اللينة الرنة
(٣) لسن : جمع لسان وهو القنة
(٤) الماضى : السلاح الحديدى ، المفاضة : الدروع الواسعة ، دلاس : لينة
برائه ، وضنا : سجننا .
(٥) أرقلوا : أسرعوا

والمزعة . وحل جيشهم الأسلحة الحديدية والدروع السابتة التي أحكم نسجها ،
وأسرع كل فريق من المتحاربين إلى اللقاء الذي يصفه ، فيقول :

فَا بَرِحَتْ مُعَزُّ الرِّمَاحِ تَنُوشُهُمْ
بِأَطْرَافِهَا حَقٌّ اسْتَجَارُوا بَنَى مِثْنًا^(١)
اَنْدَ صَبَرُوا صَبْرًا جِيلًا ، وَدَانَمُوا
طَوِيلًا فَا أَجْدَى دَفَاعٍ وَلَا أَغْنَى
لَقَوْا الْمَوْتَ مِنْ زُرْقِي الْأَيْتَةِ أَحْمَرًا
فَالْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ لِإِيْفَا فَاخْشَنًا^(٢)
وَمَا بَرَحَ الْإِحْسَانُ مِنَّا سَجِيَّةً
تَوَارَتْهَا مِنْ صَيْدِ آهَانِيَا الْإِبْنَا^(٣)
مَنْعَنَا بِقِيَامِهِمْ حَيَاةً جَدِيدَةً
فَعَاثُوا بِأَعْنَاقِهِمْ مَقْلَدَةً مِثْنًا^(٤)
وَلَوْ مَلَكُوا لَمْ يَأْتَلُوا فِي دِمَائِنَا
وَلَوْعَا ، وَلَكِنَّا مَلَكْنَا فَاخْجَعْنَا^(٥)
فَكَمْ مِنْ مَلِكٍ قَدْ شَذَذْنَا لِإِسَارِهِ
وَكَمْ مِنْ أَسِيرٍ مِنْ شَفَا الْأَشِيرِ أَطْلَقْنَا^(٦)

(١) تنوشهم : تقتلهم .

(٢) الموت الأحمر : القتل لكثرة ما يصاحبه من الدم .

(٣) الصيد : جمع أسيد وهو الصيد .

(٤) المن : القصة التي يمن بها صاحبها على من أحسن بها إليه .

(٥) لم يأتلوا : لم يقصروا ، أصحح : صلب .

(٦) إيسار : قيد ، شفا : جانب .

أَسُودُ وَحَى لَوْلَا قِرَاعُ سُيُوفِنَا
لَمَّا رَكِبُوا قَيْدًا ، وَلَا سَكَنُوا سِجْنَنَا

وقد أخذ المسلمون يقتلون الأعداء بالرمح حتى استسلموا بعد أن استقبلوا في دناهم ، ولما واجهوا الموت ، ويتسوا من الذعر أنقوا أسلحتهم عن يد وم ساغرون . وكان أن عفا المسلمون عنهم ، وأحسنوا إليهم ، ولم يقابلوا إسانتهم إلا بالصفح الجميل ، ولم يقتلهم مثلاً . كان الصليبيون يفعلون من قتل وإبادة المسلمين عند دخول بلادهم ، أو عند الانتصار عليهم ، ولهذا أشاد الفرنجة عندما رجعوا إلى بلادهم بتسامح المسلمين ، وصفهم عن الأسرى بعد كل انتصار ، وقد امتلأ الأعداء كراهية وبغضاً ، ولو كانوا هم المنتصرين لأهدروا دماء المسلمين ، ومثلوا بالقتل منهم . وذكر الشاعر أن المصريين قد عفا عن ملوك الفرنجة وأبطالهم الذين وقعوا في الأسر . ولعل ابن عنين قد شاهد بعضاً من جرائم الصليبيين في الشام ، فن عليهم بهذا الصفح والعفو والغفران من جانب المسلمين .

وهكذا عبر الشعراء عما يجيش في وجدان الأمة ، وتابوا جرائم المعتدين النزاة ، وسجلوا انتصارات الإسلام في معاركه الخالدة .

٤ — معركة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ^(١)

نزل الصليبيون على الجانب الغربي من النيل عند دمياط في شهر صفر

(١) في معركة دمياط سنة ٦١٨ هـ . لم يكن للمنصورة تاريخ حتراف أو وضع إقليمي ، ولهذا نسب ماجرى حولها من معارك في تلك السنة إلى دمياط . أما في معارك سنة ٦٤٨ هـ فقد تميز وضع مدينة السكامل محمد ، وأصبحت بالشهرة التي تتيح للمؤرخين أن يتحدثوا عنها ، وينسبوا إليها ما يجري فيها وحولها من المعارك .

سنة ٦٤٧ هـ (يونيو سنة ١٢٤٩ م) وتقدم الجيش المصري وترك لهم هذه المدينة التي عانت كثيراً من النزو الصليبي ، وانسحب تجاه المنصورة ، واستقر في جدبلة^(١) ، واستطاع الأعداء أن يقتربوا من الجيش المصري ، ولم يفصل بين الجيشين إلا البحر الصغير ، ثم عبر الصليبيون إلى جدبلة ، وانسحب المصريون إلى المنصورة ، وأبلا فيها بلاء حسناً في الدفاع عنها من جيوش الصليبيين الذين دخلوا المنصورة نفسها ، ووصلوا إلى باب السلطان ، وأسرفوا في غرورهم ونحبيهم حتى قاد بيبرس المقاومة فبدأت الانتصارات على يديه ، وحل التمهتر بالأعداء ، ووضعوا تحت الحصار ومنعت عنهم الميرة والأطعمة ، وغنم المسلمون من أموالهم مالا يحصى ، ولحق بهم الهزيمة ، وقتل عدد كثير منهم في فارسكور وغيرها ، ووقع قائدهم لويس التاسع في الأسر في محرم ٦٤٨ هـ (أبريل ١٢٥٠ م) .

وقد مات في أثناء الحرب سلطان مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأخفت زوجته (شجرة الدر) نبأ وفاته حتى لا يتأثر الجيش بالخبر ، وأدارت المعركة بمونة بحالها زوجها حتى تحقق النصر الذي فرح به المسلمون في كل مكان .

والشمر الذي قيل في هذه الواقعة قليل جداً إذا قيس بما قيل في الانتصار السابق على الفرنجة في الموضع نفسه في عهد الملك الكامل محمد والله الملك الصالح نجم الدين أيوب . وربما انصرف الناس ومعهم الشمر إلى الاضطرابات التي حدثت في هذه المعركة ، وامتنعت إلى ما بعد الانتهاء منها كقتل توران شاه ابن الملك الصالح ، وجلس شجرة الدر على العرش ، واستنكاز الناس لهذا

(١) بلد في ضواحي المنصورة .

التصريف الذي لم يتعمدا عليه . لقد انشغل الشعراء بهذه الأحداث على حساب الانتصار العظيم في المنصورة ، ولم نقرأ لهم - مما وصل إلينا - إلا أشعاراً قليلة كان معناها ما قاله ابن مطروح^(١) في هذه المناسبة :

قُلْ للفرنسيّ إذا جئتُهم
مقالَ صدقٍ من قنولٍ نصيح^(٢)
أَجْرَكَ اللهُ على ما جرى
من قتلِ عُبَّادِ يسوع المسيح
أتيت مصرَ تبغني ملكها
تخسبُ أن الزمرَ يا طيلُ ربح
وَتَأْتِيكَ الْخَمِينُ إِلَى أَدْهَمِ
ضاقَ به عن فاطريك القيص^(٣)
وكلُّ أصحابك أودعتهُم
بحسنِ تدبيرك بطنَ الضريح
خسوفُ ألفنا لا يُرى منهم
إلا قتلٌ أو أسيرٌ أو جريح
وَتَقْكَ اللهُ لَأَمْنَاهَا
لعلَّ عيسى منكم يضرب

(١) هو الشاعر المصري جمال الدين يحيى بن مطروح ، الذي ولد بمدينة أسيوط سنة ٥٩٢ هـ وأتم علومه بالأزهر ، ومدح الصالح أيوب ، وتوفي سنة ٦٤٩هـ أو ٦٥٠هـ على بعض الأقوال .

(٢) الفرنسي : هو لويس التاسع .

(٣) الخمين : الأجل ، الأدم : الأسود ، والمراد القيد الحديدى .

إن كان هلك بهذا راضياً
فربّ غشّ قدّ أفى من نصيح
وقلّ لهم إن أختروا عودة
لأخذ ثأرٍ أو لعقد صحيح
دارُ ابن لقمان على حالها
والقيدُ باقٍ والقلوانى صحيح^(١)

وقد ذكر ابن مطروح لويس التاسع بما جرى له في مياط والمنصورة عندما
افتتنه زوجته بخمسين ألف دينار، ورجع إلى بلاده، وأعلن استعداده للعودة
إلى حرب مصر. وهذا أرسل الشاعر هذه الأبيات التي كانت بمثابة نذير
يسمعه لويس وغيره من الفرنجة من كانت تسألهم أنفسهم غزو مصر.

وفي الأبيات خفة في الصياغة تواكب الروح المصرية، فضلاً عما بها من
تهكم وسخرية ومبالغة مقبولة وحوص على البديع.

أوأيت كيف حرص الشراء مع اختلاف أوطانهم على تسجيل ما دار
في مبارك الصليبيين، وكيف انهبروا بانتصارات المسلمين، فأخذوا يشيدون
بكل انتصار، ويسجلون كل فوز، ويمبرون عن وجدان الأمة، ويستجيبيون
لوحى الفخائر وصوت التوبيخ.

إن هذا الشعر الحماسي - مع ما يوجه إليه من نقد - لذو قيمة عالية القدر
في هذا العصر الدامي، قلّترجم - مثلاً - إلى ما قاله ابن مطروح بحق ترجمه

(١) القلوانى صحيح: هو الحارس على دار ابن لقمان بالمنصورة.

— موق القيمة الأدبية — كم من الحقائق التاريخية سجلها الشاعر في أبياته كعدد القتل والأسرى والجرحى ، ودار ابن لقمان ، وحارس لويس .

وكما سجل الشعر مآدار في كل انتصار سجل أيضا ماجرى في الممارك من هزائم وانكسارات غير أن هذا اللون لا يدخل في دائرة الشعر الحماسي مع ما فيه من حيرة وبيعة ، ولهذا اتجه بعض الشعراء — مع أول عصر الماليك إلى اللوائح القبوية كالبوصيري وغيره .

وإذا كنت قدمت إليك بعضا من حديث الشعراء عن أهم الممارك التي انتصر المسلمون فيها فإن هناك معارك أخرى كثيرة تحدث عنها الترييض وأشاد بها الأدب ، ويضيق للقام عن استيعابها والإفاضة فيها ، وإن كنا سوف نشير إلى بعضها في صفحات تالية .

ثالثا — الإشادة بالأبطال والتهنئة بانتصاراتهم

لقد أشاد الشعراء بالبطولة والأبطال ، وفتنوا بالانتصارات التي تحققت للحرب على الفرنج في المواقع المتعددة بأرض الشام ومصر ، ومعنى الشعر يسجل ما قام به الأبطال في هذه الحروب من تضحية وفداء، تخليدا لأعمالهم، وإبرازا لبطولتهم .

١ — عماد الدين زنكي^(١) .

هو واحد من الأبطال الذين سجل الشعر سيرتهم ، وغلد بطولتهم ، وقد نشأ في حلب ، واهتم به السلطنة ، ولذلك عدلما كبيرا ظهر تفوقا واضحا في

(١) كان والده أبو سيد آق سنقر الملقب بقتيل الدولة ، والمعروف بالحاجب عموكا لاسطان الساجوقى (ملكشاه بن ألب أرسلان) ومن المقربين لديه ، وهو ينتمى إلى قبائل (تركمانية) وقتل سنة ٤٨٧ هـ ، ولم يترك ولدا غير عماد الدين .

معاونتهم ، وإذ كان مولانا في دولتهم تتولى واسطا والبصرة ، ولقدرته الحربية
رشح اتولى الموصل حتى يقف مجرم في مواجهة الصليبيين ، وتسلم مهام منصبه في
رمضان سنة ٥٢١ هـ ، ثم استولى على حلب ، وعلى حصون كثيرة في جزيرة
الفرات و « لم يشأ زنكي الإشتباك مع الصليبيين منذ البداية ، رأى أن يسمى
أولا إلى تثبيت إمارته الجديدة ، وتميز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية ،
وتوحيد ما يمكن توحيد من الإمارات الصغيرة المتناثرة التي يبط به من كل
مكان ^(١) » ثم حارب الصليبيين ، وانتصر عليهم في مواقع متعددة ، وتحقق على
يديه فتح الرها سنة ٥٣٩ هـ ، فهدله الطريق للاستيلاء على الحصون المجاورة ،
واسترجع سائر الأماكن التي كانت بأيديهم شرق الفرات ^(٢) ، وكان كثير
الزواج لتحقيق بعض أهدافه السياسية والعسكرية ^(٣) ، وعرف بلقب
(الأتابك ^(٤)) « وقد بدأت تسمية زنكي بهذا اللقب في شعبان عام ٥٢١ هـ
عندما ولاه السلطان محمود الموصل ، وسلطه ولديه أب أرسلان وفروخ شاه
(المعروف بالفلجاني) وجعله أتابكا لهما ^(٥) » .

وعندما كان نائما في حراسة غلماته أثناء حصاره لقلة جسر المظلة على الفرات
قتله واحد منهم أو أكثر ، في ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ تغمر المسلمون به بطلا
كثيرا ، وبجاءه عظماء ، أبلى بلاء حسنا في مقاومة الصليبيين والدفاع عن الإسلام ،
وحماية القرب العري .

(١) حماد الدين زنكي للدكتور حماد الدين خليل ص ١٣٨ .

(٢) ماعدا البيرة .

(٣) راجع كتاب حماد الدين زنكي ص ١٧٢ .

(٤) تتكون الكلمة من لفظين تركيين هما (اتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير

أي (الأمير الوالد) .

(٥) حماد الدين زنكي ص ٢٢٦ .

ومن أشاد به من الشعراء ابن القيسراني الذي امتدح بطولته فقال :

هو السيفُ لا يُبْذِيكَ إلا جلاؤه
وهل طوى الأملَك إلا نجاده
وعن كثر هذا النصر فلنأخذ الظبي
سناها ، وإن فات العميون اقتاده
سمت قبلة الإسلام فتحراً بطوليه
ولم يك يسمو الدين لولا محاده
ليتن بني الإسلام أمن ترفع
رواسيه عزاً ، وأطمان مهاده
وفتح حديث في السماء حديثه
شهى إلى يوم المصادر محاده

والآبيات واضحة الدلالة في حماسها ، وقد نوه الشاعر فيها بانتصار
حماد الدين في الرضا ، وأهاب بالسيف أن تأخذ ضيائه وبريقها من ثغره ،
ودعا العميون لنشجع النظر منه وإن تعذر عليها ذلك لانتاده وتوهج ضيائه .
وقد عات السكينة للشرفة بهذا الظفر ، وسمت بما حققه حماد الدين من استرجاع
الأرض ، وثبتت الأمن حتى وصلت أنباء هذا الفتح إلى حنان السماء .

وأنشده ابن القيسراني أيضا :

حذار مينا ، وأنى يرفع الحذر
وهي السوارم لا تبني ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك
من خيل النصر لا يل جفده القدر

سَلُوا سُيُوفًا كَأَغْزَادِ السُّيُوفِ ، بِهَا
صَالُوا ، فَا أَغْزَدُوا قَتْلًا وَلَا شَهْرًا
حَتَّى إِذَا مَا عَادَ الدِّينَ أَرْحَقَهُمْ
فِي مَأْرَقٍ ، مِنْ سَنَاءِ يَبْرِقُ الْجَعْرُ
وَأَلُّوا تَضِيقُ بِهِمْ ذَرْعًا مَسَالِكَهُمْ
وَاللُّوتُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا وَزَرَ

وقال ابن منير الطرابلسي :

فَدَنَّتْ الْمُلُوكُ وَأَبْأَمَهَا وَدَامَ لَدُنْكَ لِإِرَائِهَا
وَزَلَّتْ لِقَيْشِكَ أَفْذَامُهَا وَزَالَ لِبَطْنِكَ إِقْدَامُهَا
وَلَوْ لَمْ تُسَلِّمْ إِلَيْكَ الْقُلُوبُ هَذَاكَ ، لِمَا صَحَّ إِسْلَامُهَا

وقال أيضا :

مَلِكُ أَسْهَرَ عَيْنَنَا لَمْ تَزَلْ
كَهْمُهَا تَشْرِيدُ هَمِّ الرَّاغِبِينَ
لَا خَلَّتْ مِنْ كَجَلِ النَّصْرِ فَقَدْ
مَقَاتَ غَيْظًا عِيُونَ الْحَسَائِدِينَ
لَوْ جَرَى الْإِنصَافُ فِي أَوْصَافِهِ
كَانَ أَوْلَا مَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

وهكذا وجد حماد الدين أكثر من شاعر يشيد به ، ويسجل انتصاراته ،
ويجملها أعياداً ، حتى رأى ابن منير جديراً بقلب أمير المؤمنين .
وقد بدأت الأبيات الأولى لابن التيسري حاسية قوية أكثر من غيرها ،
ويجمل إلى أن ذلك راجع لاتصالها بموقعة الرضا ، فضلاً عما بها من توهج
لعاطفة الشاعر .

٢ — نور الدين محمود

ولد نور الدين محمود سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) ونشأ في رعاية والده عماد الدين زنكي، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم الفروسية والرمي، واتخذ من حلب — بعد وفاة أبيه — عاصمة للملك، وخاض ضد الصليبيين عدة معارك ناجحة، وأخضع لنفوذه عدة مدن من إمارة أنطاكية بعد أن قتل أميرها، وتمسك من ضم باقي مدن الرها، فأكمل بذلك جهاد أبيه في هذه البلاد، ثم أسر بعد ذلك أمير أنطاكية وطرابلس، ولم يطلق سراحهما إلا بفدية كبيرة، وتملك دمشق، وقهر أميرها^(١) وأحاط بالصليبيين من الشمال والشرق، وسير إلى مصر ثلاث حملات فضمها إليه، وعقد العزم على القضاء عليهم، ولكن القدر لم يمهله فأصيب بأزمة قلبية، وتوفي سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) بعد أن قام بمجد كبير في خدمة الإسلام.

وانتد ظفر نور الدين بنصيب كبير من قريش الشعراء حيث سجلوا انتصاراته، وعددوا مآثره وأشادوا ببطلانه في قتال الأعداء، وافتخروا عن لسانه في شعر حماسي مقتد.

وهذه أبيات من قصيدة طويلة للمعاد الأصمعي توضح شجاعة نور الدين، وتبرز جانباً من تلك الصورة الكبيرة التي رسمها المعاد بصدق الفن وإلهام الشعر لهذا البطل العظيم قال:

أدر كنت من أمر الزمان الشقي
وبلغت من نيل الأمان النقي
وبقيت في كنف السلافة آمناً
مكراً ما بالطبع لا متكرها

(١) معين الدين أنر، الذي تحالف مع الصليبيين لمواجهة نور الدين.

يا من أطاع الله في خلواته متأوبا من خوفه متأوها
ما صين عنك الصين لو حاولتها والمشرقان فسكيف متبجج والرها
ما الملوك ادى ظمورك روثني وإذا بدت شمس الضحاقي الشها^(١)
ما نمت عن خير، ولم يك فاعما من لا يزال على الجليل منها
ورأيت إزعاء الرعايا واجيا تفتي فقرا، أو تجير مدنها^(٢)
وبما به أمر الإله أمرتهم من طاعة، ونهيتهم عما نهى
فقت الملوك سماحة وحاسة حتى عدنا لك مشيها
ولك القنار على الجميع فدوتهم أصبغت من كل العيوب منزها

قال المباد هذه الآيات في نهضة نور الدين بفتح قلعة نجم ، وقد أشاد به ، وامتدح صفاته المتمدة كالحماسة والنجدة والشجاعة والتقوى، والمصارحة وصواب الرأي ، وهذه صفات لازمة للقائد الذي يتعب لراحة أمته ، فإذا ما أحسن معاملتها ، وقضى لها حوائجها ، أحسنت هي الأخرى إليه بالحبة والمودة، وإسداء النصيح ، وبالمعونة الصادقة في مقاومة الأعداء حتى يتحقق النصر في ميدان القتال وهذه الصفات التي كانت واقعا ملموسا في شخصية نور الدين استطاع أن يحقق انتصارات كثيرة على الصليبيين ، كما أرغمهم بقتاله لهم في الشام على ترك مصر ، والإلتحاق منها لأكثر من مرة .

وتسكشف الآيات عن تها لك المباد على البديع ، وبخاصة الجناس الذي فتن به وأكثر فيه كقوله (ما صين عنك الصين) وقوله (سماحة وحاسة) إلى غير ذلك مما في الآيات المذكورة ، أو بما في غيرها من آيات التصديده .

(١) السها : كوكب صنبر خفي الضوء .

(٢) الدلة : بتشديد الدال وسكون اللام أو فتحها : ذهب الفؤاد من هم أو نحوه .

وفي انتصار نور الدين على الفرنجة في موقعة يقال لها « أنب » قال ابن
القيصري قصيدة يهنئه فيها بهذا الفتح ، ويشيد ببطلانيه ، ومنها .

هذى المزامم لا ما تدعى القُضْبُ
وهذى المكارم لا ما قالت الكُفْبُ (١)
وهذى الميمم التي متى خطبت
تمتعت خلفها الأشعار والخطب
أغرست شيوفاك بالأفرنج راجفة
نواد رومية الكبري لها يحب (٢)
غضبت للدين حتى لم يبقك رضا
وكان دين الهدى مرضاه القُضْبُ
كلنا نمدح حتى أطرافنا نطرقا
فلملكتك الظلما ما ليس تحسب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي الحجب
يوليك أقصى لأقوال القدس مرتقب (٣)
وائذن لأوجك في تطهير ساحله
فإننا أنت بحسب لجهه الحجب (٤)

والقصيدة التي أخذنا منها هذه الأبيات تمد من أروع ما قيل من الشعر في

(١) القُضْبُ : جمع قضيب ، والمراد آلات الحرب .

(٢) يحب : يضطرب .

(٣) الاجب : صوت المسكر ، والمراد جيش عرمرم ذو كثرة .

(٤) لجه : مأواه الكثير ، لجب : أى ذو أرواح مضطربة .

للدة ، ويظهر ويتضح الفرق بينها وبين ما قاله العماد في نور الدين أيضاً، وهذه الأبيات قريبة الشبه بما قاله أبو تمام في المتصم مع اتفاق القصيدة في الوزن والروي وإن تفوق الطائي على ابن القيسراني كثيراً .

وعلى كل فهذا الشاعر كان من أفاضل الشعراء في هذه الحقبة ، وشعره ينفى عنه ، وقد أمدح هنا نور الدين ، وجعل عزائم الجبارة أقوى وأسبق مما ذكرته خطب الحروب وكعب التاريخ ، وذكر أن الإشمار تمجوز عن وصفه ، وأن صيته بلغ عاصمة الفرنجة ، وكان غضبه للدين فأباد جيوش المحتلين ، وحقق عالم يحلم به ، ثم ناشده أن ينهض إلى المسجد الأقصى يجيشه الجرار حتى يهده وبحره فالقدس لا زال في انتظاره بدعوه ويناديه حتى يزيل عنه وجس المعتدين ، وحق ينتقل إلى ساحل فلسطين ، فمطهره ، وبفك أسره من قيود الإحتلال البنيضة .

٣ - صلاح الدين :

ينسب صلاح الدين إلى أسرة كردية عريقة استقرت في عهد جده شاذي ابن سروان الكردي بقلعة (تكريت) بالعراق . ثم أسر والده (نجم الدين أيوب) بالرحيل عنها في عام ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) .

ولد صلاح الدين يوسف في اليوم الذي أسر فيه والده وعمره أسد الدين شيركوه بمفادرة تكريت ، ثم نشأ في الوصل التي انتقلت الأسرة إليها ، واكتسبت نشأته في بعلبك حيث كان والده حاكماً عليها من قبل عماد الدين زنكي

وقد حفظ القرآن الكريم ، ودرس اللغة العربية ، وتعلم الفروسية ، وانتقل مع والده إلى دمشق ، وأسندت إليه رئاسة الشرطة فيها ، ونال التقدير

والاحترام من الجميع ، واشترك مع عمه في حملات ثلاث إلى مصر ، ثم استقر فيها ، وآلت إليه وزارتها.

وبعد وفاة نور الدين استكمل الناصر تأسيس الدولة الأيوبية في مصر التي نظمها داخلياً ، وضم إليها اليمن والحجاز ، وانتقل إلى الشام ، وضمه إليه ، وأصبح سلطاناً على مصر والشام وسوا مل شمالي أفريقيا ، واليمن والحجاز ، ثم أخذ يجهز نفسه للحرب الحقيعية ضد الصليبيين في إماراتهم بالشام ، والتقى بهم ، وهزمهم في مواقع كثيرة لعل أشهرها موقعة حطين في سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) . واسترجع بيت المقدس ، وحارب ملوك أوروبا الكبار ، ثم اصطالح معهم الظروف أحاطت به ، وللاأس من تحقيق آماله في القضاء القام عليهم ، وعمل على إصلاح حال رعيته ، ثم ذهب إلى دمشق ، واستقر بها ، ومات فيها - بعد مرض قصير - في سنة ٥٨٩ هـ بعد حياة حافلة دامت سبعة وخمسين عاماً .

وقد عمت شهرته الآفاق ، وطار ذكره بين الشرق والغرب ، وتماثلت به قلوب المسلمين عندما كانوا يرون عبث الفرنجة بالمقدسات الإسلامية واستهزاءهم بالدم العربي الذي أريق في مصر والشام والعراق من غير ذنب ، وقد أكل صلاح الدين ما بدأه أسلافه الزنكيين ، وإن كان قد زاد عليهم لتحريره بيت المقدس ، واستكثرة انتصاراته على الفرنجة ، واتساع مملكته ، والانتفاف الناس من حوله .

ولقد أخذ الناصر حقه من الشهرة والذبول العيت ، بل ونال أكثر من حقه فلقدمات والفرنجة رابضون عن سوا مل الشام بينما لم ينل واحد من الممالك الذين قضا على الصليبيين قضاء تاماً وأزاحوهم من الشام عشر ما ناله صلاح الدين ، وعلى كل فقد جاهد الجميع كل على قدر ما وقفه الله ، على أن معيار الشهرة والذبول لدينا هو الشعر الذي قيل في هذا أو ذاك ، فلقد تضافر على

الإشادة بصلاح الدين ورسم بطولته أكثر من خمسين شاعراً ، وهذا عدد ضخم لا يتوفر - في مدى علمنا - لكثير من الرجال على مر العصور . نذكر من هؤلاء علم الدين الشافعي الموصل^(١) الذي أشاد به فقال :

أرى النصر مفعوداً برأيتك المشرقاً
فبصر وأفتح الدنيا ، فانت بها أخرى
وأشاد به أبو علي الحسن بن علي الجوبلي فقال :

أضحت ملوك الفرنج الصيد في بدي
صبيداً ، وما ضفروا يوماً ، وما هانوا

وهكذا اجتمع حوله وأشاد به شعراء كثيرون^(٢) من الأندلس كابن جبير ، ومن مصر كابن قلاؤس وابن سناء الملك ، ومن أصبهان كالعماد (محمد بن محمد) ، ومن العراق كسبط بن التماويدي ، ومن الشام كإسامة بن منقذ ، وغيرهم . كثير مثل عبد المنعم بن عمر حسان ، ومحمد بن أسعد الجواني ، وابن الشحنة (عمر بن محمد) وابن الدهان (عبيد الله بن أسعد) ، والحسين بن عبيد الله بن رواح ، والأسعد بن عمار ، فضلاً عن القاضي الناضل (عبد الرحيم البيهقي) .

وكان بعض شعراء صلاح الدين لا يتخذون لهم وطناً واحداً ، بل يتنقلون بين البلدان الإسلامية كابن عنين وابن العاني . وامل في هذا العدد الكبير

(١) توفي سنة ٥٧٩ هـ .

(٢) راجع شعراء صلاح الدين في كتاب الزواجر لأبي شامة ، وفي بعض الكتب الحديثة مثل كتاب الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد بدوي ص ٤٦٦ وما بعدها ، طبعة دار نهضة مصر .

من الشعراء وغيره كثير ما يؤكد التفاف الشعراء حول الأبطال، خاصة إذا كان هذا البطل هو صلاح الدين الذي يحقق الانتصارات في معامم القتال، ويحب القراءة، ويتذوق الشعر ويحفظ كتاب الحاسة، ويستجيب للكتابة الجلية والجليلة الرقيقة في مجالس السلم.

كان الشاعر سبط بن التعاويذي يعيش في العراق بعيداً إلى حد ما عن أتون الحروب الصليبية، ولم يكن شاعراً خاصاً بصلاح الدين لكنه عاش متفاعلاً معه، متجاوياً مع أعماله، وكان يرسل إليه القصيدة تلو القصيدة في ضوء النهار أو في غيش الليل فيحثه على القتال، ويشجده في الانتصارات مجدداً بطولته متحمساً لكفاحه ونضاله، قال في قصيدة طويلة^(١):

حَلَّتْ بِدَيْدِ الْعَقَامِ فَأَجَبَتْ
أُمُّ الْعَلَى مَا كُلُّ أُمِّ مُنْجِبٍ
مَلَكْتُ سَجَايَاهُ الْقُلُوبَ حَيَّةً
إِنَّ الْكَرِيمَ إِلَى الْقُلُوبِ مُحِبُّ
كَفْ تَسْكُفُ الْحَادِثَاتِ وَرَاحَةً
تَرْتَاخُ لِلْجِدْوَى وَقَلْبُ قُلُوبِ^(٢)
وَلَدَى يَهْتَنُّ إِلَى الثَّقَاتِ تَكْرُمًا
وَمَوَاهِبُ بِالطَّارِقِينَ تَرْحَبُ

(١) راجع القصيدة في الديوان ص ٢٢ وما بعدها طيبة الانتعاف: مرسنة ١٩٠٣ طبع ونشر المشرق مرچليوت وأبانتها ستة وسبعون، وقد أرسل سبط هذه القصيدة إلى الناصر بدمشق سنة ٥٨٠ هـ، وترقى سنة ٥٨٤ هـ.

(٢) قلب قلب: متقلب متلون يحنال للأمر، ويعرف قلبها.

(١٤ - شعر الحاسة)

ومرارة كالنار شارب خيراتها
خَلَقَ أَرْقَى مِنْ الدَّامِ وَأَطْيَبُ
مُفْرِيه بِالْعَفْوِ الْجَنَّةُ كَأَنَّهَا
جَانِي إِلَيْهِ بِذَنْبِهِ وَيَتَقَرَّبُ
فَهِيَ لَمْ حَقًّا عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَسْكُنْ
لِيَبِينَ فَضْلُ الْعَفْوِ لَوْلَا لِلذَّنْبِ
بِطَالِهِ شَأْنُ ابْنِ أَبِي بَرْقٍ
أَنْصَاءَكُمْ مَا كُلُّ شَأْنٍ يُطْلَبُ

ذكر الشاعر في هذه الأبيات بعضاً من ملامح صلاح الدين ، ووصفه بأنه
الصفات ، وأكرم الخصال ، وجعله يأتي إلى الحياة وهي أكثر احتياجاً إليه
لما فيه من الكرم والمطاء ، وحسن الأمور والمعفو عن القذرة . ثم تحدث عن
كفاحه وجهاده فقال :

وَعَصِيَتْ لِدِينِ الْخَنِيْفِ وَلَمْ تَزَلْ
فِي اللَّهِ تَرْضَى مُنْذُ كُنْتَ وَتَنْقَبُ
عَاذَرْتَ أَهْلَ النَّبِيِّ بَعْدَ مُجْدَلٍ
كُنِيَ الْحِمَامَ وَخَانِضٍ يَتَقَرَّبُ^(١)
أَوْ هَارِبٍ ضَاقَتْ عَلَيْهِ بُرْجَانُهَا
أَرْضُ الْقَضَاءِ وَأَيْنَ مِنْكَ الْمَهْزَبُ
فَأَصْبَحَ بِلَادَ الرُّومِ مِنْكَ بِقَاوِرٍ
لِلْعَصْرِ فِيهَا رَائِدٌ لَا يَسْكُذِبُ

(١) مجدل : صريع وملقى على الأرض .

وَاحْسِبْ بِحَدِّ ظَلَمِكَ دَامَا حَسْبُهُ
وَدَوَاؤُهُ بِمَدِّ التَّفَاقُمِ يَتَشَبُّ
حَسْبِي بَرَى لِلشَّرَفِيَّةِ مَطْعَمُ
بِالْفَتَكِ مِنْ تِلْكَ الدَّمَاءِ وَتَشْرَبُ
لَا تَعْقُونَ إِذَا ظَفَرَتْ بِمُجْرِمٍ
مِنْهُمْ فَوْبٌ جَرِيءٌ لَا تَوْهَبُ
فَلْتَشْكُرْكَ أُمَّةٌ تَحْنُو عَلَى
صُفَاتِهَا جَدَّهَا كَمَا يَحْنُو الْأَبُ

ذكر الشاعر أن غصبة صلاح الدين لم تسكن نزوه أو شهوة ، وإنما كانت غصبة في سبيل الدين ، قال إنه ترك الأعداء بين سريع وخائف من الموت ، وهارب ضاقت به الأرض ، ثم ناشده مواصلة الإغارة على بلاد الروم لحسم أمرهم والقضاء عليهم حتى لا يصبحوا داءا يصيب شفاؤه .

وكان الصليبيون يجمعون في القسطنطينية ثم ينطلقون منها لنزو بلاد المسلمين ، فاشاعر لا يفرق بين الروم كغيران للمسلمين والأفرنج كنزاة محتلين بهم جميعاً من جهة الصليب .

وإلى القاري يلاحظ معنى أن الشاعر في هذه الأبيات لم يتناول موقعة معينة وإنما قصد إلى ذكر الصفات والخصائص البطولية في شخصية صلاح الدين من خلال هذه الأبيات الحاسية .

وإلى التماويدي في هذه الأبيات متأثر بالتداني من الشعراء ، وإن لم يه في إلى عمق معانيهم وأخيلتهم . ومع ما فيها من صبرة لكنها أفضل كثيراً مما به للشعراء الصوريين في ذلك الوقت .

وقد قصدت أن أذكر موطن هذا الشاعر حتى يقرأ كد الفرق بين بيئة الشعر في العراق، وبينه في مصر والشام أيضا فقد كان الشعر العراقي - والحاسي معه بخاصة - في هذه الفترة بفضل الشعر المصري كثيرا، فالعراق إبان ذلك كانت موطن الخليفة العباسي، ومركز الحكم، ومستقر الأدياء، وملاقى الشعراء. أما في مصر والشام فكانت القيادة أيوبية كردية، ومع حرص رجالها على الأدب وتذوقهم له، وحفظهم للكثير منه، فقد بقي الشعر في العراق متقدما في القرن السادس الهجري وهو العام الأول من عصر الحروب الصليبية.

وقد تنأ كد هذه المأني إذا قدمنا أبياتا لشاعر مصري معاصر لابن التتعاويذى كابن سناء الملك إذ أن له العديد من القصائد التي تحدث فيها عن بطوله صلاح الدين وحاسه فقال في إحداها^(١).

تَجْتَنِي النَصْرَ مِنْ ظَبَاكَ كَانَ الْإِ
مَضْبَ قَدْ صَعْنُوهُ أَوْ سَارَ غُصْنًا^(٢)
قَصَدْتَ تَحْوِكَ الْأَعَادَى فَرْدًا أَوْ
لَهُ مَا أَسْلُوهُ عَنْكَ وَعَنَا
لَمْ تَلَا فِي الْجِيُوشِ مِنْهُمْ وَلَكِنَّ
لَكَ لَا قِيَتَهُمْ بِلَادًا وَمُدُنًا
خَانَهُمْ ذَلِكَ السَّلَاحُ فَلَا الرُّمَّةَ
حُ تَنْقَى ، وَلَا اللَّهْدُ طَلْدًا^(٣)

(١) راجع القصيدة في الديوان ص ٣٤٠ وما بعدها . طبعة دار الكتاب العربي .
(٢) تجتنى : تلتقط الجنى وهو ما يلتقط من الشجر ، المضب : السيف القاطع .
(٣) طن : صوت .

وتوالت تلك الخيول فكم بُذِ
 في عليها بأنّها ليس * بُذِي
 واسعمالت شقائق السكفر صُنَّتَا
 حين عادت تلك الشجاعة جُفِيا
 وجرت منهم الدماء بحاراً
 فجبرت قوتها الجزائر صُنَّتَا^(١)
 صُنَّتْ منهم وليمة وخش
 رقص المشرق فيها وَغَى

جمل ابن سناء السيف غصنا يعني منه النصر ، وقد استعان صلاح الدين بالله
 في مقاومته للأعداء الذين كانوا قلائعاً ومدناً ، ولم يكونوا جيوشاً فقط تسهل
 مقاومتهم . وقد خانهم سلاحهم ، وتعبد في أيديهم ، وتحولت شجاعتهم
 وأصواتهم العالية إلى خور وجبن ، وجرت دماؤهم بحاراً وفيها جثثهم كالسفن
 التي صنمت منها وليمة للوحوش قام فيها السيف بالرقص والفناء . وقال :

وحوى الأسر كل مَلَكٍ يَظُنُّ الدَّ
 مَرَّ يَفْنَى وملكه ليس يَفْنَى
 والمليك العظيم فيهم أيـه
 يَفْنَى في أَدَمِ يَفْنَى^(٢)
 يحسب النوم بَقْطَةً وَيَظُنُّ الشَّ
 خَصَّ طَوْدَا ، وَيُفْهِرُ الشَّمْسَ دَجَنًا^(٣)

(١) الجزائر : جمع جزور وهو الديبج .

(٢) الأدم : القيد .

(٣) الدجن : النيم .

كَمْ نَمُتَّى الْمَقَامَ حَتَّى رَأَى
فَقَمَّيْتُ لَوْ أَنَّهُ مَا تَمَّتْ
رَقًّ مِنْ رَحْمَةٍ لَهُ الْقَيْدُ وَالْزُلُّ
عَلَيْهِ فَكَلَّمَا أَنْ أُنَادَى
وَتَهَادَتْ عَرَائِصُ الْمَدَنِ تَجَنَّى
وَتَحَارُّ الْأَمْوَالِ مِنْهُنَّ تَجَنَّى

وإبن سفاء الملك في هذه الأبيات يشيد بصلاح الدين عند إيقاعه بملوك الفرنجة في الأسر ، ثم خص بالذكر مليك بيت المقدس الذي كان يرزح في دل الأسر حتى فقد وعيه ، وشاهد الأشياء على غير حقيقتها ، كما ندم على سابق أمانيه في لقاء صلاح الدين ندما رق له قيده ، وشاركه في أبيه ، ثم جاءت مدن الشام وعرائسه إلى صلاح الدين لتقدم له ثمار ملكها حتى ينهض بطلها .

وقد سبق أن طرق هذه المأني شعراء سابقون ، وحاول ابن سفاء أن يقلدهم ويحتذهم ، ولكنه بدأ متسكناً متصقفاً .

ولنقرأ له تلك الصورة التي جعل فيها دماء الأعداء أنهاراً ، وفي هذه الأنهار تطفو عليها جثثهم كالسفن . ثم أقرأ له عن الصورة التالية التي جعل فيها السيف ينقى ويرقص في وليمة الوحش في أعقاب النصر ، ولاحظ أيضاً كيف الشاعر بالبديع ، وعنايته بالطباق ، والجفاف منه بمحاسة .

فالشعر في مصر والشام في هذه الفترة لم يصل إلى مرتبة نظيره العراقي والشعري في معظم الأقطار حتى نهاية العصر المملوكي الثاني قد تحول عن قوته وروحيته التي كانت في أول هذا العصر .

(١) الزل : القيد .

٤ - خلفاء صلاح الدين:

التف الشمراء بخلفاء صلاح الدين ممن حلوا لواء الكفاح من بعده ضد الفرنجة في مصر والشام ، فأشادوا بانتصاراتهم ، وتغنوا بأجسادهم ، وسجلوا أمداد في معاركهم .

ومن هؤلاء الخلفاء الملك العادل أخو صلاح الدين ، والذي رفع لواء المقاومة لفترة طويلة بعد وفاة أخيه ، وفي تمجيد البطولة عنده قال ابن سناء الملك^(١)

ويا أعاديه لا يفرُّركم مهل
منه فإنكم منه على قرار^(٢)
ألم تدفعكم على رخم بوازره
وكل دزع عليكم قد من دبر^(٣)
وَدَّ العدي أن يكونوا من رعيته
فلتأخذوا الأمن تمويصاً من الحذر
برمي الشجاع وإن أضحي ويقتلها
نفع يفرق بين الشخص والبصر
تقلد الدين سيقاً منه ما برحت
سيفه البيض خراً من دم حذر
فله موقف حرب كفت قائمه
وقائم النصر فيه غير منقطر

(١) راجع القصيدة في الديوان ص ١٢٢ وما بعدها .

(٢) غرر : خطر .

(٣) بواثر : جمع باثر وهو السيف الفاطم .

عَزَمَتْ فِيهَا جُوعَ الشَّرِكِ فَانْفَطَرُوا
إِنْ أَرْجَاةٌ لَا تَقْوَى عَلَى الْحَجَرِ
بِمَنْ قَضَاهُ فِي الْأَلَمِ عَادِلٌ
أَفْنَيْتَ بِالْقَدْلِ أَهْلَ الشَّرِكِ وَالْأَيْتَرِ^(١)

وهذه الأبيات لا تقترب بموقف محدد ، ولم يذكر الديوان لها مناسبة معينة ، وإنما تحدث فيها الشاعر عن جهاد الملك العادل ، الذي قاد بنى أيوب بمد صلاح الدين في قتالهم ضد الصليبيين بمصر والشام .
وقد أشاد الشعراء بشير العادل من خلفاء صلاح الدين الذين قادوا من بعده حملات الجهاد ضد الصليبيين .

رابعاً — الفخر الحماسي

اشترك كثير من شعراء الحروب الصليبية في الممارك ، وأسهموا في تحقيق الانتصارات ، ولذلك قرأنا لهم شعراً حماسياً يفتخرون فيه بشجاعتهم وبأسهم في أيام القتال ، وكان هذا اللون الشعري يفرى الأبطال الذين لم يقولوا الشعر بأن يوجهوا شعراءهم ، ويطلبوا منهم أن يقولوا شعراً يفرط حماسياً ولكن على أسنة الأبطال أنفسهم ليمجدوا بطولتهم ، ويتقنوا بانتصاراتهم ، ويفتخروا بما حققوه وأنجزوه على سائر السلاطين والأمراء .

ويعد طلائع بن رزّيك في مقدمة الشعراء البارزين الذين بذلوا جهوداً غلصة لتطويق الفرنجة ، وإجلائهم عن مدن الشام ، وكان طلائع وزيراً

(١) الأثر : البطر .

مصريا ، وشاعرا حاسيا في عهد الدولة الفاطمية ، فإذا انتخب بحجاسته ، أو محس في نغره ، فإن ما لديه من الواهب والإمكانات في الشعر والنقل لسكاف في التدليل على صدقه وحسن نواياه .

وقد أرسل بالقصيدة التالية من القاهرة إلى صديقه الأمير أسامة بن مقفد بالشام لكي يتوسط له عند نور الدين محمود من أجل توحيد جهودهما في حرب الفرنجة بحيث يتكفل نور الدين بحريهم من الشمال ، وينهض لهم ابن رزيك من الجنوب ، لكي يقضيا عليهم ، قال (١) :

أَلَا هَكَذَا فِي اللَّهِ مُنْخَضِي الْعَزَائِمِ
وَتَمِثُّ لَدَى الْحَرْبِ السُّيُوفُ السُّوَارِمِ
وَتُسْتَنْزَلُ الْأَعْدَاءُ مِنْ طُورِ عِرَّيْمِ
وَأَيْسَ سِوَى سُمُرِ الرِّمَاحِ سَلَالِمِ
وَتُنْزَى جِيُوشُ الْكُفْرِ فِي عَقْرِ دَارِهَا
وَبُوطًا رِجَالُهَا ، وَالْأَنْفُ رَوَاغِمِ
وَيُؤَيِّ السُّكْرَامُ النَّازِدُونَ بِنَذْرِهِمْ
وَأِنْ مَهَذَّتْ فِيهِ النَّفُوسُ الْكِرَامِ
نَدَرْنَا مَسِيرَ الْجَيْشِ فِي صَقَرٍ ، فَمَا
مَضَى نَصْفُهُ ، حَتَّى انْقَضَى وَهُوَ غَائِمِ
بِمَتْنَاهُ مِنْ مَعْرِ إِلَى الشَّامِ ، قَاطِعًا
مَقَاوِزَ ، وَخَدَ الْعَيْسَ رِيْبِينَ دَائِمِ (٢)

(١) ديوان طلائع بن رزيك ص ٩٢ .

(٢) للمفاوز : جمع مفازة وهي القلاء ، والوخد : الإسراع ، العيس : الإبل البيضاء بحالط يامنها عقرة .

فما حاله 'بشد' الدمار، ولا تقي
عزيمته 'جهد' الظلم والسماح^(١)
يهجر' والمعنور' في قعر وكره
ويستري إلى الأعداء، والتعجب' نائم^(٢)
ورفقه' عين' الزمان ، وحاتم
ويحيى ، وإن' لاقى للثنية ، حاتم^(٣)
مغنى طائر' الأنواب' من كل رتبة
شهيذا ، كما تغني السراة' الأكارم^(٤)

استنفض الشاعر في هذه الأبيات عزائم رجاله وهم أبطاله ، وبدأ متحمساً متأهباً كارهياً للصليبيين ، ولهذا جمع جيشاً مسلحاً كبيراً هاجمهم به في عقر دارهم (التي أقاموا بها محتلين لها) دون أن يعبأ بشقات السفر ووعناء الطريق الذي كان ملتويًا بمقاوذه وفلواته ، ومن غير أن يقول بالذهاب أو يرجع في بعض الليل ، وظل قيادته أعظم الأبطال الذين نذروا فأوفوا بنذرهم . وحقق الجيش أهدافه بموتهم وحسن قيادتهم ، ورجع غانماً ، ومن مات منهم مغنى شهيداً مؤمناً وتيقاً طاهراً .

وانتقل الصالح إلى الحديث عن فرق جيشه ، وعما قامت به في الشام ، وأشاد بقدرتها في لقاء الأعداء ، قال :

- (١) السماح : جمع سموم وهي الريح الحارة .
(٢) يهجر : يسير في وقت الهجرة ، وهي نصف النهار عند زوال الشمس .
(٣) الاسماء للذكورة أعلام لثلاثة قواد .
(٤) السراة : السادة .

فَلَقَوْهُمْ زُرُقَ الْأَسْتَقَةِ ، وَانْطَوَوْا
 عَلَيْهِمْ ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْ الْكُفْرِ تَاجِمٌ^(١)
 وَحَسْبُكَ أَنْ لَمْ يَبْقَ فِي الْقَوْمِ قَارِسٌ
 مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا وَهُوَ لِلرُّفُجِ حَاطِمٌ^(٢)
 وَعَادُوا إِلَى سُلِّ السِّبْوَفِ ، فَتَقَطَّعَتْ
 رُؤُوسٌ ، وَخَزَتْ لِلْفَرْنَجِ غَلَاصِمٌ^(٣)
 فَلَمْ يَفْجَعْ مِنْهُمْ يَوْمَ ذَلِكَ مَخْبِرٌ
 وَلَا قَيْلٌ : هَذَا وَحْدَهُ الْيَوْمَ سَالِمٌ
 كَذَلِكَ مَا يَفْقَهُ تَهْدَى إِلَى الْعِدَا
 وَلِلْوَحْشِ أَمْشَاشٌ لَهُمْ وَمَأْنَمٌ
 وَتَشْرِى لَهُمْ آرَاؤُنَا وَجُيُوشُنَا
 بِدَاعِيَةٍ تَبْيَضُ مِنْهَا الْمَقَادِمُ^(٤)
 نَقْلُهُمْ بِالرَّأْيِ طَوْرًا ، وَتَارَةً
 تَدُوسُهُمْ مِنَ الذَّاكِي الْمَلَادِمُ^(٥)
 وَمَا نَحْنُ بِالْإِسْلَامِ لَشَرِّكَ هَازِمٌ
 وَلَسَكِنَّا الْإِيمَانُ لِلْكَفْرِ هَادِمٌ

- (١) نجم : ظهر .
 (٢) الحاطم : المكسر .
 (٣) الناصدة : اللحم بين الرأس والعنق .
 (٤) مقدم العين : مائل الأنف ، ومقدم الوجه : ما استقبلت به .
 (٥) المذاكي من الخيل : ما أتى عليها بدد قرحها (اكتنال أسنانها) سنة أو سنتين
 والصلدم كزبرج : الأسد ، والصلب الشديد الحافر .

~~~~~



ذكر ابن رزيك أن جيوشه أغارت على الأعداء ، وقضت عليهم في معركة شديدة بدأها الفرسان بتعطيم رماحهم ، ثم عمدوا إلى إخراج السيوف من أعقابها لقطع رقابهم فأبيدوا جميعا ، وقدمت أجسامهم غذاء للوحوش ، ثم أشاد بتعاون الرأي والشجاعة في قتال الفرنجة حتى تحقق النصر للإسلام والإيمان على أهل الشرك والإلحاد .

وبعد أن تحدث عن جهوده في القتال بجنوب الشام ، واعتبر بحماسة جفوده في لقاء الأعداء ، قال لنور الدين محمود في هذه القصيدة التي بعث بها إلى أسامة بن منقذ :

تقولوا لنور الدين لا قُلَّ حُدُّهُ  
ولا حَسَكَّتْ فِيهِ اللَّيَالِي النَّوَاشِيمُ<sup>(١)</sup>  
تجهزْ إلى أرض العدوِّ وَلَا تَهِنْ  
وَتُظَاهِرْ فَتُورَا أَنْ مَضَتْ مِنْكَ حَارِمُ<sup>(٢)</sup>

وذكر في الأبيات المتبقية من القصيدة ما سبق أن عرضنا له من حيث التعاون بين المصريين والشاميين في قتال الصليبيين .

وتتضح في شعر ابن رزيك غيرته على الإسلام ، وحماسته في القتال ، وشجاعته في الحق ، وإخلاصه وصدق نواياه ، وكثرة غاراته على سواحل الشام .

ولهذا يطلب من نور الدين أن يواصل هجومه عليهم من الشمال حتى يتحقق النصر ، وتنجلي النعمة ، ويذهب الأعداء إلى غير رجعة .

(١) النشم : الظلم .

(٢) حارم : مدينة بالشام .

وقد رد أسامة على صديقه طلحة بميمية من الطويل أيضا ، وبدأها بقوله :

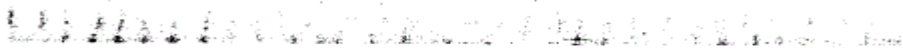
لك الفضل من دون الورى والسكرم  
فن حاتم ما نال ذا القنر حاتم  
وصلت ، فأغثيت الأنام عن الحيا  
وصلت ؛ فخاقت من سطاك الصوامم

وانتقل أسامة بمد هذين البيتين إلى وصف غارات ابن رزيك في أرض الشام ، ومضى في متابعة جيشه وهو يلقي بثقله على الأعداء فيقتلهم قتلا وأسرا ، ليكونوا غذاء للوحوش ، أو غنائم المسلمين ، وأشاد بجهود المصريين بما لا يختلف أو يمدح عما قاله ابن رزيك .

وقد قام الأسطول المصري في هذا الوقت بفترات موفقة ، وامتصر على الفرنجة في عدة مواقع ، فامتدح أسامة هذه المصارك فقال في حديثه إلى ابن رزيك :

فما أبادتهم سيوفك ، وانجالت  
من الأرض منهم طلة وظالم  
غزوتهم في البحر ، حق كأننا أ  
أستأطيل فيه موجة الغلاطم  
بفرسان بخر فوق دهم كأنها  
على السار طهر ، ما لهم قوام  
إذا دفنوها قلت : أرستان غارقة  
سروا بجياد ، ما لهم قوام

(١) القوام : ريشات في مقدم الجناح .



يسوق أساطيل الفرنج إليهم  
بحامٍ ، وطيرٍ للفرنج أشأم  
ومأوئهم في البحر حُرّ سوانج  
وهمهم في البرّ حُمّ جوام<sup>(١)</sup>  
فلم يَخَفْ في فج من الأرض هارب  
ولم ينجُ في لُجّ من الماء عائم

وبعد أن وصف أسامة ما دار في هذه المعركة البحرية امتدح قريض بن  
رؤيك ، وأثنى عليه في شعر لا يخلو من المبالغة ، ثم أشاد بمجوده ثم مية  
فور الدين .

وقد تأثر هذان الشاعران ( الوزير والأمير ) بشعر المتنبي ، واحتذا كثيرا  
من معانيه ، بل اقتبسا كثيرا من أنسكاره مما قاله في ميمية الحدث الجراء ،  
وضمن أسامة بعض شعره منها ، وأقرأ له البيت الذي قال فيه :

إذا دعوها قلت : فرسان غار  
سروا بجياد ما لهم قوائم

تجده ضمن بيته الشطر الثاني من بيت المتنبي الذي قال فيه :

أتوك بحرفن الحديد كأنهم  
سروا بجياد ما لهم قوائم

وقد تأثرا أيضا في قصيدتهما بألفاظ أبي الطيب وتراكيبه ، فضلا من  
تأثرهما بمعانيه وأنسكاره .

(١) حُمّ - جمع أسحم وهو الأسود .

وقد كانا يحطبان في حباله إلا أنهما لم يوصلا إلى سرية أفسكارا وألفاننا ،  
وصياغة وحاسة .

عرفنا نور الدين محمود بطلا حروبيا ومقاتلا إسلاميا ، ولم نعرف حبه للشعر  
العربي ، ذلك أنه طلب من أسامة بن منقذ أن ينشئ له قصيدة على لسانه  
يفتخر فيها بانتصاراته على الفرنجة ، فأنشده واحدة من حماساته ، وهي من  
أطول ما قال أسامة في هذا النرض ، قال<sup>(١)</sup> :

أبي الله إلا أن يكون لنا الأمر  
لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر المعسر  
وتخلدنا الأيام فيا برومه  
وبنقاد طوعا في أزمتنا الدهر<sup>(٢)</sup>  
نسير إلى الأمداء والطير فوقنا  
لها القوت من أعدائنا ولنا الفصور  
فتجنا الرها حين استباح عدائنا  
رحما ، وسقى ملكها لهم الخنزير<sup>(٣)</sup>  
ونحن ففحقنا تل باشر بهندها  
وقد عجزت عنه الأكاسير الثرة<sup>(٤)</sup>  
وتل عزاز ، صبحته جيوشنا  
فلم تخيه هنا الرجال ولا الجندز<sup>(٥)</sup>

(١) راجع القصيدة بديوان أسامة ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٢) أزمتنا : جمع زمام وهو اللقود .

(٣) سقى : سهل ، الخنزير : الخديبة .

(٤) تل باشر : موضع بالشام .

(٥) تل عزاز : موضع بالشام .



وَمِلْنَا إِلَى بُرْجِ الرَّصَاصِ وَإِنَّا  
لَسَكَالِدٌ، لَكِنْ الرَّصَاصُ لَهُ قِطْرٌ<sup>(١)</sup>

وقد افترض نور الدين - فيما قاله أسامة على لسانه - بما حققه لآل زنكي في قتال الصليبيين ، وذكر العديد من المراكز ، التي استرجع فيها المدن والحصون المختلفة ، كالرها وتل عزاز و برج الرصاص وغيرها .  
ويبدو أن أسامة قد جمع جهاد الزنكيين جميعاً في هذه الرائية الطويلة التي بلغت تسعين بيتاً ، حتى يصل ابن رزيق أن أمراء الشام لا يغفلون عن جهاد الصليبيين . وقد نسج على هذا النوال الشعري شعراء كثيرون تنويهاً للحامسة والفخر في مصر الدوليين الفاطمية والأيوبية بمصر والشام .

---

(١) برج الرصاص : موضع بالشام ، والقطر : النحاس الذائب .

## الفصل الثالث

### من شعراء الحناسة والفخر الحربي

لقد طالت الحروب الصليبية ، وامتدت عبر قرنين من الزمان ، وحزن لها المسلمون في كل مكان ، واكتوى بنارها العرب في مصر والشام وشمالي العراق ، وكثرت للمارك بما فيها من هزائم وانتصارات ، وارتفعت الأسمم لأبطال عظام ، فألف حوالم ، وأشاد بهم شعراء كثيرون ، اختلفت أوطانهم ، وتباعدت أزمانهم ، لكنهم اتفقوا جميعاً في إخلاصهم ، وصدق موطنهم .

كان من بين هؤلاء الشعراء من شغلته هذه الحروب ، فأدبهم فيها ، وتحدث عنها ، وحرص عليها ، نذكر منهم طلائع بن رزيك ، وأسامة بن منقذ .

ومن الشعراء من ليست له معرفة بفنون القتال ، لكنه قام بدوره في حل أمانة الكلمة ، وبعث الهمم ، واستنهاض العزائم والإشادة بالأبطال ، ووصف للمارك ، والنصر بما تحقق في ميدان القتال ، ومن هؤلاء ابن سناء الملك .

وسوف نتحدث عن هؤلاء الشعراء الثلاثة من بين الكثيرين الذين يضيق المقام بالتحدث عنهم .

طلائع بن رزيك :

كان طلائع واحداً من الولاة الناطمين في صعيد مصر حتى شمر المحرم من سنة ٥٤٩ هـ ، وأوشك اسمه أن يطوى في مقبرة النشيان لو لم يحدث ما جرى سنة ١٥٥١ - شعر الحناسة

بالقاهرة في ذلك الوقت عندما قُتل الخليفة الفاطمي (الظاهر) وأخواه .  
غير أن نساء القصر قصصن شعورهن ، وأرسلن بها في كعب كلما سواد  
يستجندن بطلائع من عبث القتل وخيانتهم ، وهذا أقصى ما يمكن أن تتوصل  
به المرأة في مثل هذه الأحداث .

وحزنت القاهرة ، وارتسمت السكابة على وجوه الناس فيها حتى أقبل إليها  
طلائع : « لابساً السواد ، حاملات شعور حرم الخليفة على الرماح ، ودخل قصر  
الوزارة ، في التاسع من ربيع الأول ، وتلقب بالملك المصالح ، وأخرج جسد  
الظاهر من القبر الذي قد روى فيها بمدقده ، وجعله في تابوت ، ومشى بين يديه  
إلى سرقة الأخير ، حافياً مكشوف الرأس ، وفعل الناس مثل ذلك ، وكثر  
في هذا اليوم الضجيج والبكاء والمويل »<sup>(١)</sup> .

وتولى الرجل الوزارة للخليفة الفاطمي الفائز<sup>(٢)</sup> ، وعمل على استنقاذ الأمن  
« فكان هو الرجل الذي تحتاج إليه مصر في ذلك الحين ، أما تلك المأساة  
فقد أفتتدت الفاطميين عتقلاً آخر معاقلمهم في فلسطين التي استولى الصليبيون  
عليها »<sup>(٣)</sup> .

وبعد أن استقرت الأمور لهذا الوزير القوي والشاعر الطموح تآقت نفسه  
إلى خدمة الدين والوطن ، فأرسل جيشاً برأ وأسطولا بحرياً إلى فلسطين لتزور

---

(١) مقدمة ديوان ابن رزيك ص ٤ تحقيق د / أحمد بدوي .

(٢) كان طاملاً عمره خمس سنين ، وتولت حمة له كفالته ؛ وقام ابن رزيك  
بالدور التبني لهذه الكفالة .

(٣) تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨٧ ؛ هكذا ذكر حسن إبراهيم حسن ، طيبة  
قنطرة المصرية .

غزة وعسقلان ، وقد رجع الجيش غانماً مقتصرًا ، وشجعه ذلك على استئجار وجود نور الدين بشمال الشام ، فأخذ يرسل له الوسائل والقصاص والهدايا لكي يتعاونوا في الإجماع على التفرجة من الشمال والجنوب ، ولكن هذه الآمال لم تتحقق ، وضاعت سدى ، لأن نور الدين فيما يبدو لم يقنع بمن في مصر من الخلفاء والوزراء وأسهم في امتزاز ثقته بهم الاختلاف في العقائد المذهبية ، فمضى المذهب ، وولاه الخليفة العباسي ببغداد ، وطلّاع شيعي متعصب . ولهذا أخفق ابن رزبك في آماله ، وفشل في هذه الصلة التي ألح فيها ، وسمى إليها ، وبقي وزيراً ناجحاً حتى مات الخليفة ( الناصر ) في سنة ٥٥٥ هـ وهو لا زال طفلاً صغيراً ، لم يزد عمره عن إحدى عشرة سنة وبضعة شهور ، وجاء بعده الماضد ( آخر الخلفاء الفاطميين ) وبقي ابن رزبك وزيراً ، له مطلق السلطة ، فاستاءت لذلك نساء القصر فديرن مكيدة لقتله فأصيب بجرح أفضى به إلى القتل في رجب سنة ٥٥٦ هـ ( ١١٦١ م ) ، وكان بما ندم عليه وهو محمود بألقاسه الأخيرة ، أنه لم يوجه كل جهوده لإخراج الصليبيين من الشام ، وقد حزن الناس عليه يوم مات ؛ لما كان منه : من حفظ النظام ، واستتباب الأمن (١) .

ورثاه الشاعر عمارة البني بشعر كثير منه قوله :

وإني أرى فوق الوجوه كتابة  
تدل على أن الوجوه مؤاكلة  
ولم لا تسكبه ، وتندب فقده  
وأولادنا أبقائهم وأرامه ١٢



شعره :

ذكر ابن خلسكان أنه رأى شعر طلائع في ديوان كبير من مجلدين في كل فن ، لكن أين هذا الديوان ؟ لقد ضاع فيما ضاع من تراث العرب ، وبقى القليل منه في كتيب التراث كالبداية والنهاية لابن كثير ، وحسن المحاضرة للسيوطي ، والرضتين لأبي شامة : والسكامل لابن الأثير وغيرها ، ثم حيا الله الدكتور أحمد بدوي لهذا الشاعر فجميع شعره أو ما تبقى منه بالكتب المختلفة وجعله في ديوان صغير يقرب من مائة صفحة .

ولا يمثل هذا الشعر ابن رزك تمثولا كاملا ، ولكنه يكشف عن مواهبه وقدراته ، ويؤكد ضياع شعره ، فما قاله مما بين أيدينا لسكاف في التذليل على أن هذا الشاعر قد صال وجال في رياض القريض ، والتقى بالديد من الشعراء كهمارة البني ، والحسن بن الزبير ، وللهذب بن أسعد وغيرهم ، وراسل أسامة ابن منقذ بالشام لما بينهم من صداقة ومودة .

وقد تعددت الأغراض الشعرية فيما وصل إلينا من شعره ، فقال في الغزل والحكمة ، والمقائد والفخر والسياسة ، والمدح والإخوانيات . والكثير من شعره في الحاسة والفخر الحربي من خلال تلك القنود ، فله قصائد كثيرة متعددة الأغراض .

واند شغل هذا الشاعر بحرب الفرنجة ، وكان شعره فياضاً بالروح الحماسية التي لا تتوارى سواء أكان حثاً وتحريضاً على القتال أو وصفاً لمزواته وسراياه أو تفرقا بما حققه في أرض القتال .

١ — التعريض على القتال :

أرسل الملك الصالح إلى أسامة بن منقذ قصيدة ينييه فيها بالذهاب إلى نور الدين ليحثه على القتال ويحرضه على الجهاد ، ومنها قوله :

ألم يَفُورِ الدِّينَ وَأَعَزَّ يَشَهُ بِهَا تَهَكُّ التَّضَرُّعِ  
فَهُوَ الَّذِي مَا زَالَ يَتَوَلَّى لَمْ يَسْ مِنْهُ أَعْمَالٌ وَنَيْيَةٌ  
فَمَسَاءُ يَنْهَضُ نَهْضَةً يُفْنِي بِهَا تِلْكَ الْيَقِينَةَ  
إِنَّمَا لِفَضْلِهِ دِينُهُ أَوْ مُلْكُهُ ، أَوْ لِحَرَمِيَّتِهِ (١)

واللغز واضح وصريح ومباشرة ، وقال في أبيات لنور الدين محمود وقلج أرسلان لكي يوحدا جهودهما لقتال الفرنج ، وينبذا ما بينهما من خلافات :

تعالوا ، لعل الله ينصر دينه  
إذا ما نصرنا الدين نحن وأنتم

وكتب إلى أسامة ليكون رسوله عند نور الدين من أجل توحيد الجهود لقتال الفرنج في وقت واحد ، قال :

قصدا أن يكون مدنا ومقدمكم  
أجل في مسيرنا مضرؤوب

وقال أيضا يحرض نور الدين في رسالة بعث بها إلى ابن منقذ :

وحسم أصول الدار أولى لما قبل  
لبيب ، إذا استولى على الدنق الخياط (٢)

(١) الجية : الأنفة .

(٢) الدنق : المريض ، الخياط بالسكسر : أن يخاط الرجل في عنقه ( يبنس )  
العمل للمجهول ) .

فدعْ منك مَنِيلاً للفرانجِ وَهَدَنَةً  
بها أبداً يَخْطِي سَوَاهِمُ ، ولم يَخْطُوا  
تأملْ فكم شرطاً شَرَطْتَ عليهمْ  
قديماً ، وكم غَدَرٍ بهُ بَيْعِ الشَّرْطِ  
وَشَمْرُ ، فإننا قد أعنا بكل ما  
سَأأت ، وَجَهْزْنَا الجيوشَ ، وإن يُبْطُوا

وهكذا كان الشاعر متحمساً لتمثال الصليبيين ، حريصاً على توحيد الجمود ،  
صادقاً في قصوته ، وشمره يكشف عن عقيدة دينية راسخة ، وإحساس عظيم  
بالقومية ، متجاوزاً حدود الأطماع والانلاقات الشخصية . وابن رزيك في فسكرم  
وشمره نموذج فريد لم يعمود الناس عليه في عصره . وألفاظه سهلة لينة أقرب  
إلى النثر منها إلى الشعر ، وصوره قليلة لاعتمادها على الواقع ، وعاطفته  
صادقة وقوية .

#### ٢ - وصف غزواته :

كان ابن رزيك في قصائده إلى أسامه يصف غزواته إلى الفرنجة لكي يؤكد  
لقادة الشام صدق نواياه ، وليقتنموا بوجهة نظره التي فشل فيها للأسف الشديد  
فلو توحدت مصر والشام في ذلك الوقت لكان من الممكن أن يفعلوا شيئاً  
ولكنهم اختلفوا فدفعوا إلى غاليا .

قال :

سَارَتْ سَرَايَاَنَا لِقَمَّةِ دِ الشَّامِ ، تَهْتَفِ الرَّمَالُ  
تَشْفِي خُفَا الدُّنَا رِبَهَا ، وَتَأْتِيَسَا نِيَالاً<sup>(١)</sup>

(١) النار : الإغارة .

حَتَّى لَقَدْ رَامَ الْأَعْمَى مِنْ دِهَانِهِمْ اِرْتَحَالًا  
هَذَا ، وَفِي تِلْ الْمَجْمُوعِ لِي مَلَأَنَ بِالنَّقْلِ التَّحْلِيلَ<sup>(١)</sup>  
سَارَتْ إِلَى أَرْضِ الْخَلِيلِ لِي ؛ فَلَمْ تَدْعُ فِيهَا خِلَالَ<sup>(٢)</sup>

نقد وصف سرائله التي تحركت إلى أرض الشام خفيفة ، وعادت بعد الإغارة  
محملة بالثقال من اللواضع التي أغارت عليها كتل العجول وأرض الخليل .

وفي قصيدة أخرى بحث بها في أسامة - من خلال هذه الرسائل الإخوانية  
التي انتقلت من النثر إلى الشعر - حيث وصف فيها الأسطول المصري الذي كانت له  
شهرة كبيرة في ذلك الوقت ، لكن مما يؤسف له أن المصريين لم يحسنوا استغلاله  
في قتال الإفرنج الذين كانت لهم سفن وأساطيل حربية اعتمدت عليها بعض  
جيوشهم في التفتل من صقلية إلى الشام لأن هذه الجيوش كان منها من يأخذ  
طريق البر ، ومنها من يركب سفن البحر غير أن شعر ابن رزيك في هذه القصيدة  
التي قال فيها .

لَا كِتَابٌ ، وَلَا جَوَابٌ ، وَلَا قُوَّةٌ

لِي بِهِ لَائِقِينَ مِمَّا حُصُولُ

من ذلك الذي يعمد فيه إلى ذكر الحقائق دون الحرص على الممانى الجميلة  
والصور الخلابه .

### ٣ - حاسة ونفر :

ذكرنا من الأشعار الملك الصالح طلائع بن رزيك ما يكشف عن معدنه  
وحقيقة أصله بما يحق له أن يزهو وينشجر ، قال :

(١) تل للمجموع : موضع بالشام .

(٢) الخلال : جمع خل وهو الطريق ، وتطلق على الصديق أيضا .

تَوَالَّتْ عَلَيْنَا فِي السَّكَاكِبِ السَّكُوبُ  
بِشَارُكَ مِنْ شَرْقِي الْبِلَادِ وَمِنْ غَرْبِ  
بِشَارُكَ تُهْدَى لِلدَّوَالِ مَسْرَّةُ  
وَتُحَدِّثُ لَهَا قَيْنُ رُبَّهَا عَلَى رُشْبِ

وقال أيضاً :

وَأَنَا بَنُو رُزَيْكَ مَا زَالَ جَارُنَا  
يَجْلُ لَدَيْنَا بِالْكَرَامَةِ وَالْخَيْبِ  
وَتَفَتِكَ بِالْأَمْوَالِ فِي السَّلْمِ دَائِمًا  
كَأَنَّا نَحْنُ بِالْأَمْدَاءِ نَفُوكُ فِي الْحَرْبِ

والكثير من شعر طلائع في القصر الحرق حيث امتدح رجال قبيلته ،  
وكبار قواده ، ورجال جيشه ، وانتصر بهم ودهم في ميادين القتال ، ومن أصدق  
ما قاله في هذا الفن الحماسي :

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَنَا الدَّهْرُ  
وَيَعْدُنَا فِي مُلْكِنَا الْعِزُّ وَالْفَضْرُ  
حَلَّتْ لَنَا بِأَنْ لَنَا تَفَتَى أَلْوَمُ  
وَيَبْقَى لَنَا مِنْ بَقْدِهِ الْأَجْرُ وَالذِّكْرُ  
خَلَقْنَا الْفَدَى بِالْبَاسِ ، حَقِّ كَانَا  
سَعَابُ هَدِي الْبَرْقُ وَالرَّعْدُ وَالْقَطْرُ

هذه هي الحماسة بما فيها من نغم حربي عند ابن رزيك ، وهذا اللون غالباً  
ما يسكون عند الشمراء القائلين الذين يملأهم الإعجاب والزهو بما حققوه في  
أرض القتال ولم يسكن هذا الشاعر من يفتخرون على ألسنة غيرهم ، فإن حمرة

في الوزارة كان قصيراً وحياته في الظاهرة لم تدم إلا سبع سنوات، ولديه من  
الإمكانات مما لا يحمله شاعراً متسكباً أو محترفاً، بل كانت له مجالس مشهورة  
يحضرها بعض الشعراء كحمارة البني والمهذب بن الزبير .

ونلاحظ أن شعر ابن رزيق يفيض بالحاسة والقوة ، لأن معظمه في حرب  
الفرنجية ويمتاز بالتماسك والترابط بين أجزائه ، فالشاعر ينتقل من فكرة إلى  
فكرة انتقالاً طبيعياً من غير تعسف في القول أو إرهاب في التعبير، وقد تتصدر  
الألفاظ فيتحول الشعر إلى ما يشبه النثر خاصة عند ذكر الحقائق التي تراها في  
شعره فيفقد كثيراً من رونقه وجذاله، وهو يعتمد على السرد والقص كأنه يكتب  
رسالة نثرية لا قصيدة شعرية ، مقترفاً بذلك من الشعر القصصي ، وربما كان ذلك  
أثراً ونتيجة لكثرة رسائله الإخوانية التي كتبها شعراً .

وشعره جيد أو متوسط الجودة على العموم ، ذلك لأنه كان يعرض مايقوله  
على أصدقائه الشعراء فيصالحون مايسكون فيه من هفوات وسقطات مما جعل العماد  
يستسكب كل هذا الشعر على طلائع ، ويرى أن بعضه المهذب بن الزبير ، على  
أن هذه الريب كثيراً ما تتواجد بين الشعراء ، فتكثر الإتهامات من غير أدلة  
وبراهين ، وقد جمع الدكتور أحمد بدوي في مقدمته للديوان عدداً من أراء  
مؤرخي الأدب في طلائع فليرجع إليهم من أراد .

#### أسامة بن منقذ

أسامة بن منقذ من شعراء القرن الأول من عصر الحروب الصليبية، وقد  
تقلت عنه وذكرت له كتب التاريخ والأنساب سلسلة طويلة من نسبه امتدت  
إلى يرب بن قحطان ، ويكفي ماقاله ابن خلكان في هذا النسب عند الترجمة له

من أنه : أبو الظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقاد بن نصر بن عتذالكنتاني السكالي الشيزري للقب بمؤيد الدولة مجد الدين .

ولد أسامة في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ هـ ( يوليو ١٠٩٥ م ) في شيزر ، وهي إمارة وقلمة حصينة يلتف بها شهر العامي من ثلاث جهات ، وتقع إلى الشمال الغربي من حماة ، وعلى مسافة خمسة عشر ميلا منها .

وقد نشأ أسامة في كنف أسرته التي توارثت إمارة شيزر ، وعنى والده بتربيته وتثقيفه ، وشملته به أبو العساكر سلطان حاكم شيزر بعطفه ورعايته ، إذ أنه لم يسكن قد أنجب فعمل منه ابنا له ووليا بعده ، وهكذا كانت نشأته في هذه البيئة الأدبية المثقفة ، المعاصرة بالشعراء ، فشب على الفروسية ، وحب الأدب ، وممارسة الصيد .

إلا أن تحولاً قد حدث في مجرى حياته عندما أنجب له أولاداً فالتوى بهم من أسامة وامتلا قلبه مالهض علىه : « خوفاً على أولاده من مكانة أسامة ، وحذراً أن يتحول الملك إليه درنهم ، فغضب أسامة إلى الموصل ، لدى عماد الدين زنكي ، الذي صار أكبر أبطال الحروب الصليبية في وقته ، وأول خطر حقيق دام الصليبيين ، فانتظم في جنده ، وحارب تحت قيادته في عدة معارك<sup>(١)</sup> » ثم ترك الموصل وأقبل إلى دمشق سنة ٥٣٢ هـ ، وأقام إلى جوار حاكمها معين الدين أنر الذي استفاد بأسامة في تعريف شئونته ، وإدارة مملكته مع أن لهذا الرجل وقفاً غير مشرف عندما استعان بالصليبيين لحرب نور الدين . وعاد ابن مقاد إلى شيزر لمعاونة أهله في الدفاع عن وطنه : « عندما هاجمه الفرنج والروم سنة ٥٣٣ هـ ( ١١٣٨ م ) فقد مضى إليه ، وأبلى بلاء حسناً في الدفاع عنه ، وربما :

(١) مقدمة الديوان ص ٢ تحقيق د . أحمد بدوي وحامد عبد الحميد .

كان قد عزم على البقاء في شيزر ، بين أهله الذين فقدوا والده سنة ٥٣١ هـ ، غير أن عمه أبا الماسكر لم يرض عن مقام أسامة بشيزر ، فقد أيقن أنه أصبح خطراً على مملكته ، وأن ليس لأبناؤه سلامة إذا ظل أسامة في شيزر ، فأمره وإخوته بالرحيل ؛ فتشتتوا في البلاد وكان في ذلك الخيل لهم ، فلنهم نجوا من الزلازل التي هدمت شيزر ، وقضت على بني منقذ بأسرهم ، وذهبت بمسكنهم سنة ٥٥٢ هـ<sup>(١)</sup> .

ثم مضى إلى دمشق ، وبقي فيها حتى ساءت العلاقة بينه وبين حاكمها (أنر) فتركها إلى القاهرة في جادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ (نوفمبر ١١٤٤ م) في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله ، ووجد في مصر ما يتوق إليه من مال ، وابتعد عن المشاركة في الأحداث السياسية ثم مال إلى أن ألقى بنفسه فيها في عهد الخليفة الظاهر حتى قيل : إنه شارك في المؤامرة التي أردت بحياته وأنت باين رزبك إلى القاهرة وفي غضون هذه الأحداث ترك أسامة القاهرة هارباً ، ولحق به أهله إلى دمشق في سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) . ولم يذهب إلى شيزر اسوء العلاقة بينه وبين حاكمها ابن عمه الذي ورث عن أبيه كراهية أسامة .

بقى هذا الشاعر الذي نبا به وطنه ومربع صباه بقي في دمشق مع نور الدين ما يقرب من عشر سنين ، ثم ترك دمشق ، واعتزل في حصن كيفة ، وعمد إلى القراءة والتأليف إلى سنة ٥٧٩ هـ عندما استولى صلاح الدين على دمشق : « وكان لأسامة ولد يدعى « أبا الفوارس مرهف بن أسامة » وكان ذا منزلة عالية عند صلاح الدين ، فظل يصنع لأبيه عند السلطان حتى استدعاه إلى دمشق وهو شيخ قد تخطى الثمانين ، فحاز إعجاب صلاح الدين وتقديره ، وجعله من

(١) المرجع السابق ص ٣ .



خاصته بمنزلة الزايم المستشار وظل أسامة في دمشق حتى وافته منيته<sup>(١)</sup> ، التي أذن الله بها في رمضان ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . ودفن بدمشق<sup>(٢)</sup> ، وترك ديوانا شعريا كبيرا وعدة كتب في الأدب والنقد والتاريخ .

شعره :

قام أسامة في حياته بجمع معظم شعره في ديوان ، ثم عني به من بعده وحافظ عليه ابنه (مرهف) ، وكان الشاعر قد رتب ديوانه على حسب الأغراض الشعرية ، وليس ترتيبا تاريخيا أو هجائيا بالنظر إلى حروف الروى .

وكان ينظر إلى القصائد ذات الأغراض المتعددة فيحول كل جزء منها إلى موضوعه ، أما لماذا لم يدون كل شعره ؟ فلأن بعضه لم يرق له ، أى أنه كان يتوق إلى مستور ونمط خاص ، وهذا اتجاه حسن حبذا لو التزم به الشعراء في كل الصور .

وقد ابتدأ ديوانه بالنزل ، لأن الأقدمين قد درجوا على ابتداء قصائدهم به ، وأفرد بابا للديح قال في التقديم له : « وبقيت به النول في الفخر المتضمن مآثر الإنسان وخلاله » ، ثم الحاسة الراجع معناها إلى التدح بالشجاعة واليسالة<sup>(٣)</sup> ، وكان يبتدأ قصائده بالنزل متعبا في ذلك لتنهج التقليدى ، على أن شعره في هذا الفن خال من دفء الحب وحرارة الماطقة سواء أ كان نفا مستغلا أم مدخلا ومطلعا للفنون الأخرى ، وجعل الباب الأخير المراتى .

- (١) من مقدمة لكتاب البصا لاسامة ص ١٧٧ نوادر المخطوطات ص ١٧٧
  - (٢) المؤلف والحق البارع عبد السلام هارون شبه الله بالصحة والمابة ،
  - (٣) عند شيخ جبل قاسيون . (معجم الأدباء - ٥ ص ١٩٢) .
- (٣) الديوان ص ٤٤ .

ومن يقرأ ديوانه تتضح له معالم هذه الشخصية التي طالت حياتها ، وظهر  
ذلك في شعر ابن مقفد ، فهو القائل :

خسوف من حمري معنت لم أتمظ  
فيهم ——— ، كأنى كنت غائبا

فحياته وشعره وجهان لعملة واحدة كما يقال . ونجد في ديوانه تحسره  
على اختلاف قومه ، وحزنه على تبدد ثروته ، وضيقه بالفرقة والاعتراق ،  
لكثرة ترحاله ، ثم اقتناعه بهذا القنأى الذي أبعدته عن مواطن النزاع  
والشقاق .

وخلا شعره من الحياء ، فماش محباً لأهله ، ولغيرهم من سائر الناس .

شعره الحماسي :

لأسامة شعر حماسي كثير انتشر فيه بشجاعة في الحروب ، وبدايته في قتال  
الأعداء ، ومنه ما توجه به إلى الأبطال المسلمين الذين دخلوا المسارك مع  
الصلبيين ، وأبوا فيها بلاد حسناً ، فأشاد بهم ، وامدح بطولتهم ، وسجل  
انتصاراتهم .

١ — الشعر بمجاسده :

عاش أسامة في عز مديف ، وترى في حياية رجال أبطال ، ونشأ أميراً مجيداً  
لأن يكون حاكماً مدافماً عن بلاده ، نعلم الفروسية ، وشارك في القتال وهو  
لا يزال شاباً يافعاً ابن خمس عشرة سنة ، قال :

عشيرة نازلتُ السكاة إلى  
 أن شئتُ فيها ، وخيرُ الليل ما قَرَحَا<sup>(١)</sup>  
 أخوضُها كشهابٍ القَذَفِ مَبْتَسَمَا  
 طَلَقَ النُّحْيَا ، ووجهُ الموتِ قد كَلَمَا  
 بصادمٍ ، من رَأَى في قتالٍ وَغَى  
 أَفَرَى به الهامُ ، ظنَّ البرقَ قد لَمَا<sup>(٢)</sup>  
 فـلَ كَمَاةِ الوغَى عَنَى ، لتعلمَ كم  
 كُوبٍ كَشَفْتُ وكَم ضَيِّقٍ بِي انْفَتَحَا

فهو يشهد القتال شأبا وشيئا ، ويدخل المارك ، وياقي اللوت مبتسما ،  
 ويحمل سيفًا يقرى به رموس الأهداء ، ومن يبيع معرفته نليسال هذه  
 أبطال الحروب .

وقد عرض له وهو في السبعين مرض ألم به فتمه من الركوب ، فأخذ  
 يشتكي بما يكشف عن شجاعته وبأسه فقال :

رجلاي والسبعون قد أَوْحَمَتْ قَوَايَ عن سَهْمِي إلى الخُرْبِ  
 وكنتُ إن تَوَبَّ دَائِي الوغَى لَبِيقُهُ بِالْعُنِ وَالضَّرْبِ<sup>(٣)</sup>  
 أنازلُ الأفرانَ يُرْدِيهِمْ من قبل ضَرْبِي هَامَهُمْ وَغَى

(١) السكاة : جمع كى وهو الفجاء أو لابس السلاح ، وقرح الفرس : اكتسبت  
 أسنانه ، وذلك عند إكمال خمس سنين .

(٢) قتام : غبار ، وغى : حرب ، الهام : جمع هامة وهي الرأس .

(٣) توب : دعا .

فلم تدع مني التماس سوى صبري على الأواء والتطليب<sup>(١)</sup>  
ألقى الرزايا رابط الجأش في أخسائها مجتمع اللب<sup>(٢)</sup>  
ما خافني عزيم ، ولا عزاني صبري ، ولا ارتاع لها قلبي<sup>(٣)</sup>  
ففي هذه الأبيات يشهد بحماسة ، ويفتخر بمنازلته الأقران من غير ضجر  
أو تحسر . وهو يلهي داعي الجهاد ، ويقبل على الموت إقباله على الحياة ،  
ولا يقهر إلا عندما يرى نفسه وقد هجز عن المشاركة في القتال .

وهو في شموه الخلسي بمقدح بطولته ، ويذكر عظيم خصاله ، فهو شجاع  
في الحرب ، يلقى الحوادث هادئاً وادعاً ، ولا تؤثر فيه خطوبها ، وبري أن  
فخر الإنسان ما يحققه من شرف وكرامة في الدفاع عن أهله ، وليس في جمع  
المال والإكثار منه ، ولا يمدح بما يلم به بل يصبر عليه ، ويحذو على قلبه  
الذي لا يعرف التلق : قال :

وَمَتْنِي التماسي بالملووب جملة  
صبري على ما تأتي وعزاني  
فما أزعجت عظمي الرزايا ، ولا لها  
بمحزن اضطباري في اللب يدان  
وكم نسكب ظن العدا أنها الردى  
تمت بي ، وأعلنت في البريق شان  
وما أنا بمن يستسكين لحاوث  
ولا يملأ الموئل الخوف جنان

(١) الأواء : الشدة .

(٢) عزيم : غلب ، ولم يطمئ .

وكانه أراد أن يؤكد بسالقه في الحروب ، وقدرته على القتال ، فقال :

سَلَّ بِي كَمَاةَ الْوَحْيِ فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ  
يَضِيقُ بِالنَّفْسِ فِيهَا صَدْرُ ذِي الْبَاسِ  
يَنْبُتُوكَ يَا نَوَى فِي مَضَارِقِهِمَا  
قَبِيتَ ، إِذَا انْطَوَى هَذَا الشَّاهِقُ الْوَرَامِي (١)  
أَخَوْضَهَا كَشِيبَابِ الْقَذْفِ يَصْحَبِي  
عَضْبٌ كَبْرَقَ سِرِّي أَوْ ضَوْءٌ مِقْبَاسِ (٢)  
إِذَا ضَرَبْتُ بِهِ قِرْنَائَا أَنْزَلُهُ  
أَوْحَاكُمُ مِنْ عَائِدِ سَيْفَانَا أَوْ آسِي (٣)

وربما ظن خصومه في كثرة ترحاله هروبا من لقاء الأعداء ، ومجرا عن حضور المعارك ، فأنهمهم أن ابقماده لا يمثل إلا ببدأ في محته ، وأن ترحاله لم يكن بإرادته وإنما لأن الديار بيت به ، وتكررت له ، ولهذا يطلب أن تكون السيوف حكا بيته وبينهم ، قال :

وَلَوْ حَكَّتْ يَدِي وَبَيْنَهُمُ الْعُلَا  
رَضِيتُ بِمَا تَقْضَى الْمَهْدَةُ الْبُتْرُ (٤)  
وَلَكِنْ تَوَلَّى الْحَاكِمَانِ قِضَانَا  
فَكُنْ أَبُو مُوسَى لَنَا ، وَلَهُمْ حَمَزُو (٥)

(١) الشاهق : الجبل .

(٢) المضب : السيف ، النيباس : شملة نار تفتتس من مدظم النار .

(٣) الآسي : الطيب .

(٤) البتر : السيوف الناطمة .

(٥) يشير إلى مهزلة التحكيم التي حدثت بعد لقاء صديقين بين علي كرم الله وجهه ومعاوية رضي الله عنه .

وقد تأثر ابن منقذ في هذه المعاني بأسلافه القدامى من الجاهليين والإسلاميين فالإحكام إلى شهادة من حضر المارك من المعاني التي جاءت في شعر عنترة ، ومواجهة الأعداء بوجه مبسم مشرق أعادها أبو الطيب المتنبي وكررها . أما القصر الحنسي فكان أبو فراس رائداً ومبرزاً فيه ، وهو وأسامة كلاهما أمير وفارس وشاعر . وهكذا تأثر هذا الشاعر بالأقدمين في المعاني والأخيلة فضلاً عن تأثره بهم في الألفاظ الجزلة القوية والصياغة الجميلة المعبرة ، وهو متأثر بتراث أمته الإسلامية ، وعالم بمواطن النزاع في ماضي الإسلام التاييد .

## ٢ — الإشادة بالأبطال وامداح حماتهم :

حارب أسامة في شهايه مع حماد الدين زنكي ، ومع ذلك وفي حدود على لم يتوجه إليه مشيداً به ، ويبطوئه في قتال الأعداء كما فعل مع غيره ، ولم يكن مفضلاً له حتى ينصرف عنه بشعره . ولهذا فإني أضع أكثر من احتمال في تبرير ذلك فلربما أصاب واحد منها عين الحقيقة .

لقد أفسح التاريخ في العديد من صفحاته لتكون سجلاً لجهاد حماد الدين ، ولم يكن ذلك الرجل على هامش الأحداث حتى يغفله أسامة ، وأغلب الظن أنه قال فيه الكثير من الشعر ثم رجع إليه ليضمه إلى الديوان . فلم يرق له ، فألقى به ، وأغفله . أو أن قرينة أسامة قد تحمدت وتحجرت في الفترة التي اتصل فيها بعماد الدين لكثرة الشجناء بين أسراء شيزر وما أعقبها من وفاة والده ، ومعجوم القرينة على هذه القصة ، على أن في الديوان بعض الأشعار الحماسية التي اتجه بها إلى أشخاص لم يحدد هويتهم ، ولهذا لا نستطيع أن نجزم بمن وجهت إليه وتبيلت فيه . فهل توجه بها إلى حماد الدين أو قصد بها غيره ؟

ولو وضع عند جمع ديوانه تاريخ الفصيدة ومذايبها لأراحنا من هذه الافتراضات التي ليس لها دليل يقيني ، ولا تمدوا أن تكون مسائل ظنية .

ويبقى أن أذكر شيئاً من شعره الجاهلي الذي قاله في الإشادة بالأبطال المسلمين ، ووصف جهادهم ضد الصليبيين ، قال :

أنتَ حلَّيْتَ بالمسكارمِ أهلَ الأَرضِ حتى تعرَّفَ المجهولُ  
والذي لم يَحْنِ بِسيفِكَ مِن حَوْثٍ فَكَيْ أَمسى ، وعَتَلَهُ مَحْبُولُ<sup>(١)</sup>  
مَثَلُ الخَوْفِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ جَيْشًا لَكَ فِي عُمْرٍ دَارٍ مَا يَزُولُ  
فَرَأَى مِنْ عَزِيمَةِ الغَزْوِ مَا كَادَتْ لَهُ الأَرْضُ والجِبَالُ تَمِيلُ  
وأجَابَتْهُ بالصَّهْلِ سِيوفٌ ظَامِئَاتٌ ، وبالصَّهْلِ خِيُولُ

ولأسامة شعر كثير أشاد فيه بطلائع ، وردَّ به على رسائله التي كان يدعو فيها إلى التناحية والسكينة تركها ، وعقد العزم - فيها يبدو - على عدم العودة إليها ، فقد أوشك أن يلقى فيها حتفه جزاء ما أقدم فيه نفسه عند مقتل الطائفة ، وكان طلائع يرى براءة أسامة مما لاقى به ، ويبقى بالجزيرة على بعض الوزراء الخونة ، وربما كانت جيرة أسامة لنور الدين عوضاً عما في القاهرة من بريق ومجالس أنس : ومن شعره في ابن رزيق هذه الأبيات :

يا أَمِيرَ الجُيُوشِ ، ما زالَ للآسِ لَأَمَ والدِّينِ مِنْكَ رُكنٌ وَثِيقُ  
أُسْتَعْتَدَتْ دَعْوَةُ الجِهَادِ ، فَلَبَّاهُ ما مَلِكٌ بالمسكِرِماتِ خَلِيقُ  
ما لَه من جِهَادِ السُّكُنَرِ وَالْعَدِ لَ وفعل الخَيْرَاتِ شَتْلُ يَمُوقُ  
هو مَثَلُ الحَسامِ : صدرَ صَقِيلُ لَئِنْ مَشَتْهُ ، وَحَدَّ ذَلِيقُ<sup>(٢)</sup>

(١) حان . هك .

(٢) صتله : جلاه ، وذالِق حاد .

ذو أناتٍ يخالها النورُ لها لا وفيها ، حشف الأعدى المحيق<sup>(١)</sup>  
فأشكتها للإسلام كهنين ساطر<sup>(٢)</sup> زَ ثوب الظلام برق خُوف<sup>(٣)</sup>

وأمل الفارى يلاحظ معى أن للمانى مقاربة فى معظم هذه الأشعار ،  
والعاطفة عند أسامة أقل من نظيرتها عند طلائع من حيث الصدق والقوة ،  
مع أن لأسامة بعض التصائد الحاسمة التى أبدع فيها وتوق بها كثيراً على  
ابن رزك إذ أنه كان شاعراً كبيراً متعدد المواهب والفنون .

قال فى صلاح الدين :

هُوَ مَنْ عَرَفَتْ فَلَوْ عَصَاهُ نَهَارُهُ

لرماه نَفْعُ جُيُوشِهِ بِالزَّيْبِ

ولم يشتمل ديوانه على هذا البيت ، وقد أراد أن يصف كثرة جيوش  
الناصر الشيبه بالزيب فى أنها تغطى القضاء حتى لا يبعثره مبهر ، فكانه  
فى الظلام<sup>(٤)</sup> .

ولم أجد أسامة فى شعره الجاسى يبدأ قصيدة أو مقطوعة بالنزل والتشبيب  
على كثرة ما تقدمت له ، وعلى كثرة مدول هو أيضاً ، كأنه كان يرى أن النزل  
لا يتناسب مع شعر الحاسة والحرب فانصرف عن ذلك التقليد الذى لزمه غالباً  
فى سائر الأغراض الأخرى ، ولهذا نلصق فى شعره الجلال والوقار فهو حذيق

(١) أحاط به : أحاط به .

(٢) الكهف : اللجأ .

(٣) راجع معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٠٧ .



أمير في حياته وشعره ، ونذكر له ذلك حتى نوافق طامع الفزاية وجملها  
في باب الغزل لأنه هو الذي قام بترتيب الديوان كما ذكرنا .

ومن حياته الطويلة ، وكثرة تجاربه وترحاله إلا أنه كان صلباً شاعراً ،  
وقوياً متمسكاً فلم يستسلم أو يتضعضع بل قاوم الحزن والإحزن ، وخرج منها  
محصراً منتصراً .

وارتدى شعره أثمان القوة والجزالة أسلوباً وعبارة ، أما المصطفى فلم تكن  
في معظمها من ابتكاره وابتداعه ، بل كان محتذاً ومقلداً . وقد كما ما احتذاه  
أردية من الفخامة والقوة ، وساقها بمنزلة ملتصقة ، وإن كنا قد أخذنا عليه  
كسائر شعراء عصره الاهتمام بالبدیع ، والحرص على الألفاظ على حساب المصطفى  
كثيراً ، وإن كان ذلك عنده أقل بكثير مما ألفناه عند غيره من الشعراء  
في عصره ، ولهذا فهو يعد في مقدمة شعراء الحفاسة الذين جمعوا بين القديم والحديث  
في عصر الحروب الصليبية .

ابن سناء الملك :

عاش ابن سناء الملك حياته في الفترة التي حلا فيها صوت الحروب الصليبية  
بفضل ما حققه صلاح الدين من انتصارات عظيمة - وإن لم تكن حاسمة - على  
المسيحيين في النصف الثاني من القرن السادس الهجري - وحظي هذا الشاعر  
بما لم يحظ به شعراء عصره ، وقد أشاد بشعره ونثره كبار معاصريه من أمثال  
الزحبي الناضل ، والهاد الأصمعي ، وغيرهما من أئمة صلاح الدين ، وحمل معه .

وابن سناء هو هبة الله بن جعفر السعدي ، وهذا أقل ما يقال في نسبه ،  
والأفصح القاضي السعيد هبة الله ، والوالد القاضي الرشيد جعفر ، وجده سناء الملك .

محمد بن حبة الله بن محمد السمدى<sup>(١)</sup>. وقد عرف حبة الله بابن سناء الملك ، وهو اسم جده كما رأيت .

ولد بالقاهرة سنة ٥٥٠ هـ على أرجح الأقوال ، وهذا التاريخ قد اختاره محقق ديوانه<sup>(٢)</sup> من بين غيره من التواريخ ذلك لأن ابن سناء : « في سنة ٥٧٣ هـ عرض في إحدى قصائده بن مدحهم من الشخصيات البارزة في المجتمع ، ولم يلتفتوا إليه فقال :

تكل نضلي قبل عشرين حجة  
فكيف وقد جاوزتها بثلاث  
وأنت في مخزى في مدائح منشئ  
كؤني ، ولو أنصفت كن موالي

فبذلك يكون قد حدد عمره ، وتاريخ مولده ، وأنه ولد في سنة ٥٥٠ هـ<sup>(٣)</sup>.

نشأ الشاعر في أسرة غنية ذات مكانة اجتماعية مرموقة ، وكان والده يشغل وظيفة هامة ، ويحب الأدب ، ويحرص على مصادقة رجاله ، فأناحت هذه البيئة لابن سناء أن يتلقى علومه على كبار الأساتذة في علوم الفقه والدين واللغة ،

---

(١) راجع معجم الأدباء ج ١٩ ص ٦٥ ، وغيره من الكتب الكثيرة التي ترجمت لابن سناء الملك .

(٢) في طبعته المصرية ، وهو محمد إبراهيم نصر ، وقد سبق أن حقق الديوان باحث هندي هو الدكتور محمد عبد الحق عضو مجلس الرهطين لحكومة مدراس سابقا ، بإشراف مجلس دائرة المعارف الثمانية بمحيدر آباد الهند - الهند في سنة ١٩٧٧ هـ - ١٩٥٨ م ثم طبع في مصر بدار الكتاب العربي سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م ، وهي الطبعة التي بين أيدينا .

(٣) ابن سناء الملك حياته وعمره ج ١ ص ٤٣ .

بل إن والده يمتد إلى الاسكندرية ليدرس الحديث على يد الحافظ السافى وهو المحدث الكبير في ذلك الوقت . ثم اكتملت ثقافة ابن سناء بعمله اللغة الفارسية ، فيسرت له الإطلاع على اللوحات الفارسية ، والتأثر بها . وماذا يبنى الدارس في ذلك الوقت أكثر من تعلمه لبعض اللغات الأجنبية ، وحفظه القرآن الكريم ، وتعلمه للأدب واللغة والنحو ، ودراسته لبعض العلوم الطبيعية كالنلك وغيرها ؟

ويبدو أن جعفرا السمدى قد أعد ابنه هذا الإعداد للصل في ديوان الإنشاء حيث يوجد القاضى الفاضل (عبد الرحيم البيسانى) وزير صلاح الدين والأديب المتميز ، والشاعر صاحب الطريقة المعروفة في الشعر والنثر .

وتيسر لابن سناء من خلال اتصاله بالقاضى الفاضل أن يلتقى بالوزراء والأمراء وكبار القادة في عهد صلاح الدين ، وأن يمدحهم ويشيد بهم ، وينال جوائزهم ، وعندما سافر القاضى الفاضل إلى دمشق في سنة ٥٧٠ هـ لم تنقطع الصلة بينه وبين ابن سناء الذى بقى نائباً عنه في القاهرة . ودام الإتصال بينهما .

وكان ابن سناء يرسل القصائد ، ويقول القاضى تقرئها ، ولشده ما كان بين الرجلين من إعجاب أرسل الوزير لشاعره يستقدمه إلى الشام في سنة ٥٧١ هـ فيسافر إليها ، والتقى فيها بالعماد الأصمهانى الذى أفاض في تقرئته ، والإعجاب به ، لكن الشاعر تشوق إلى القاهرة ، وود لو عاد إليها ، وعانق نيلها . ولما جاء صلاح الدين إلى مصر بمحاشيته في سنة ٥٧٢ هـ وكان معه القاضى الفاضل وابن سناء ، وأقام بها ، ثم أراد الرجوع إلى دمشق بقى ابن سناء في مصر راعياً لمصالح القاضى الفاضل حتى توفي سنة ٥٩٦ هـ .

ثم تحول الشاعر إلى مدح الملك العادل أبى بكر وهو أخو صلاح الدين الذى

ولى مصر بعد أن تنازل عنها الملك الأفضل (ابن صلاح الدين) ، ومدح ابن سناء أيضا صفى الدين بن شكر وزير العادل ذلك الرجل الذى كان عدوا لدودا للتفاضى الفاضل ، وقد ازداد عجبى لهذا التحول . لابن سناء من غير أن يرعى حق الوفاء لأستاذه وصاحب الفضل عليه ، ولا بد أنه قال فى هذا الوزير ما لا يرضى عنه البىسانى لو كان حيا ، ثم ما الذى يرغم ابن سناء على هذا التحول و ؟ . كان غفيا مترفا ؟ ... يبدو أن ذلك التصرف كان سجيعة وطعما . على أن الجانب الآخر من هذا الاتجاه يؤكد ولاد الشاعر وإخلاصه للأيوبيين من خلفاء صلاح الدين حتى توفى « يوم الأربعاء رابع شهر رمضان سنة ثمان وستائة بالقاهرة »<sup>(١)</sup> وترك شعرا كثيرا ضمه ديوانه المطبوع فى أكثر من طبعه ، وله فى اللوحات ديوان اسمه « دار الطرار »<sup>(٢)</sup> ؟ وله فى النثر ديوان رسائل سماه « فصوص الفصول وعقود العقول » ولتأثره الكبير بالجاحظ صنف كتابا أسماه « روح الحيوان » تلخص فيه كتاب « الحيوان » للجاحظ .

شعره الجاهلى :

لابن سناء الملك شعر كثير ، متعدد الموضوعات ، وأكثر من نصفه فى المدح متوجها به إلى التفاضى الفاضل ، صلاح الدين وغيره من الأيوبيين ، والباقي من شعره فى الفنون التقليدية الأخرى كالأرثاء والمجاء والوصف والنثر والزهد والاعتذار والحكمة . وعلى هذا فليس فى ديوانه قسم مستقل للحجاسة كما رأينا عند غيره من الشعراء . أسكنه عرض لها من خلال ذنين من فنون شعره وما المدح والنثر ، وأكثر شعره الجاهلى فى القصائد التى أمدح بها صلاح الدين

(١) معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٦٥ .

(٢) حنلة د جوده الزكالى .

وبعض خلفائه ، وأشاد بمجاستهم ، ووصف معاركهم ، وسجل انتصاراتهم ،  
أوفينا قالة منتخراً ببطولاته وعظمه خلاله . وقد عرض في شعره الحاسي إلى  
ما يأتي :

١ — الإشادة بالأبطال ووصف معاركهم .

أشاد ابن سناء بالأبطال الأيوبيين الذين شاركوا في الحروب الصليبية ،  
وأبلا فيها بلاء حسناً ، ووصف شجاعته ، وسجل معاركهم التي انتصروا  
فيها ، وقصد صلاح الدين بتسع قصائد وأخاه توران شاه بقصيدة واحدة ،  
وابنه الملك الأفضل بأجزاء كثيرة من بعض القصائد ، وبالنظر إلى هذا القدر  
الذي عرض له ابن سناء من خلال فن المدح — كما يقول الديوان — نراه قايلاً  
لا يتناسب مع شعره الكثير ، ولا يتناسب أيضاً مع مكانة صلاح الدين في  
قلوب الناس على عصره ، خاصة إذا كنا نعرف أن مقالته الشاعر في مدح الناضى  
الفاضل بالغ سيما وثلاثين قصيدة ، وأرى أن ذلك راجع إلى كثرة الشعراء  
من حول الناصر ، وانصرافه عنهم كثيراً إلى حروبه ، وأن ابن سناء لم يكن  
ملازماً له كالناضى الفاضل والعماد الأصمباني وغيرهما ، بل كان يبعث إليه  
بقصائده من مصر إلى الشام حيث يوجد صلاح الدين ورجال حاشيته ،  
فإن سناء كان بعيداً في أوقات كثيرة عن أضواء السلطان فاتجه إلى مدح  
الوزراء والإشادة بأبناء صلاح الدين وإخوته .

على أن القصائد التسع التي أشاد فيها بصلاح الدين هي معظم مقالته ابن سناء  
في شعره الحاسي ، ذلك لأن هذا البطل « بهر الشعراء جميعاً » وبرزت مواقفه  
نفوسهم ، وخلق بمواقفه البطولية في صد الصليبيين لوناً من الشعر الحاسي<sup>(١)</sup> .

(١) ابن سناء حياته وشعره ص ٦٦ .

وقد سبق أن أشرنا إلى بعض من تحدثوا عنه من الشعراء بئد حطين ،  
ومنهم - بالطبع - شاعرنا ابن سناء .

وفي سنة ٥٧٥ هـ عندما كان الشاعر يصير بهت بقصيدة إلى الشام حيث كان  
صلاح الدين يحارب الفرنجة ، وينتصر عليهم ، ويأسر فوسانهم وشجعانهم ،  
وهذه القصيدة ذات مطلع غنائى يقول فيه (١) :

أبى صدّما أن يجمع الحُسْن والحُسْنى  
ووجدى بها أن أجمع الجَنْنَ والجَنَفنا  
ثم أشاد به ، وامتدح بطولته فقال :

أقام بدار الكفر تُجَنِّ له الجزا  
وتودى له القَتْنى ، وتُسَبِّى له الحُسْنى  
أصاف وشقى بين عكّا وعَرَقة  
هُمام براما سامة وهو قد أشقى  
أقمت بها التوحيد فخر وحذاء  
وانسيت فيها الروح والأب والابنا

وقد وصف في هذه الأبيات شجاعة صلاح الدين ، وصور ما ألحقه بهيارهم ،  
وأشاد به عندما أقام فيها التوحيد بدل التثليث بما جعلهم يتركونه هارين ،  
ثم تابع إحدى هذه المارك وما جرى فيها قتال :

وقد وقفوا لكن لأسر رقابهم  
وقطف رهس منهم آن أن تُجَنِّ

(١) القصيدة بالديوان ص ٣٢١ .

فَبِتَ لَهم وَالسَّيْفُ قَدْ ذَكَرَهُ الطَّلَى  
وَجَاذَلَتْهُمُ وَالْقِرْنُ قَدْ سَتَمَ الْقِرْنَ  
بَضْرَبٍ يَذِيبُ الشَّمْسَ فِي الْأَفْقِ حَرَهُ  
وَيَحْرِقُ مَا بَيْنَ الْقُلُوبِ مِنَ الشُّحْنِ  
مَعَى مَلَسَتْهُمُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ هَارِباً  
بُحْبُحُ قَفَاهُ الطُّغْيَانُ فَيَدُ وَلَا طَمَعاً  
وَمَا زَالَ أَعْنَى التَّيْنِ وَالْقَابِزِ قَانِي  
وَقَرَعَ الْعَوَالِي قَدْ أَصَمَّ لَهُ الْأُذُنَا  
وَقَدْ أُنْفَتَ مِنْهُ الْمَوَاضِي لَجِينَهُ  
فَمَا تَجَنَّتْ حَوْبَاؤُهُ شَكْرَ الْجَبِينَا<sup>(١)</sup>  
وَلَمْ يَفْرَحِ النَّافُوسَ بَعْدَ انْهَزَامِهِ  
وَلَسَكُنَّهُ مِنْ تَهْدِيدِ قَرَعِ السَّمَاءِ

وبعد أن سجل المعركة بهذه الصورة ووصف انهزام ملك الأعداء انتقل إلى ذكر القواد الذين ماتوا ، أو أسروا فازدحت بهم السجون .

وعندما مرض صلاح الدين في سنة ٥٨١ هـ وهو بمران أرسل ابن سناء إليه قصيدة عن طريق القاضي الفاضل ( كما دته ) يشيد فيها ببطولته وبجهوده في كسر شوكة الصليبيين ، ومطلوما :

أَجْلَسَ لَهْوَى لَيْسَ لِي مِنْكَ تَحْيِيلُ  
لَأَوْحَشْتَ لِي غَابَ لِي عَنْكَ مَوْزِيلُ

(١) الجواب : القدس .

وقد طال هذا الطالع النضائي حتى بلغ عشرين بيتاً من مجموع الأبيات ، وهو ثمانية وخمسون .

ثم تحدث من بطرلة صلاح الدين ، وجهاده في قتال الأعداء ، فقال :

وَبُرَيْلٌ عَزَمًا لِلْأَعْدَى مَبْكراً  
فِيَأْتِيهِ تَفْعٌ لِلْأَعْدَى مُدْلَسٌ<sup>(١)</sup>  
يُرى جَزَلاً فِي حَوَاقِي الْحَرْبِ ضَاحِكاً  
فَلَا الْقَلْبُ مَنْخُوبٌ وَلَا الْوَجْهُ مُتَبَسُّ  
أَغَارَ عِيُوسَ الْوَجْهِ فِيهَا جَوَادُهُ  
وَمَنْ عَجِبَ أَنَّ الْجَوَادَ يُتَبَسُّ  
تَطِيرُ إِلَيْهِ طَائِفَاتُ أَمَانَةٍ  
وَمَعْتَذِرَاتُ مَنْسَةِ أَيْدِي وَأَرْؤُسُ  
وَفِي كَفِّهِ مَاضٍ مَذْيٍ وَكَأَنَّهُ  
مِنَ الْبَرَقِ يَخْفَى أَوْ مِنَ النَّارِ يُقْبَسُ

ففي هذه الأبيات جعل ابن سناء السلطان مبتسماً ضاحكاً في أرض القتال بينما كان حصانه عيوساً مكتئباً بما أثار العجب ، وأخذت أشلاء الأعداء تطاير إليه طائفة منه الأمان من سيفه الذي كان يلمع ويقوهمج من كثرة ضربه للأعداء .

ومما قاله في هذه القصيدة عن لقائه بالصليبيين :

وَأَعْلَمُ فِيهَا الدِّقْعُ وَاشْتَسَكَتِ الظُّلَى  
فَأَصْبَحَ فِيهَا الْمَوْتُ لَا يَنْفَسُ

(١) أغلس : دخل في هلة آخر الليل .



خيولهم أَمَا على كلِّ قَلَمَةٍ  
فتعطوا وأَمَا في الدِّمَا، فتَقَمَسُ  
أَمَرْتَهُمْ أَنْ يُغْزِرُوا قَبْلَ حَرْبِهِمْ  
ولم تَرْضَ أَنْ الْجَيْشَ فِي الْمَرْءِ يَسْكُنُ  
وَأَعْنَاكَ عَنْ كَيْدِ الْأَعَادَى احْتِقَارُهَا  
فَمَا لَكَ فِيهِمْ مُخَيَّرٌ يَتَجَسَّسُ  
لأَعْدَائِكَ الْوَيْلُ الطَّوِيلُ أَمَا دَرَوْا  
بَأَنَّكَ شِمْسٌ مُورِّهَا لَيْسَ يُطْلَسُ

وقد تأثر ابن سناء في هذه القصيدة ببعض ما قاله المتنبي في موقعة الحدث ،  
وعندما نقرأ الأبيات السابقة ، ونراجع أخوانها في ديوان ابن سناء نسوف  
نراه قد تأثر بمعظم الأفكار في ميمية المتنبي .

فابن سناء جعل صلاح الدين يتف في المعركة ضاحكا مستبشرا عندما قال :

يُرَى جَذَلًا فِي حَوَاقِ الْمَرْبِ ضَاحِكَا  
فَلَا الْقَابُ مَنخُوبٌ وَلَا الْوَجْهَ مُقْبِسُ

وقد سبقه المتنبي إلى هذا المعنى عندما قال :

نَمَرُهُ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلِّي مَرْجَعَا  
وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَفْرُكٌ بِاسِمُ

والقصيدتان من بحر الطويل ، وإن كان الروى فيهما مختلفا ، وهما في الإشادة  
ببطلين عظيمين من أبطال الإسلام ، كما أن قصيدة المتنبي في معركة معينة ،  
وهي الحدث بينا قصيدة ابن سناء ليست كذلك ، فقد قالها وصلاح الدين  
في فراش المرض ، ثم نرى الميمية من أولها إلى آخرها عن الحرب والقتال

بمنها تبدأ سينية ابن سناء بمطالع غزلى بلغ عشرين بيتاً ، وأمل هذه هي أهم الفروق الظاهرة بين القصيدتين . والقارىء لا يحتاج إلى من يؤكد له تفوق المتن في قصيدته من كل الوجوه<sup>(١)</sup> مع الاعتراف بمطاع ابن سناء وموهبته الفنية .

ولا يظن القارىء أن مقالة ابن سناء في صلاح الدين من شعر كان يبدوه بالنزول التقليدى كالقصيدتين السابقتين إذ أنه قد أشاد به في قصائد أخرى من غير هذا التقليد ، فله ميمية حماسية تبدأ بقوله :

أرى كل شىء فى البسطة قد نما  
بمدائح حتى تمت أنجم السما

وقد عرضنا في شعره عن صلاح الدين قصيدة تبدأ بقوله :

لست أدري بأى فتحة نمتنا  
يا منيل الإسلام ما قد نمت

وهكذا نراه في شعره عن صلاح الدين قد نمت كثيراً عما سار عليه في معظم فنون شعره من الإبتداء بالنزول كمادة الأقدمين .

ولا ين سناء أيضاً قصيدة حماسية من أولها إلى آخرها ، أشاد فيها بصلاح الدين ، وهناك بفتح حلب في سنة ٥٧٩ هـ . وقد كانت هذه المدينة ذات الماضى القلبد ، والتي تذكرنا بأجناد سيف الدولة ، وبروائع أوى الطيب وأوى فراس . كانت حتى التاريخ المذكور مما تبقى في أيدي آل زنكي ، فأغار عليها صلاح الدين ، واحتلها له ، وأخذ صاحبها عماد الدين زنكي<sup>(٢)</sup> سنجار<sup>(٣)</sup> وعدة

(١) سبق أن عرضنا لها في الباب الأول من هذا الكتاب .

(٢) هو حميد عماد الدين زنكي الذى فتح الرها ، وقهر العلبيين .

(٣) بلد بالعراق .

مدن أخرى عوضاً عنها ، ولعل صلاح الدين قد فعل ذلك اعترافاً بما قدمه الزنكيون له ولآبائهم ، وكان آخرهم نور الدين محمود صاحب الأيادي البيضاء على صلاح الدين نفسه ، وهكذا أصبحت حلب واحدة من البلاد الكثيرة التي تدعى بالطاعة للأيوبيين . وانتهز أن سناء هذه المفاسدة فأرسل من القاهرة قصيدة في هذا القمع إلى صلاح الدين حيث يوجد بأرض الشام ، ولم يبدأها بالقرن ، بل أشاد في مطلعها بالأكراد الذين كانوا يسمون بالأتراك ، قال :

بدولة الترك عزت ملة العرب  
ولابن أيوب دانت شيعه الصليب<sup>(١)</sup>

فالشاعر ينادي بما يمكن أن يسمى بالقومية الإسلامية . فهذه القصيدة ليست عن قتال صلاح الدين للصليبيين ، وإنما عن قتاله لبعض طوائف المسلمين ، فالباغث مختلف ، وإن كان استيلاء صلاح الدين على حلب يعد سبباً من أسباب قوته لجهاد الصليبيين ، وهم العدو الحقيقي له ولسائر المسلمين ، ثم قال :

وفي زمان ابن أيوب غدت حلب  
من أرض مصر وعادت مصر من حلب

وإذا كان الشاعر قد نبه في البيت الأول إلى القومية الإسلامية فإنه هيا الإحساس في هذا البيت إلى الوحدة العربية التي كانت ولا زالت أملاً كبيراً ، وقال :

ولابن أيوب دانت كل مملكة  
بالفتح والصنيع أو بالحرب والحرب<sup>(٢)</sup>

(١) ملة العرب : الإسلام . شيعه الصليب : أتباع الصليبان ( يتصد الصليبيين ) .  
(٢) الحرب بالفتح والصنيع : النهب والسلب .

والدُّهُرُ بالنَّسْرِ الحَدُومِ يَحْدُمُهُ  
والأَرْضُ بِالْغُلَاقِ، والأَفلاكُ بالشَّهَبِ  
إِنَّ العَوَامِمَ كَانَتْ أَيْ عاصِمَةً  
مَشْهُومَةً بِتَعَالِيهَا عَنِ الرُّتَبِ  
جَلِيسَةُ الدَّجَمِ فِي أَعْلَى مَقَازِلِهِ  
وَطَائِلًا غَابَ عَنْهَا، وَهِيَ لَمْ تَنْزِبِ

والشاعر في هذه الأبيات يبدو متأثراً بأبي تمام في تصديده التي أشاد فيها  
بالمعصم الفتح « حورية » وقد يزداد هذا التأثر وضوحاً في الأبيات التالية التي  
وصف فيها ابن سناء جيش صلاح الدين فقال :

أَيُّ لَأِيهَا يَقُودُ الهَرَجَ مَلَقَطِمًا  
وَالْبَيْضُ كَأَوْجِ وَالْبَيْضَاتُ كَالْحَبِّ (١)  
تَهْدُو القَوَارِسُ مِنْهُ فِي سَوَابِهَا  
بَيْنَ الْقَيْضِينَ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ لَهَبٍ  
مُسْتَقْلِمِينَ وَلَوْلَا أَنَّهُمْ حَفِظُوا  
عَوَائِدَ الْحَرْبِ لَاسْتَفْتَوْا عَنِ الْيَلْبِ (٢)  
يَحَالِمُ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِذَا قَفَلُوا  
كَحَالَةِ السَّيْرِ ؛ لَا حَالَةَ الْخَطْبِ

(١) البَيْضُ بكسر الباء : السيوف ، وَالْبَيْضَاتُ : جمع بَيْضَة ، وَهِيَ الْحُوْدُودُ ، الْحَبُّ :  
تضاد الأسمان .

(٢) الْيَلْبُ : الدروع .

وحناء على هذا الفتح ، وأشاد به فقال :

فتحُ الفتوح بلا مَنِّ وصاحبُه  
مَلِكُ اللوكِ ومولاها بلا كَذِبٍ<sup>(١)</sup>  
تَهَنُّ بالفتح يا أولَى الأنام به  
فالفتحُ إرثُك عن آباءك المُجِبِ  
بك المواسم طابتَ بعدما حَبِيتُ  
بإليكيها ، ولولا أنتَ لم تطيبَ

ومع إعجابنا بهذه القصيدة الحاسية التي تعد إحدى القصائد الجيدة في شعر ابن سناء لدم إسرائها في الصنعة ، وجودة صياغتها ، وجزالة ألفاظها ، وتوفر العديد من الصور المتحركة والنايضة فيها إلا أننا لانوافق محقق الديوان<sup>(٢)</sup> عندما قال عن هذه القصيدة في حديثه عن حياة ابن سناء وشعره : « وما أجدر هذه القصيدة أن توضع إلى فرائد المتنبي في سيف الدولة - سجل الشاعر فيها الأحداث ، وانفعل بها ، وعبر عن مشاعره وأحاسيسه وتجربته الرواعية الصادقة ... »<sup>(٣)</sup> .

ولنقرأ له بعض ما قاله عن أبيات من الذونية السابقة ذات المطلع الغزلي الذي قال فيه ابن سناء :

(١) المثل : الكذب .

(٢) هو الأستاذ محمد إبراهيم نصر .

(٣) ابن سناء الملك حياته وشعره ج ١ ص ٦٨ .

### أبي صدها أن يجمع الحسن والحسن

ورجدي بها أن أجمع الجفن والجفنا

قال : « وقد أجاد الشاعر اختيار الألفاظ إجادة جعلته يقف ندا لقد مع  
المعنى في سيفياته .. »<sup>(١)</sup>

ويبدو أن محقق الديوان قد أعجب بابن سناء إعجاباً خالف به الحقيقة  
فذكر ما لو عرضه على ابن سناء نفسه لرفضه حيث جعله مغشواً بالمتنبي ،  
ثم خالف نفسه ، وانتقد شاعره انتقاداً مرّاً ، فهدم به ما بنى له من  
إشادة وإعجاب .

وكثير من الباحثين - خاصة إذا كانوا في أول حياتهم التأنيية -  
يتعصبون لمن يكتبون عن ، فيرتفعونه إلى درجة لا يستحقها ، ولو طال بهم  
المهد لا يفتنوا خطورة جرائمهم القريبية وأعادوا النظر فيما سبق أن قالوه ،  
وتعصبوا له . فابن سناء لم يصل في ( صلاحياته ) إلى ما وصل إليه أبو الطيب  
في ( سيفياته ) وشتان بين هذه وتلك مع الإقرار بمكانة ابن سناء بين شعراء  
عصره وكتابه ، فقد برع في الموشحات ، وألف فيها ، فضلاً عن إغناجه الأدبي  
في مجال النثر الفني مع التأكيد على اختلاف طبيعة الأدب وأنماطه بين القرنين  
الرابع والسادس الهجريين .

#### ٢ - الفخر الحماسي :

لابن سناء قصيدتان في الفخر الحماسي ومقطوعة من ثلاثة أبيات ، ولا يكتر

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١١٦ .

في هذا اللون لأنه كان يختص نفسه ببعض الأبيات في النصائذ التي أشاد  
فيها بالأبطال الأيوبيين ووزرائهم ، فقد قال عن نفسه في قصيدة له من  
صلاح الدين :

ولأني في البشرى وإن فرستني تصبح لأني مؤمن أنفرس<sup>(١)</sup>  
لك الدح متى يفتش السامعون به كأن مديحني ممالك أكوس  
كلانا يدع الصنع مطبق وجأشك في قهر اللوك مجنس  
أما قصيدتنا الفخر فطلع الأولى منها وهي البائية قوله :

أيدقني الدهر عن مطلي ويكثر من لومه لأطلني  
وبقصد صدى إذا ما صدى أراد الوزود على مشري

وقد اقتصر بآيته ، وبلغ في الإشادة بهم ، وعاتب الدهر لعناده وكثرة  
مطله ، ولم يطل نفس الشاعر في هذه القصيدة حيث بلغت عشرين بيتاً .

أما القصيدة الثانية فقد سارت بها الركبان كما يقول عنها ياقوت الحموي  
في معجم الأدياء ، أو تنف دونها فرسان الحاسة كما يقول ابن حجة الحموي  
في خزائن الأدب ، وهي متوسطة بين الطول والقصر إذ تبلغ أبياتها ثلاثة  
وأربعين ، ولم يذكر الهديوان مقاسبة لها ، ومطلها :

سواي يخاف الدهر أو يرهب الردى  
وغيري يهوى أن يكون مخدأ  
واسكتني لا أرهب الدهر إن سطا  
ولا أهدر الوقت الزوام إذا عدا

(١) له قد نظر إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتقوا غرسة المؤمن فإنه  
ينظر بنور الله » .

ولو مَدَّ نَحْوَى حَادِثُ الدُّهْرِ طَارِفَهُ  
لَحْدَتْ نَفْسِي أَنْ أُمِدَّ لَهُ يَدَا

وقد عبر الشاعر عما يحلُّ نفسه ونفوس الصريين من فخر ومزة وثقة بعد  
أن حقق صلاح الدين العديد من الانتصارات على الفرنجة وذلك في ألفاظ سهلة  
وعاطفة متقدة ، وقال :

تَوَقَّدُ عَزَمِي بِتَرْكِ السَّاءِ جَرَّةً  
وَحِلْمِي جِلْمِي تَرْكِ السَّيْفِ مِزَّةً  
وَأُظَنَّا إِنْ أَبَدَى لِي السَّاءُ مِزَّةً  
وَلَوْ كَانَ لِي نَهْرُ الْجَرَّةِ مَوْرِدَا  
وَلَوْ كَانَ لِإِدْرَاكِ الْمُدَى بِغْدَالٍ  
رَأَيْتُ الْمُدَى أَلَا أَمِيلَ إِلَى الْمُدَى  
وَإِنَّكَ عَيْدِي يَا زَمَانُ وَإِنِّي  
عَلَى السَّكْرَمِ مِثْنِي أَنْ أَرَى لَكَ سَيِّدَا  
وَمَا أَنَا رَاضٍ أَنْ أَرَى وَاجِلِي التَّرَى  
وَلِي مِثَّةٌ وَلَا تَرْتَعِي الْأُفُقَ مُفْتَدَا  
وَلَوْ عَلِمْتَ زَهْرُ الدَّجُومِ مَكَانِي  
ظَلَمْتَ جُوعًا نَحْوَ وَجْهِ سَجْدَا  
أَرَى الْخَلْقَ دَوَى إِذْ أَرَانِي قَوْفَهُمْ  
ذَكَاءَ وَعِلْمًا وَاعْتِلَاءَ وَسُودَا  
وَلِي قَلَمٌ فِي أُنْثُلِي إِنْ مَوَزَّنَهُ  
فَمَا حَرَمِي إِلَّا أَمْرٌ لِلْهَيْدَا

وإنظر كيف جعل الشاعر عزيمته المتقدة تميل للساء إلى جرة ملتهبة ، وكيف



يقبل حلة حد السيف ! وذكر أنه نقرة عزيمته بفضل الظلم إذا أحس أن المساء  
يمن عليه ، وبالع و أسرف في مبالغته عندما رفض هدى الله ورضاه إذا كان يأتي  
عن طريق الذلل ، وبالع في فخره لجل من نفسه سيداً للزمان ، وجعل من  
الزمان عبداً له ، ورأى أن مكانته في أجواز النضاء ، وكيف يكون على الأرض  
وهو فوق الناس ذكاء وعلما ومكانة وشرفاً ؟ وذكر أن محته في السكينة  
يقصر عنها حل الديوف والمشاركة في القتال .

وهذه الدالية من أشهر قصائد ابن سناء على الإطلاق لقوتها ، وسهولة  
ألفاظها ، وبديها من التوعر ، وعدم تكلفها ، ولا يؤخذ عليها إلا القل  
والإسراف في المبالغة ، وقد عهد الناس ذلك من أكثر الشعراء .  
وقد امتلأت هذه الأبيات بالحاسة والفخر الماني ، وبالنظر إلى التصيفة من  
خلال مصورها نجدها من أفضل ما قيل من شعر حماسي في هذا المصو .  
ويلاحظ أن الشعر الحماسي عند ابن سناء في مستوى جيد ، والعاطفه عنده  
تقوى وتضعف أو تملو وتبهط ، والألفاظ تجمع بين السهولة والجزالة ، وتميل  
إلى الروق البدئي كسائر شعراء المصو ، وقد انصهت ثقافته الدينية ،  
ومعرفته بعلوم الفلك على فنون شعره ، وبكل هذه الخصائص وغيرها كان  
ابن سناء رائداً ومبرزاً في شعر الحاسة والفخر .

## الفصل الرابع

### الملاحم العامة لشعر الحماسة

« من أول الحروب الصليبية حتى نهاية العصر العباسي الثاني »

قدمت في صفحات سابقة شعراً حماسياً تقريبا خمسة عشر شاعراً من أوطان إسلامية متعددة على مدى حقبة زمنية قد تزيد عن مائة وخمسين سنة . وما ينبغي ذكره أن هذا العدد من الشعراء يعد قليلاً إذا ما قيس بالسك المائل لشعراء الحماسة في عصر الحروب الصليبية . ثم اخترت من هذا العدد ثلاثة شعراء تحدث عنهم ، ومثلت لهم ومثرت الأبيات كتعبير عن الألوان المختلفة للشعر الحماسي إبان الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها .

- ٩ -

لقد كثرت الشعر الحماسي في هذا العصر حتى يمكن أن يكون الشعر الصليبي كله شعراً حماسياً متداً . ففي شعر الحث والتعريض على القتال ترى الشعراء قد أسهموا بنصيب كبير في إيقاظ الشعور العام ، وتحريك المسلمين للذود عن دينهم ووطنهم ، وعبروا عما يدور في نفوسهم من القضايا المصيرية التي شغلهم لسنوات طويلة . وكشفت الشعراء في تسجيلهم المعارك ما حدث فيها من بذل للجهد والمسال ، وأوضحوا نشوة المسلمين بالنصر ، وفرحهم بكل إحقاق يحقق بالصليبيين ، وشادوا بأخلاق الإسلام لما فيها من رحمة بالأسرى ، وعطف عليهم بالحن أو الفداء . وكانت الانتصارات تنير شهية الشعراء لقول الشعر فيكثرون من قرصه وإنشاده ، وبياتون في تهكمهم وسخرتهم من العدو الذي

أغار واحتدى . وهكذا وقف الشعراء بجانب الأبطال ليشعلوا نار المقامة ، ويشهدوا بكل انتصار ، كما توجهوا بفتنهم إلى الأبطال أنفسهم كحماد الدين ونور الدين وصالح الدين . ولم يقف الشعراء عند هؤلاء بل مجدوا غيرهم ممن مدوا أيديهم إلى السيوف ورفضوها لاستغناؤهم ببلاد المسلمين ، وإذا تحققت الانتصارات انصرف الشعراء ففخر بما بذلوه في ساحات القتال ، أو لفخر بجهاد الأبطال وحماسهم .

كان الشعر الحماسي صحيفة تربية ، ووسيلة إعلام ، وسلاحاً معنوياً خفياً ، وفناً وجدانياً رفيعاً ، ولا اتصاله بالحياة وتعبيره عن هذه المواقف كثر هذا الموقف كثرة كثيرة ، وزاد شعراؤه ومحبوه ، خاصة في ظلال الأيوبيين .

٢

دار الشعر الحماسي في هذه الحقبة حول قضيتين أساسيتين هما الدين والوطن أما الدين فلأن الجيوش المغازية كانت تقاتل وهي تحمل الصليب ، وتدعى انتطوي للدين الإسلامي ، وتهدف إلى الإستيلاء على القدس وتأمينه عن طريق فرض الاحتلال على أرض الشام . ثم تجاوز الأوربيون حدود ما كانوا يسمون إليه ، فامتدوا يدهم إلى مصر ، وهددوا الحجاز كله مما أشعل الحاسة في قلوب الشعراء ، وجعل الروح الدينية تسيطر على عواطفهم ومشاعرهم .

وأما الوطن فلأن الفرنجة كانوا يسمون له ، اجنوزوا بخيراته ، وينعموا بأرضه ومائه ، خاصة بعد أن شملهم القحط بأوربة ، ففروا إلى الشرق العربي والإسلامي ، ولهذا كان الشعراء يكتشفون عمسا يدور في النفوس من ثورة وغضب للأرض التي اقتطعت من فلسطين ، وعلى كل فالخفايا على الأرض ، والدفاع عنها ، من صميم الدين .

وقد حفلت الأشعار الحماسية بما يحثهم الدين كالحث على الجهاد ، وكاستشهاد

في سبيل الله ، والدفاع عن العقيدة . وانبرى الشعراء إلى تسفيه ما يثيره الصليبيون من زيف وتضليل مما جعل الناس يسكرون هؤلاء الفزاة ، ويسعون لقاءهم . كما حظيت القدس بنصيب كبير من قريض الشعراء ، لأنها كانت الهدف الأسمى للفرجة . ولما انتصر صلاح الدين في حطين وبيت المقدس أشاد الشعراء من الشعراء بجهاد ، وأنفوا على انتصاراته ، ومجدوا شخصيته ، وأقاموا الدنيا وأقدروها لاسترجاعه بيت المقدس .

وصاغ الشعراء الحاسيون كل هذه الأفكار في قالب تقليدي ومحاكاة واضحة لمن سبقوهم من الشعراء كأبي تمام والبحتري وأبي فراس ، خاصة إذا كان الموضوع يتعلق بإشادة ، ووصف للقتال ، ونفر بالانتصارات . وكان لبعض الشعراء قصائد فيها إبتكار وجدده كقصيدة سبط بن التعاويذي إلى صلاح الدين بعد الانتصار في حطين ، أو القصيدة التي قالها أسامة بن منقذ على لسان نور الدين محمود وأولها :

أبى الله إلا أن يسكون لنا الأسر  
اتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر العصر  
أو القصيدة التي افتخر فيها ابن سناء اللات بحماسة وجهاده وأولها :  
سوى يخاف الدهر أو يرهب العدا  
وغيره يهوى أن يسكون محلدا

والأفكار في معظم ما قيل في هذه الحروب من شعر حاسي تميل إلى الوضوح ولا تنجح إلى الغموض إلا نادرا . ولماذا الغموض ؟ والشعراء يسجلون ما دار في المارك أو يقتضرون بما تحقق من انتصارات . وكانت المعاني مكررة فيها فله معظم الشعراء احتذاء لشعراء الجاهلية والإسلام . ومع وضوح الأفكار الجزئية

في هذه الأسماء إلا أنها قابلة للتفصيلات إذا كان الشعر الحاسي في التعبير  
والقتال أو في الإشادة والتمنئة بالفتوح ، وإن كانت الصورة تختلف في الشعر  
الذي سجل المارك فقد أكثر الشعراء من تصوير الإلتحام بين الجيوش ،  
وأفاضوا في بيان القتلى والأسرى ، وذكروا من التفاصيل ما يؤكد تواجدهم  
في هذه المارك أو إلتصافهم بما يجري فيها على الأقل . وليس للآلف كافي في هذا  
الشعر أو دقة بل تميل في معظمها إلى السذاجة والسطحية والتكرار ، فالعاني  
عند ابن منير تقترب منها عند ابن القيسراني ، وما عند ابن رزيك نجد قريبا  
منه عند أسامة وهكذا .

وأما عن الألفسكار وترتيبها فهي تختلف من شاعر إلى آخر ، بل من قصيدة  
إلى أخرى ، وإن كان أغلب الشعراء قد جاءت ألفسكارهم غير مرتبة تمثيلا مع  
الأتجاه القديم الذي ينظر إلى البيت على أنه وحدة قائمة بذاتها ، وربما لا توضح  
هذه الحقيقة في صياغة ما تقدم من شعر في ألفسكار السابقين لأننا كما نختار من  
القصيدة بعض الأبيات ، ولا تعرض لها مكتملة ، ولنفترض مثلا إلى ما قاله ابن  
القيسراني في عهد الدين ، قد تحدث عن المعركة ، وما يجري على سطحها ، وأشاد  
بالفوز فيها بين أبيات الحرب والإلتحام ، وأنظر إلى البيت الثاني وموضعه بين  
ما قبله وما بعده قال :

فأضررهما نارين : حربا وحُدُعةً      فإ راع إلا سورها والهداد  
فيا ظفراً عم البلاد صلاحه      بمن كان قد عم البلاد فسادُه  
فلا مطلق إلا وشهد وثاقه      ولا موثق إلا وحُلَّ صِنَادُه<sup>(١)</sup>  
والشاعر في هذا العصر الصليبي لا يميز عن نفسه وينسى أنه وأنسانه

تم (١) راجع هذه الأبيات وغيرها ص ١٨١ من هذا الكتاب .

وإسلامه ، ولا يبرهن غيره وينبئ نفسه ، فالأفكار والمعاني تعبير عن الشاعر وأمة ، ووطنه ودينه ، ولهذا كانت الأشعار قوية ومؤثرة وصادقة مع مافي للكثير منها من ضعف في الصياغة وسذاجة في الأفكار .

### ٣

الشعر الحماسي هو شعر التوبة والفرحة ، والمواطف المتقدمة ، والروح الدينية ، والغيرة المؤمنة ، شعر القومية الإسلامية والوحدة العربية ، وقد كان للعاطفة التوبة الصادرة أثرها في هذا الشعر فخلق كثير من الشعراء بغيرهم في آفاق وحدة ، مبرين بحاستهم الدينية للتوجه عما يحرق بأمتهم ، متقدمين لنضال أبطالهم ، مشيدين بكل انتصار يبرزونه ضد الأعداء .

والعاطفة هي عاطفة العزة والنصر ، والحاسة والنصر ، عاطفة مشوبة متوجعة ، ولهذا كان الشعر الحماسي يذم عن إيمان قوى ، وعقيدة راسخة ، وانفعال عميق ، وثورة جامعة ، وغيرة بالغة ، كل ذلك بسبب الأرض المنقصة والمفلسات المنتهكة والحقائق الضائعة .

عاش الناس في مصر والشام سنوات طويلة ، ولم يندوا مع تطاول الأعوام بالانقضاء المدو ، ثم تحقن القصر ، ولم يقل الشعر ذلك بل تجاوب معه ، وغير عنه بجملة وصدق ، ولترجع إلى بعض ما قاله البهاء زهير بعد تحرير دماياط من الصاعدين سنة ١٦١٨ هـ ، قال .

وما فرحت مصرٌ بهذا الفرج وحدها  
لقد فرحت بغدادُ أكثر من مصر  
فن مبالغٌ هذا المناء لسكته  
ويثرب تنهية إلى صاحب القبر

فهذان البيتان بشمران بحرارة العاطفة عند الشاعر ، ويؤكدان أن فكرة الوحدة العربية والإسلامية ليست وليدة اليوم . أرايت كيف كان الشعراء يعبرون عن عواطف الشعوب بصدق وعزيمة وإيمان ؟ وقد تأكد لنا أيضا أن هذه العاطفة الصادقة ذات طرفين الأول : هو الغضب والحقد من الأعداء ، والثاني : هو الإعجاب بما يذله المسلمون من مقاومة أهؤلاء الأعداء .

#### ٤

يقال إن الخيال وليد العاطفة ، ولهذا كلما كانت العاطفة صادقة متقدمة كان الخيال رحبا فسيحا ، وبه يتمكن الشعراء من رسم الصور السكينة والجزئية ، والشعراء الحماسيون في هذه الحروب يختلفون من واحد إلى آخر في صورهم وأخيائهم ، فالصور الخيالية قليلة عند طلائع بن رزيق لتغلب الجانب العقل عند على الجانب الشعوري والوجداني ، وهي كثيرة عن ابن القيسران والبهاء زهير في ضوء ما ذكرنا لهم من أمثلة ، قال البهاء :

وجيش كمثل الليل هولا هوية  
وإن زانه ما فيك من أنجم زهر  
فرويت منهم ظامى البيض والقنك  
وأشبهت منهم طامى الذهب والنسبر

والصور الخيالية في الشعر الحماسي ملائمة لأنسكزه وممانيه ، ومعبرة من العاطفة الدينية والقومية عند الشعراء ، وما ذكروه من هذه الصور على ما بينها من تفاوت يتلائم مع البيئة التي عاشوا فيها ، ومع الانتصارات التي شهدوها ، وقد مال شعراء العراق إلى الوضوح والاعتدال في صورهم على عكس شعراء مصر والشام الذين مالوا إلى المبالغة ، وأسرفوا في التهمك والسخرية . كما جاءت

الصور عند بعض الشعراء سطحية ومتكلفة ، وفي بعضها غريبة ( راجع نونية ابن سناء في الإشادة بصلاح الدين ) . والصور الخيالية مع كثرتها إلا أنها منقولة من السابطين ، ومكررة على السنة أكثر الشعراء ، ويجاوز معظمهم حدود المبالغة المقبولة إلى النلو المسرف ، فقد بالنوا في أخيلتهم وأضفوا على أبطالهم حالات التعجيد لعجايبا يهودهم ، وفرحا بانتصاراتهم ، وشماتة في الفرحة الفزاة ، فانظر إلى وصف أسامة لجيش صلاح الدين :

هو من عرفته فلو عتاهُ نهاره  
لرماه نزع جيوشسه بالنهب

وتعجب مثلى من ابن سناء عندما انتشر فقال :

ولو كان إدراك الهدى يتذلل  
رأيت الهدى ألا أميل إلى الهدى

فالصور الخيالية تختلف من شاعر إلى آخر ، ومن بيئة إلى أخرى ، وقد كانت المبالغة مظهراً عاماً ، وملحاً من ملاح الشعراء الجاهل الحروب الصليبية خاصة عندما يشتد الصراع ، وينزع الشعراء إلى إشعال الثورة ، وإيقاظ الحية ، ووصف المعامع . وكان للشعر المعري ( خاصة ) ميل إلى التهكم والسخرية ضد كل انتصار ، ويمد ما قبله ابن مطروح بمد موقمة المنصورة خير دليل على هذا الانحياز .

##### ٥

تختلف الأساليب بما فيها من أنماط وتراكيب من شاعر إلى آخر ، والمتعارف عليه في الدراسات الأدبية أن أسلوب الجاسة والفخر هو الأسلوب القوي بمكوناته التيميرية . وعندما نعود النظر فيها قدماء نجد أن الأسلوب يختلف قوة



وضمنا من شاعر إلى آخر فهو عند الجوبي في انتصارات صلاح الدين مثال للأسلوب القوي ، للتلاثم مع البطولة وما تحقته في ساحات القتال ، وكذلك كان أسامة والبهاء زعيم في شر المارك والإشادة بالانتصارات ، من حيث الألفاظ الجوزلة والعبارة المحسكة الرصيفة ، ونرى شعراء كثيرين قد مالوا إلى الألفاظ السهلة اللينة التي تحلو كثيرا من الإجماع الشعري . وقد أغضينا الجفون عن شواهد كثيرة تكشف عن هذا الاتجاه: ومع ذلك ذكرنا لابن رزبك شعرا ذا أسلوب سهل لين قريب من الأسلوب الفثري .

وقد حرص شعراء كثيرون على اجتلاب ألفاظ غير ملائمة لجرد ما فيها من حريف المرري يكتمل بها البناء الشعري ، ويتم التأنية ، فتذهب هذه الألفاظ بروعة الشعر وجماله ، وفي مقدمة هؤلاء الشعراء النقاد الأصمعي الذي أقر كثيرا بطريقة التماضي الناضل ، قال :

شكنا يئسا رأسُ الرئيس الذي به  
فقدى حسامُ حاسمٍ ذاك اليئسا  
حتما دمه ماضى الغرار الفسدم  
وما كان لولا غدره دمه يحسى

وكذلك سبط بن النعاويذ الذي قال :

كف تكلفُ الحادثاتِ وراحةُ  
ترتاحُ للجدوى ، وقابُ قُلبُ

وهكذا عمت سهولة اللفظ وضعف البنية التمهيدية معظم الشعر الجساضي ، وقد شاع ذلك بسبب الاتجاه في هذا العصر الصليبي إلى الزخرف والزينة الفنية ، وصارم الكثيرين توشية أساليبهم بالجناس والطباق ، وأسرفوا في استخدام

التورية وسائر ألوان البديع ، وأدخلوا في أساليبهم بعض الألفاظ غير العربية ، وحاولوا محاكاة الشعراء السابقين في الأوزان والقوافي ، فلم يصلوا إليهم بجاءت أساليبهم ضعيفة لفظا وعيارا . ويكاد يشترك معظم الشعراء في استبدال ألوان البديع التي تضاف زينة وزخرفة على الأسلوب ، وإن كانوا يتفاوتون فيما بينهم إمبراغا واعتدالا . وكانوا يحشرون في أساليبهم أيضا أمثلة شعبية وكلمات عامية ، ومن أسرف وبالع وأمعن في تسكفه المبادئ الأصباهي ، والشاعر المصري ابن مطروح .

واستقيم هذا التناول الأسلوب من حيث الإلفاظ إنما في الصياغة وتفكيكا وقلة في بعض التراكيب . وقد تجررت بعض القصائد من هذه القيود ومثلناها في الحديث عن ابن منقذ وابن سناء .

فالغرض للبديع ، والميل إلى الكلمات العامية والأعجمية، وضمت الصياغة كل هذه الخصائص وغيرها ذميت بحال الشعر وروعة أسكنه بقى قويا مؤثرا لما فيه من صدق الملاحظة وقوتها ، وسيطرة الروح الدينية ، وسلاسة الألفاظ عند بعض الشعراء .

#### ٦

أقد تثر الشعراء الجاسيون ببيتائهم التي نشأوا فيها ، وبثقافة عصرهم التي نهلوا منها ، وبمبادئ مجتمعاتهم التي تربوا في أحضانها ، وبأساذنتهم ومملتهم الذين تلقوا عنهم ، وتلذذوا عليهم ، فتأثر ابن سناء بعلوم الفلك ولغة الفرس ، وغير ابن مطروح مما يجرى في بيئته المصرية ، واقتدى المبادئ الناضية الناضل ، وأشاد أسامة بنفسه كأمر ، وانتشر ابن رزيك بشخصيته كوزير ، ثم عبر كل هؤلاء وغيرهم عن الحروب الصليبية ، لأنها قضيتهم الكبرى التي تمس عقيدتهم الدينية وتلطمع التعاملا بأوطانهم وأراضهم وأبطالهم وسلاطينهم .

لقد كثرت الشعراء المصريون كثرة كبيرة إبان الحروب المملوكية ، وحتى نهاية العصر المماليكي الثاني في سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) . وذلك لقيام الدواوين الفاطمية والأيوبية بتشجيع الأدباء ، ورعاية الشعراء ، ثم كان هناك استقرار سياسي في عهد الدولة الأيوبية بخاصة ، وحظيت مصر بذلك لأنها كانت عاصمة الحكم لفاطميين والأيوبيين معا ، على عكس الشام مثلا التي اكتوت بلمحيط الحروب بين العرب والأعاجم أو بين العرب بعضهم ببعض . وكان صلاح الدين عهد تواجد به بالشام لا يمد الوقت السكافي حتى يجالس الشعراء ويستمتع إليهم ، وينتقد أشعارهم كما كان يفعل سيف الدولة في حلب أو للمصاحب ابن عباد في فارس .

كما غاب النقد الأدبي عن مجالس الشعراء ، ولم نجد في هذه الحقبة نقادا يضارعون الأملدى ( الحسن بن بشر ) والجرجاني ( علي بن عبد العزيز ) وغيرهما ، واقتصر من وجد من الأدباء على القيام بالقوافي الجمي أو التلخيص ، بمعنى غياب النقد الموضوعي .

لقد قرأنا عن هذه الحروب أشعارا كثيرة ، ومع كثرتها لم نصل إلى ما قاله اللقي وأبو فراس في سيف الدولة ، فلم يوجد في هذا العصر شعراء منطورون يتخلدون الأبطال ويسجلون المارك بالمسحوق والقدر اللازمين . ولا بد أيضا من التأكيد على أن الحروب الصليبية بما فيها من معارك طاحقة ، وانتصارات عظيمة كانت فوق مستوى الشعر الذي قيل فيها ، وكان أجدر بهذه الأحداث أن تجد شاعرا مطبوعا كأبي تمام أو اللقي ، فلم نجد شاعرا في هذا المستوى لسكان وجده كافيا للارتناج بالشعر الحماسي إلى درجة أكبر وأكثر مما وصل إليه في ذلك الوقت .

لقد أخلص شعراء هذه الحروب لقنهم ، وأجادوا في هذه الأشعار الحماسية

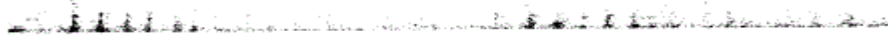
بالنظر إلى مستوى الشعر في عصرهم ، وبلغوا فيها مبلغا كبيرا ، لكنهم اهتموا  
بالزعرى والزينة ، واملدوا الأسلاف المباسين ، وأعرفوا في هذا التقليد ،  
ومع ذلك فقد أدوا دورهم في إيقاظ الشعور العام ، وإحياء الفومية  
الإسلامية والوحدة العربية ، واستناد الأدب كثيرا بهذه الصعوبة في نطاق  
الشعر الخامس على الأقل .

## خاتمة

نهض المماليك في مصر والشام بمجهود كبير في التصدي للصليبيين بعد انهيار الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، ولما كنا بصدد الحديث عن شعر الحاسة في العصر العباسي الثاني فقد اقتصر الحديث على ما ارتبط بهذا العصر، وإتماماً لقائمة ، واستكمالاً للحديث عن الشعر الجاسي خلال هذه الفترة المصيبة ، فنوف نتابع ذلك بإيجاز في أول حكم المماليك .

لقد شغل المصريون بالفتار الذين أغاروا على البلاد الإسلامية حتى التفتوا بالمصريين على أرض الشام ، واقوا الهزيمة على أيديهم في عين جالوت ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، ثم تفرغ المماليك ومعهم الجيش المصري لتصاليبين ، وكانوا قد تشجعوا وتمحمسوا بعد الانتصار على الفتار ، فالتفتوا بهم في عدة مواقع ، وانتصروا عليهم انتصارات حاسمة ، ثم اكتمل الانتصار الأكبر في عهد الأشرف خليل بالاستيلاء على عكا ، وكانت آخر معقل للصليبيين بالشام ، وهكذا فشل الأعداء ، وعادوا من حيث أتوا ، ولم يحققوا أهدافهم ، وأسدل الستار على هذه الفصول الدامية التي راح الآلاف المؤلفة من القتلى ضحية لها على مدى قرنين من الزمان .

وأهم الشعر في الإشادة بالأبطال والبهجة بالانتصار ، وقام شاعر الحاسة في أول عصر المماليك شهاب الدين محمود ( شاعر الشام ) بدور كبير وجهد عظيم في تسجيل هذه الحروب وتمجيد أبطالها ، فقد أشاد بالسلطان بيبرس الذي استولى على أنطاكية وطرسوس وإفا ، وامتدح السلطان قلاوون الذي استولى من الفرنجة على طرابلس ، وانتصر عليهم في عدة مواقع ، وأشاد بابنه الأشرف



خليل الذي أراحهم عن عكا آخر معاقلم بالشام في سنة ٦٩٠ هـ ( ١٢٩١ م )  
فقال فيه - مما قاله - قصيدة حساسة ، فكانت قصيدة النهاية التي طال انتظارها ،  
وهي لا تبعد في خصائصها الفنية عما كان عليه الشعر الجاهلي في عصر الحروب  
الصليبية وحتى نهاية العصر المملوكي الثاني ، وسوف نورد منها بعض  
الآبيات ، قال :

الجلدُ لله زالت دولة الطُّلبِ  
وعزَّ بالسيفِ دينُ المصطفى العربي  
هذا الذي كانت الأملُ لو طَلَبَتْ  
رؤياه في النومِ لاستحييت من الطُّلبِ  
ما بعد عكا ، وقد حُتَّتْ قواعدها  
في البحرِ للشُّركِ عندَ البحرِ من أَرَبِ (١)  
لم يبق من بعدها للكفرِ إذ خرجت  
في البرِ والبحرِ ما ينبغي سِوَكِ ، الحربِ  
ففاجئتها جنودُ الله ، يقدمُها  
غضبُ الله لا لذلك والنَّشَبِ (٢)  
يا يوم عكا ، لقد أنسيت ما سبقت  
به الفتوح ، وما قد خُذ في السَّكْبِ  
لم يبلغ النطقُ حدَ الشكرِ نيك ، فما  
عسى يقومُ به ذو الشعرِ والمطربِ  
أغضبت عبادَ عيسى إذ أبدتهم  
لله ، أي رضا في ذلك الغضب ؟

(٢) النشَب : المال والمغار .  
(١٨ - شعر الحامسة)

(١) أَرَب : مطلب .

والأبيات تعبر عما في قلب الشاعر من حب للهيكه ، ولتصديده طويلاً ،  
وقد طال فيها نفس الشهاب لفرحه بهذا الفتح الجليل ، وقد اخترنا منها الأبيات  
الذكورة لتكشف بها عن مدى فرح المسلمين ، واستبشارهم بهذا النصر  
العظيم ، فقد أطاح الأشرف بمن تبقى من الصليبيين

وتتضح في الأبيات روح الإيمان ، وصدق الماطفة ، ألم يكن الدين هو  
الباعث على الحاسة في هذه الحروب ؟ وألغناظ الشاعر تواكب هذه الروح  
وتسايرها ، وقد احتذى أبا تمام في بانيته الشهيرة التي قالها عند فتح حمورية  
مع ما بين الشاعرين من فرق ، فليشكل منها عصره وخصائص شعره .

ولا نجد فوقاً يذكر بين هذا الشعر الذي قيل في أواخر الحروب الصليبية  
في أول حكم المماليك وتظهره الذي قيل في الفرض نفسه في عهد الأيوبيين بمصر  
والشام في نهاية العصر العباسي الثاني . فلامح الأدب لا تتغير تغيراً جذرياً  
في هذا الأمد القصير من عمر التاريخ الأدبي .

وبعد انتهاء الحروب الصليبية تجمدت الأشعار الحاسية ، وسأرت أغراض الشعر  
الأخرى في ضمتها بما أحيا ألواناً بديلة من القصص الشعبي انصرف الناس إليها ،  
وانشغلوا بها في العصر المملوكي ، ثم عادت الحاسة لليقظة والنهوض مع العصر  
الحديث ، وهذه تستحق دراسة أخرى نأمل أن نوفق إليها في التريب العاجل ،  
وعلى الله قصد السبيل .

## أهم المراجع والمصادر .

- ( ١ ) الإبانة عن سرقات القنبي : للميدى ، طبعة دار المعارف ١٩٦٩ م .
- ( ٢ ) أبو الطيب وما له وما عليه : لأبى منصور النعماني ، الطبعة الأولى ١٣٣٣ هـ - ١٩١٥ م .
- ( ٣ ) أدب الحروب الصليبية : للدكتور عبد القطيف حمزة ، للطبعة الأولى ١٩٤٩ م ، دار الفكر العربي .
- ( ٤ ) الأدب العربي في عصر : محمود مصطفى ، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م .
- ( ٥ ) الأدب في العصر الأيوبي : للدكتور محمد زغلول سلام ، دار المعارف ١٩٦٨ م .
- ( ٦ ) الأدب في عصر صلاح الدين : للدكتور محمد زغلول سلام ، دار نشر الثقافة بالإسكندرية ١٩٥٩ م .
- ( ٧ ) أسرار الحفاصة : سيد علي الرضوي ، مطبعة أبي الهول ١٩١٣ م ، الطبعة الأولى .
- ( ٨ ) الإسلام والحضارة : محمد كرد علي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨ م ، الطبعة الثالثة .
- ( ٩ ) البهاء زهير : للدكتور عبد الفتاح شلبي ، دار المعارف ١٩٨٠ م .
- ( ١٠ ) تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، طبعة دار الهلال .
- ( ١١ ) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني : د . إبراهيم أبو الخشب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الإسكندرية .
- ( ١٢ ) تاريخ الأمم الإسلامية ( الدولة العباسية ) : الشيخ محمد الحفصري بك ، دار الفكر العربي .



- (١٣) تاريخ الدولة الفاطمية : د . حسن إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٨١ م .
- (١٤) الحروب الصليبية : حسين أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣ م .
- (١٥) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي : محمد سيد كيلاني ، دار الفكر العربي .
- (١٦) حسن الحاضرة : للسويطي ، طبع مصر ١٩٢٧ م .
- (١٧) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : لآدم منز ، ترجمة أبي ديدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ م .
- (١٨) الحاسة : للسماحي بيومي وآخرين ، مطابع المعري ( تحت الحراسة ) .
- (١٩) الحاسة في شعر الغالدين ( الأشباه والنظائر ) عام الفسك .
- (٢٠) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : د . أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر ١٩٧٩ م ، الطبعة الثانية .
- (٢١) الغيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي : د . طه أبو كريشة ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ م .
- (٢٢) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين : د . محمد كامل حسين ، دارالفسك العربي ١٩٥٧ م .
- (٢٣) دولة السلاجقة : د . عبد المنعم محمد حسنين ، الأنجلو المصرية ١٩٧٥ م .
- (٢٤) ديوان ابن سناء للآك : تحقيق محمد إبراهيم نصر ، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م .
- (٢٥) ديوان أبي الطيب المعني : شرح البرقوق ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٨٠ م .
- (٢٦) ديوان أبي الطيب المعني : تحقيق د . عبد الوهاب عزام ، لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٤ م .

- (٢٧) ديوان أبي فراس الحمداني : طبعة دار صادر بيروت .
- (٢٨) ديوان أسامة بن منقذ : تحقيق د . أحمد بدوي وحامد عبد المجيد .
- (٢٩) ديوان البهاء زهير : تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وطاهر الجبلأوى ، دار المعارف ١٩٨٣ م ، الطبعة الثانية .
- (٣٠) ديوان سبط بن التماويدي : تحقيق مرجانيوث ، مطبعة المتنطف بمصر ١٩٠٣ م .
- (٣١) ديوان الشريف الرضي : طبعة دار صادر بيروت .
- (٣٢) ديوان طلائع بن رزيك : تحقيق د . أحمد بدوي ، دار نهضة مصر .
- (٣٣) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام : دار المعارف ، الطبعة الثالثة ١٩٦٨ م .
- (٣٤) زهر الآداب : للحصري ، تحقيق البجاوي ، طبعة عيسى الحاي ، الطبعة الثانية .
- (٣٥) شرح ديوان الحاسنة : للرزوق ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧ م .
- (٣٦) شعر الحرب في أدب العرب : د . زكي المحاسني ، دار المعارف ١٩٧٠ م ، الطبعة الثانية .
- (٣٧) شعر الفتوح الإسلامية : النيمان القاضي ، الدار القومية ١٩٦٥ م .
- (٣٨) الشعر في ظل سيف الدولة : د . درويش الجندى ، الأنجلو المصرية ١٩٥٩ م ، الطبعة الأولى .
- (٣٩) الشعر وطوائمه الشعبية : د . شوقي ضيف ، دار المعارف ١٩٧٧ م .
- (٤٠) الصيغ المنبذ عن حيثية المعنى : لابديس ، دار المعارف ١٩٧٧ م ، الطبعة الثانية .
- (٤١) الصعلكة والفتوة في الإسلام : د . أحمد أمين ، دار المعارف .

- (٤٢) صلاح الدين الأيوبي : د . عبد الله علوان ، دار السلام ، الطبعة الرابعة  
١٩٨٣ م .
- (٤٣) عصر الدول والإمارات : د . شوقي ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الأولى  
١٩٨٠ م .
- (٤٤) عماد الدين زنكي : د . عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة  
الثانية ١٩٨٢ م .
- (٤٥) فارس بن حمدان : لعل الجارم ١٩٧٥ م .
- (٤٦) فتوح البلدان : للبلاذري ، النهضة المصرية .
- (٤٧) الفتوة عند العرب : عمر الدسوقي ، نشر نهضة مصر ، طبع لجنة البيان  
العربي ١٩٥١ م .
- (٤٨) النهر والحاسة : حنا الفاخوري ، دار المعارف ١٩٨٠ م ، الطبعة الرابعة .
- (٤٩) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : د . شوقي ضيف ، دارالمعارف ١٩٧٨ م ،  
الطبعة الماثرة .
- (٥٠) فنون الأدب في مجتمع الجذائين : د . مصطفى الشكعة ، الأنجلو المصرية  
١٩٥٨ م .
- (٥١) في النقد والأدب : إيليا الحايي ، دار للكتاب اللبناني ١٩٨٠ م ،  
الطبعة الأولى ج ٣ .
- (٥٢) السكامل في التاريخ : لابن الأثير ، طبعة دار صادر بيروت ، الأجزاء ٩  
و ١٠ و ١١ و ١٢ .
- (٥٣) المعنى : لعلامة محمود محمد شاكر ، طبعة المدنى ( في سفرين ) .
- (٥٤) مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي : د . عبد العال الشامي ، الطبعة  
الأولى ١٩٨١ م .

- (٥٥) معمر في ظلال الخلفاء : د. أحمد مجاهد مصباح ، طبعة دار الطباعة  
المحمدية ١٩٧١ م ، الطبعة الثانية .
- (٥٦) معجم الأدياء : لياقوت الخوى ، طبعة إحياء التراث العربى ١٩٣٨ م .
- (٥٧) معجم البلدان : لياقوت الخوى ، طبعة دار صادر بيروت ١٩٧٧ م .
- (٥٨) معجم الشعراء : للرزاقى ، دار السكتب الملية ١٩٨٢ م ، الطبعة الثانية .
- (٥٩) مع التقى : د. طه حسين ، دار المعارف ١٩٨٠ م ، الطبعة الثانية عشرة .
- (٦٠) ملامح أدبية : د. أحمد الشرباصى ، مطبعة الرسالة ١٩٦٩ م .
- (٦١) المنتخب من أدب العرب : المطبعة الأميرية ١٩٥٠ م
- (٦٢) الموازنة بين الشعراء : د. زكى مبارك ، طبعة مصطفى الحايى ١٩٣٦ م .
- (٦٣) موسوعة التاريخ الإسلامى : د. أحمد شلى ، النهضة المصرية ، الطبعة  
الخامسة ١٩٨٢ م ، ج ٥ .
- (٦٤) نوادر المخطوطات : عيد السلام هارون ( كتاب المعصا ) لأسماء بن منقذ  
المجلد الأول ص ١٧٥ ، طبعة مصطفى الحايى ١٩٨٢ م ، الطبعة الثانية .
- (٦٥) بريمة الدهر : لنعالي ، مطبعة الصاوى ١٩٣٤ م .

## فهرس الموضوعات

| الموضوع                                                             | ص   |
|---------------------------------------------------------------------|-----|
| المقدمة                                                             | ٣   |
| تمهيد                                                               | ٥   |
| الباب الأول (شعر الحاسة في ظلال الحدائين)                           | ١٧  |
| الفصل الأول (الدولة الحدانية في ظل سيف الدولة وأهم الشعراء في عصره) | ١٩  |
| سيف الدولة الحداني                                                  | ٢٤  |
| أبو الطيب المتني                                                    | ٣١  |
| المتني وسيف الدولة                                                  | ٣٥  |
| الفصل الثاني (الحاسة في سيفيات المتني)                              | ٤٧  |
| أولا : معارك سيف الدولة مع الروم                                    | ٥١  |
| ثانيا : معارك سيف الدولة مع القبائل العربية                         | ٩٢  |
| ثورة بني كلاب                                                       | ٩٤  |
| الفصل الثالث (خصائص الشعر الحداني في سيفيات المتني)                 | ٩٩  |
| مطالع القصائد                                                       | ١٠٠ |
| شجاعة سيف الدولة                                                    | ١٠٢ |
| وصف الجنود وطريقة دخولهم المعركة                                    | ١٠٤ |
| وصف الخيل                                                           | ١٠٥ |
| وصف أدوات الحرب                                                     | ١٠٧ |
| وصف الحروب                                                          | ١٠٨ |
| الفصل الرابع (الحاسة في شعر أبي فراس الحداني)                       | ١١٤ |

| ص   | للموضوع                                                                    |
|-----|----------------------------------------------------------------------------|
| ١١٤ | نبذة عن حياة أبي فراس . . . . .                                            |
| ١١٧ | أبو فراس شاعر الحاسة والفخر . . . . .                                      |
| ١١٩ | ١ - حماسته في الحروب . . . . .                                             |
| ١٢٤ | ٢ - شكواه من القعود . . . . .                                              |
| ١٢٨ | الروميات . . . . .                                                         |
| ١٢٨ | ١ - معاناته في الأسر . . . . .                                             |
| ١٣٢ | ٢ - رسائله إلى سيف الدولة . . . . .                                        |
| ١٣٤ | ٣ - شعره عن حاسة قومه . . . . .                                            |
| ١٣٨ | الشعر المسمى . . . . .                                                     |
| ١٤٢ | الفصل الخامس ( شعر الحاسة بين القنبي وأبي فراس ) . . . . .                 |
| ١٥٥ | الباب الثاني ( شعر الحاسة في عصر الحروب الصليبية ) . . . . .               |
| ١٥٧ | الفصل الأول ( الحروب الصليبية وأشهر حملاتها على الشرق الإسلامي ) . . . . . |
| ١٦٢ | مقاومة الصليبيين . . . . .                                                 |
| ١٦٩ | الفصل الثاني ( شعر الحاسة في ألوانه المعقدة ) . . . . .                    |
| ١٧٠ | أولاً : التحريض على القتال والدعوة إلى الجهاد والمقاومة . . . . .          |
| ١٧٨ | ثانياً : وصف المارك وتسجيل أحداثها . . . . .                               |
| ١٨٠ | ١ - معركة الرها . . . . .                                                  |
| ١٨٤ | ٢ - معركة حطين وفتح بيت المقدس . . . . .                                   |
| ١٩٢ | ٣ - معركة دمياط سنة ٦١٨ هـ . . . . .                                       |
| ١٩٩ | ٤ - معركة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ . . . . .                                    |

| ص   | الموضوع                                                  |
|-----|----------------------------------------------------------|
| ٢٠٣ | ثالثا : الإشادة بالأبطال والتهنئة بانتصاراتهم . . . . .  |
| ٢٠٣ | ١ — عماد الدين زنكي . . . . .                            |
| ٢٠٧ | ٢ — نور الدين محمود . . . . .                            |
| ٢١٠ | ٣ — صلاح الدين . . . . .                                 |
| ٢١٩ | ٤ — خلفاء صلاح الدين . . . . .                           |
| ٢٢٠ | رابعا : القصر الجاسي . . . . .                           |
| ٢٢٩ | الفصل الثالث ( من شعراء الجاسة والقصر الحربي ) . . . . . |
| ٢٢٩ | علاء الدين رزيق . . . . .                                |
| ٢٣٧ | أسامة بن منقذ . . . . .                                  |
| ٢٤٨ | ابن سقاء الملك . . . . .                                 |
| ٢٦٥ | الفصل الرابع ( الملامح العامة لشعر الجاسة ) . . . . .    |
| ٢٧٦ | الخاتمة . . . . .                                        |
| ٢٧٩ | أم المراجع والمصادر . . . . .                            |
| ٢٨٤ | فهرس الموضوعات . . . . .                                 |

رقم الإيداع ٧٠٧٧ / ١٩٨٤



2

2

2

2